المصـــادر

مجلة سداسية يصدرها المركز الوطني للدراسات والبحث

في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

عدد خاص

المقاومة والحركة الوطنية

العدد 11

السداسي الأول 2005

المصــــادر

مجلة سداسية تصدر عن المركز الوطني للدراسات
والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 54

- المراسلات والإشتراكات:
63، نهج انتصار 23 نوفمبر 1836 الأبيار، الجزائر العاصمة
الهاتف :24-23-92-(021) (00213)
الهاتف / فاكس: 24-13-92-(021) (00213)
البريد الإلكتروني : cnerch 54@ ist. cerist.dz

العدد الحادي عشر، السداسي الأول 2005 – ISSN1112-2668

المصادر العدد 11

السداسي الأول 2005

محـــتويات العـــدد

كلمة المصادر

دراسات وبحوث

كلمة معالي وزير المجاهدين

محمد الشريف عباس

بعد صدور العدد العاشر من المصادر والـذي خصص للثورة التحريرية هاهو العدد الحادي عشر يخصص للمقاومة الوطنية من 1830 إلى 1954، وبذلك تكون المصادر قد واكبت تخليد خمسينية الثورة التحريرية التي نحتفل بذكراها على مدار سنة كاملة.

فالمصادر إذن لبنة جديدة في مسار بناء الذاكرة الوطنية من خلال نشر بحوث ودراسات أكاديمية في مجال تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية، وهي مجال مفتوح لإسهامات الباحثين من مختلف الجامعات الجزائرية لتقديم خلاصة بحوثهم أو أفضل الدراسات التي عالجوها بمنهجية علمية بحتة بعيدا عن التعصب للأفكار والآراء.

إن الجهود المبذولة من أجل توفير المعرفة التاريخية وتقديمها للدارسين من مختلف الفئات هي غاية **مجلة المصادر** وهي أيضا الغاية المرجوة من تنظيم الندوات والملتقيات المختلفة والتي تعالج مواضيع محددة ومرّكزة مثل: القضاء أثناء الثورة التحريرية، أو الحركات المناوئة للثورة وغيرها من المواضيع التي مازالت الدراسات بشأنها قليلة.

وعليه فإن مثل هذه الندوات و الملتقيات تسمح بتوفير مادة تاريخية دسمة جديرة بالنشر وهنا تكمن أهمية هذه المجلة وغيرها من الكتب والنشريات والإصدارات التي يقدمها قطاعنا الوزاري ناهيك عن الأقراص المضغوطة والمواقع الإلكترونية وما إلى ذلك من وسائل عصرية تساعد على نشر الثقافة التاريخية.

وأختم بكلمة تقدير وعرفان لكل الباحثين الجادين الذين أثروا هذا العدد بمقالاتهم ولهم جميعا ولمجلة المصادر المزيد من الرقي

محمد الشريف عباس

كلمة مدير المجلة

أ جمال يحياوي

بعد صدور العدد العاشر من مجلة *المصادر* الذي خصّص للثورة التحريرية هاهو العدد الحادي عشر يطل علينا في الموعد وقد خصص بدوره للحركة الوطنية والمقاومة وبذلك تكون *المصادر* قد عبّرت عن توجّهات وأهداف المركز المتمثلة في الدراسة والبحث في تاريخ الجزائر ما بين 1830-1962 وهو نفس الاهتمام الذي توليه وزارة المجاهدين لهذه المرحلة التاريخية الهامة من تاريخ الجزائر.

والعدد الحادي عشر، على غرار الأعداد السابقة، غنيّ بالدراسات والبحوث المختلفة بأقلام باحثين أكاديميين من مختلف الأجيال ومن مختلف الجامعات الجزائرية في خطوة نحو تمكين المدرسة التاريخية الجزائرية من الإستفادة من تجارب

وخبرات الأساتذة والمؤرخين الذين أطروا الجامعة الجزائرية عدة سنوات، وللأخذ بيد الباحثين الشباب أيضا من خلال فتح باب المساهمة أمام الجميع، لأن الدراسات الهادفة والبحوث المعمقة الجادة هي وحدها الكفيلة بإثبات الذات والرّد على الطرف الآخر الذي يدعي إحتكار التاريخ وتوظيفه لصالحه محاولاً القفز على الحقائق في عملية تزوير مفضوحة لسيرورة الأحداث المتعلقة بكفاح الشعب الجزائري ضد الهيمنة الكولونيالية.

والمصادر تفتح صفحاتها لكل الباحثين والاساتذة دون تمييز للمساهة في عملية تدوين الذاكرة الجماعية للأمة، وإثراء الرصيد المعرفي والتاريخي للجزائر بمعالجة مختلف الجوانب النضالية من الاحتلال إلى الاستقلال.

فهنيئا للقراء والدارسين بهذا العدد الجديد، ولكل الباحثين والأساتذة جزيل الشكر على إسهامهم وفي دوام ***المصادر*** فضاء للكتابات التاريخية

أ. جمال يحياوي

دراسات وبحوث

نظرة حول حركة الإصلاح الإسلامي والجامعة الإسلامية في القرن التاسع عشر

د. جمال قنان

جامعة الجزائر

يمثل القرن التاسع عشر محطة بـــارزة في تـــاريخ العلاقـــات الغربيـــة الإسلامية. فمنذ منتصف القرن السادس عشر لم يشهد العالم الإسلامي غزوا غربيا مركزا استهدف جميع مناط دار الإسلام مشرقها ومغربها في آن واحد. في الوقت الذي كانت فيه المجتمعات الإسلامية تعاني من وطأة الانحطاط والتخلف على جميع الأصعدة وفي مختلف مجالات حياتها المادية والأدبية وحتى الروحية.

هذا الوضع المتردي الذي عليه المسلمون، جعل معظم الكتاب الغربيين الذين تناولوا شؤون الإسلام والمسلمين في هذا القرن، يعتقدون أن سبب ذلك يعود إلى العقيدة الإسلامية نفسها التي لا تقبل التطور والتـــوائم مـــع حركـــة المجتمعات البشرية. وأن الدين الإسلامي هو الذي يقف عقبة في وجه المجتمعات التي تدين به وجعلهم يتخلفون عن ركب الحضارة والتقدم. فلا ســبيل أمـــام المجتمعات الإسلامية إذا ما أرادت النهوض والارتقاء، إلا الإمســـاك بتلابيـــب الحضارة الغربية واستيعاب قيمها ومثلها وقبول وصاية القائمين عليها.

إن الاعتقاد بتحجر الإسلام وجموده وعجزه عن مواكبة التطور كـــان دارجا وشبه مجمع عليه في الغرب حتى من طرف المفكرين الذين يدينون نمـــط التطور الرأسمالي وتبعاته: الاستعمار والامبريالية. ففي نظر هؤلاء أن المجتمعات الشرقية عموما تعيش نمطا حضاريا مغلقا غير قابل للتطور من الداخل، وبالتالي فإن الاستعمار قد يكون أداة هدم لهذا النمط المتحجر والذي ســيفتح آفـــاق النهوض والارتقاء أمام هذه المجتمعات.

إن هذا الاستنتاج السريع بكون الحضارة الإسلامية لا تـــوفر علـــى مقومات وآليات التطور من الداخل، يعكس في الحقيقة جهلا بوقائع التـــاريخ الحضاري العربي الإسلامي. وهو جهل لا يعاب عليه الغربيون لأنه تـــاريخ لا

يزال لم يكتب بعد. فالمتوفر لحد الآن في هذا المجال هو تسجيل وصفي لوقائع متناثرة مجزأة غير مترابطة الفترات ولا متكاملة فيما بينها. تعوزها أطر محورية تندرج فيها وتجمعها. والتي بواسطتها يمكن رصد المبادئ الكبرى التي تحكمت في مسيرتها واستخلاص النتائج التي انتهت إليها. (1)

1-الخطوات الأولى للإصلاح الإسلامي:

إذا ألقينا نظرة متفحصة على القرنين الماضيين القريبين منا، فإننا سنلاحظ أن هناك بداية تموج لظاهرة حركية انبثقت من صميم العقيدة الإسلامية نفسها وبدون أي تأثير لحركة خارجية أي كان نوعها. وهذا قبل سنة 1798. وهي السنة التي" اعتمدت" كسنة مرجعية على أثر غزو نابليون لمصر، لبداية حركة النهضة في العالم العربي الإسلامي.

فهذه الظاهرة الحركية التي تمثل النواة الأولى لحركة الإصلاح في العالم العربي الإسلامي المعاصر، بذرها الإمام محمد بن عبد الوهاب (1703-1791). لقد كان هدفه الأساسي هو تخليص العقيدة الإسلامية من الشوائب التي التصقت بها عبر القرون والتي كادت تطمس وجهها الحقيقي بسبب ممارسات الطرق الصوفية والطقوس التي ابتدعتها، وجهل العلماء الذين طغى عليهم التقليد والاتباع ومسايرة الابتداع في صلب العقيدة. لقد أدى ذلك إلى أن أصبح إسلام العامة يخالطه الكثير من مظاهر الشرك. لقد أصبح الناس يتقربون للأولياء كوسطاء بينهم وبين الله. يزورون أضرحتهم ويقدمون لها النذر وحتى يحجون لبعض منها في مواعيد معلومة حتى أصبح في كل قرية ولي أو أولياء في كل مقبرة ضريح أو أضرحة يتقرب بواسطتها إلى الله. مشبهينه بأحد سلاطين الدنيا يتقرب إليهم بذوي القربى والجاه عنده.

ظهر الإمام محمد بن عبد الوهاب، في قلب الجزيرة العربية في منطقة نجد يدعو إلى نبذ مظاهر الشرك هذه وعبادة الله وحده " لا إله إلا هو" فلا أضـــرحة ولا أولياء ولا أشجار ولا حيوان. فمشركو العرب في الجاهلية لم يكونوا يفعلـــون أكثر من ذاك. فهم يقولون: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له هو مذهب الإمام محمد بن عبد الوهاب وتلامذته ولذاك أطلقوا على أنفسهم اسم " الموحدين"، وهناك جانب آخر في دعوتـــه الإصلاحية متصلا بعقيدة التوحيد وهو اعتبار كون الله وحده هـــو مشـــرع العقائد فهو الذي يحلل ويحرم. فليس كلام أي أحد حجة في الدين إلا كلام الله وسنة سيد المرسلين. فكلام الفقهاء في التحليل والتحريم ليس حجة في الـــدين. فالمصدر الوحيد للعقيدة هو كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة. وكل من تتوفر فيه شروط الاجتهاد له أن يجتهد على حسب فهمه لنصوص الكتاب والســـنة الصحيحة وغلق باب الاجتهاد نكبة على المسلمين.

انشغل محمد بن عبد الوهاب باصلاح أسس العقيدة نفسها و لم يهتم بشؤون الدنيا الأخرى. ففي اعتقاده أن إصلاح العقيدة هـــي الأســـاس فـــإن صلحت صلح كل شيء وإن فسدت فسد كل شيء[2]. هذه النظرة التاريخيـــة المحدودة الأفق للمجتمع وتفاعلاته حصرت الحركة الوهابية في السلفية الضيقة المجردة ومنعتها من التطور والتفاعل الإيجابي مع احتياجات العصر ومستجداته. بالتالي فلم تكن استجابة كافية للاحتياجات المجتمعات الإســـلامية المعاصـــرة ومتطلباتها، لرفع التحديات الضاغطة التي كانت تواجهها وتبقى الحركة الوهابية رغم هذا القصور، تمثل الخطوة الأولى على طريـــق الاصـــطلاح الإســـلامي.

وستتبعها خطوات أخرى في هذا الاتجاه على يد مصلحين آخرين خلال القرن التاسع عشر.

تمثل الطريقة السنوسية الخطوة الثانية لحركة الإصلاح انطلاقا من طلب العقيدة الإسلامية نفسها.فالشيخ محمد بن علي السنوسي (1787-1859) شيخ الطريقة، كان قد اغترف من العلوم الإسلامية في المغرب والمشرق، قدرا كبيرا أهلته لأن يحتل مكانة مرموقة بين مصلحي هذا القرن. تدرج في مراحل تكوينه بدءا بمحيطه الأسري ثم المحلي، فأخذ العلم على يد أشهر علماء مازرنة في ذاك الوقت ليتوجه بعد ذلك إلى المغرب الأقصى ليستقر في جامع القرويين لعدة سنوات قضاها في توسيع معارفه والتبحر فيها. لقد شجعه بعض مشائخه في جامع القرويين ليستكمل تكوينه و ليجمع السندين " المغربي والمشرقي". وبالفعل، فقد توجه إلى المشرق وأقام بالأزهر مدة قصيرة. ويروي أنه من أسباب قصر إقامته بالقاهرة هو ما وقع بينه وبين أشهر مشايخ المالكية في الأزهر في ذلك الوقت، الشيخ عليش، من اختلاف حول المسائل الفقهية. فهذا الأخير يمثل نموذجا للعلماء المقلدين، عكس الشيخ السنوسي الذي يترع نحو التحرر من التقليد ونبذ التمذهب. ثم انتقل إلى البقاع المقدسة مجاورا بمكة المكرمة لسنوات طويلة. وبها التقى الشيخ سيدي أحمد بن ادريس شيخ الطريقة المحمدية ولازمه، وعنه أخذ ميثاق هذه الطريقة التي اشتهرت فيما بعد باسم الطريقة السنوسية [3] وبانتقال هذا الأخير إلى اليمن عينه خليفة له على رأس الطريقة. قام الشيخ محمد بن علي السنوسي بتأسيس أول زاوية له في جبل أبي قبيس المطل على مكة المكرمة. وبعد سنوات غادر الحجاز متوجها إلى المغرب بنية العودة إلى الجزائر، لكن في تونس اعترضته السلطات التونسية ومنعته من

مواصلة طريقه وأجبرته على العودة من حيث أتى فأختار الإقامة والاستقرار في إقليم برقة، شرق ليبيا عند الجبل الأخضر [4].

عمل المصلح المجتهد، محمد بن علي السنوسي في عدة اتجاهات ترتكز على ثلاثة محاور الأول: هو تكوين شبكة من الزوايا تغطي مساحات شاسعة من شرق ليبيا وغرب مصر ومنطقة الساحل ووسط أفريقيا.

وتقوم هذه الزاويا إلى جانب نشاطها التعليمي والتربوي بدور اجتماعي كبير ممثل في الخدمات التي كانت تقدمها لسكان هذه المناطق. والمحور الثاني ممثل في تلقين السكان أصول الدين الإسلامي الخالي من البدع والخرافات والدروشة. والمحور الثالث يتمثل في العمل على نشر الإسلام والدعوة له في عمق القارة الإفريقية حيث لا يزال أغلبية السكان على معتقدات وثنية. كما لعبت السنوسية دورا بارزا في عرقلة المد الاستعماري وتغلغله داخل القارة الافريقية وخاصة في وسطها حيث حمل أتباعها لواء المقاومة المسلحة في هذه المناطق ضد الغزو الأوربي. فإذا لم تتمكن من وقف تقدمه فإنها لعبت دورا لا يستهان به في الحد من تأثيره. فنزعتها نحو التصدى والمقاومة ضد التوسع الأوروبي هو الذي دفع القوى الاستعمارية إلى شن حرب لا هوادة فيها ضدها وتعقب أثرها للاستئصال شأفتها في كل المناطق التي تسيطر عليها.

إن محمد بن علي السنوسي لم يكن رجل ميدان فقط وإنما رجل قلم وفكر فإنتاجه الغزير يشهد على ذلك. لقد ركز جهده الفكري على الدعوة إلى الاجتهاد مدعما آراء بأبحاث ذات مستوى راق. فالكتابان " أيقاظ الوسنان للعمل بالحديث والقرءان" و " مسائل العشر" خير دليل على ذلك .[5]

إن الظروف الصعبة التي عاشتها المجتمعات الإسلامية خلال الثلثين الأولين من القرن التاسع عشر والتي أخطرها بداية الزحف الاستعماري على "دار الإسلام" وسقوط عدد من الأقطار الإسلامية تحت السيطرة الأوروبية وعجز الثورات المسلحة التي خاضتها الشعوب السلامية التي تعرضت لهذا العدوان – الجزائر، القوقاز والهند – في التصدي لهذا الزحف ووقفه، أزال الغطاء لينكشف اختلال آخر في بنية المجتمعات الإسلامية، يضاف إلى الاختلال المتصل بصلب العقيدة والذي حاول المصلحان محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن علي السنوسي علاجه.

فهذا الاختلال ذو الطابع المادي والمؤسساتي كانت نتيجته التخلف والانحطاط في جميع الميادين فهذا الوضع الذي سيؤدي بالضرورة، ان لم تتم معالجته بكيفية ملائمة إلى وقوع جميع الأقطار الإسلامية تحت السيطرة الأوروبية.

فأوروبا التي كانت قبل قرون مضت وراء التمدن الإسلامي بمراحل، أصبحت اليوم في أوج قوتها. و لم يتحقق لها ذلك إلا بفضل امتلاكها لأسباب البأس المتمثلة في القوة الاقتصادية و التطور الثقافي والعلمي ورقي مؤسساتها السياسية والاجتماعية. يجب على المسلمين أن يعتبروا إذا ما أرادوا الخلاص وأن يأخذوا من تجربة أوروبا ما يفيدهم بدون الانسلاخ عن هويتهم و قيمهم الحضارية. فهذا خيار لا مفر منه حفاظا على بقائهم.

هذه الرسالة التي أراد الجنرال خير الدين التونسي، ايصالها للمجتمعات الاسلامية في عصره. [6] هي خلاصة تجربة لرجل دولة تحمل مسؤولية الشؤون العامة واحتك احتكاكا مباشرا بقادة أوروبا وعلى دراية واسعة بما جرى

ويجرى في بلدانهم. فهي حصيلة لتأمل مقارن بين واقع المجتمعات الإسـلامية و ماهي عليه حالة المجتمعات الأوروبية في عصره.

أرسل خير الدين، رسالته التنبيهية والتحذيرية في نفـس الوقـت إلى جهتين: الأولى إلى " الحكام ذوى الحل والعقد من رجال السياسـة والعلـم" لحثهم على التماس الوسائل الكفيلة لتحسين حالة الأمة الإسلامية، والوجهـة الثانية إلى " ذوي الغفلات من أعوام المسلمين" لكي لا يتمادوا في الإعـراض ورفض ما لدى الغير من المستجدات المفيدة وعدم تشديد النكير على كل من يريد الاقتباس منها خدمة لمصالح المسلمين. وعيا منه بثقـل قـوى الجمـود والتحجر، والرضا بما هو قائم بالرغم من عقمه، بدعوى حماية الدين وحفاظا على القيم الإسلامية من كل ما من شأنه النيل منها؛ فقد استنكر هذا الموقـف من منطلق الإسلام نفسه" الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها" والتاريخ زاخر بالوقائع التي تؤكد هذا المسعى.. بدءا بما هو متواتر عن صاحب الرسالة نفسه في جوابه للصحابي سلمان الفارسي في غزوة الأحزاب، والذي مفاده أن هذه شؤونكم فتدبروها أحسن تدبير، ليتسائل مستغربا " أي مانع لنا اليوم من أخذ بعض المعارف التي نرى أنفسنا محتاجين إليها غاية الاحتياج في دفع المكائد وجلب الفوائد! ؟"(7)

يلاحظ خير الدين أن المناهضين للتجديد والتطور لا يخلو موقفهم من تناقض، فهم يندّدون باقتباس ما هو نافع ومفيد للمجتمع في نفس الوقت الذي يستهلكون ويتهافت ما تنتجه المصانع الأوروبية بدون أن يدروا مدى الضـرر الذي يحدثه هذا السلوك على المستويين الاجتماعي والسياسي. فحرمان صناع البلد من ثمرة جهودهم بسبب كساد بضاعتهم من جراء إقبال النـاس علـى

المصنوعات الأجنبية وهو ما يلحق ضررا كبيرا بهم، والذي سينعكس سلبا على حالة البلاد ككل. " فإن زادت قيمة الداخل والواردات على قيمة الخارج والصادرات، فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة" أما على المستوى السياسي فإن البلاد إن اعتمدت في تلبية احتياجاتها الأساسية على الخارج، فإن ذلك سوف يضعف من قوتها ويشكل خطرا على استقلالها.(8)

يرى خير الدين أن الخروج من هذه الحلقة المفرغة التي تكرس التخلف وترسخ قواعده يجب أن يتم عن طريق التجديد والتحديث الذي يسميه " بالتنظيمات". فهذا خيار لا مفر منه إذا ما أريد تجنب الوقوع تحت السيطرة الأجنبية. يأتي في مقدمة هذا التحديث إدخال تنظيمات سياسية شبيهة بتلك الموجودة عند الأوروبيين. هذه التنظيمات ترتكز على دعامتين أساسيتين وهما: 'لعدل والحرية اللذين هما مبدآن أصليان في الشريعة الإسلامية.

- لقد تصدى خير الدين لردّ حجج المناهضين " للتنظيمات " و " تفنيد آراءهم ليعرج إلى موضوع خطير ألحق ضررا بالغا بالكيانات الإسلامية والتي في مقدمتها الإمبراطورية العثمانية والولايات التابعة لها،والمتمثل في الامتيازات الأجنبية. فهذه كانت بحق جرثومة غرست في جسم الأمة الإسلامية منذ الثلث الأول من القرن السادس عشر. والتي ما فتئت تنخره من الداخل إلى أن حولته إلى هيكل عظمي لا يستطيع الوقوف على قدميه، مع المساعدة، إلا بصعوبة سديدة فهذه حالة الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر والذي ينطبق عليها وبحق وصف الأوروبيين لها بـ " الرجل المريض"

إن الدعوة إلى الاقتباس من أوربا لما هو مفيد للمجتمعات الإسلامية هو الكفيل بإخراجها من دائرة التخلف إلى أفق رحب من شأنه أن يوفر لها

الرقي والرخاء والمناعة، يشكل الشق الثاني من حركة الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر وجزءا لا يتجزأ منها.

2- الشيخ جمال الدين الأفغاني:

في ظل هذه الظروف الصعبة التي يرزح تحتها العالم الإسلامي، برزت شخصية إسلامية عالية المستوى قوية الإرادة، مستوعبة وبعمق التحديات الكبيرة التي تواجه عالم الشرق عموما والمسلمين خصوص. ومدركة للسبل الكفلية لرفع هذه التحديات والشروط المطلوب توفيرها لتحقيق نهضة المسلمين من جهة ومواجهة خطر التوسع الأوربي والتصدي له بنجاح من جهة ثانية.

لقد توفرت للشيخ جمال الدين الأسباب والظروف مما جعلته يكتسب تجربة ميدانية واسعة ودراية عميقة بالمخاطر التي يمثلها المد الأوروبي على مستقبل العالم الإسلامي. كما أن انغماسه في مشاكل أفغانستان في فترة شبابه الأولى جعلته يدرك ويستوعب مكامن الضعف وأسباب التردي التي تثقل كاهل الكيانات السياسية الإسلامية وتنهش بنية مجتمعاتها. فمواهبه الذاتية واجتهاده الشخصي جعلته يكتسب من المعارف ومن التجارب المستوعية ما أهله لأن يحتل مرتبة الصدارة من بين أعلام الإسلام المصلحين، و لم يتجاوز عمره إحدى وثلاثين سنة.

لقد كرس الشيخ جمال الدين الأفغاني أفضل سنوات عمره وأزخرها عطاءا وتضحية من أجل خدمة الإسلام وقضايا المسلمين.وتتوزع هذه المرحلة من عمره على ثلاث فترات: الفترة المصرية (1871-1879) الفترة الأوروبية والفارسية (1883-1892) الفترة العثمانية (1892-1897). وقبلها كان قد أقام في الأستانة بعض الوقت، ومنها توجه إلى البقاع المقدسة حيث أدى فريضة

الحج ليستقر في مصر. وبعد نفيه منها حددت إقامته في الهند حتى نهاية سنة 1882 ليتوجه بعدها إلى أوروبا ومنها إلى الأستانة.

حدد الشيخ جمال الدين منابع تأملاته ومصادر انشغالاته في العبارات التالية: " لقد جمعت ما تفرق من الفكر ولمت شعت القصور ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفني الأفغان وهي أول أرض مس جسمي تراها. ثم الهند وفيها تثقف عقلي، فإيران بحكم الجوار والروابط، فجزيرة العرب.من حجاز هو مهبط الوحي ومن يمن وتبابعتها ونجد والعراق وبغداد وهارونها ومأمونها، والشام ودهاة الأمويين فيها والأندلس. وهكذا كل صقع ودولة من دول الإسلام، وما آل إليه أمرهم. فالشرق الشرق، فخصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه. فوجدت أثقل أدوائه داء انقسام أهله وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد. واتحادهم على الاختلاف. فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربي المحدق بهم " (9)

بعد خروجه من أفغانستان وإقامة قصيرة في بومباي توجه إلى الأستانة حيث استقر بها فترة من الوقت (أكتوبر 1869- مارس 1871)(10)

صادف دخول الشيخ إلى عاصمة الامبراطورية العثمانية الاستعدادات لتدشين الجامعة الجديدة التي أقامتها الدولة على النمط العصري والتي سميت بدار الفنون التي تشمل على ثلاث كليات: كلية الآداب والفلسفة، كلية الحقوق وكلية العلوم الطبيعية والرياضيات.

يبدو أن الشيخ قد سبقته سمعته إلى الأستانة، حيث كان من بين الشخصيات التي تناولت الكلمة في حفل افتتاح الجامعة الجديدة (20 فبراير 1870). كما عين عضوا في المجلس المكلف بالتعليم على المستوى المركزي. في

شهر رمضان من سنة 1287 (ديسمبر 1870) برمجت الجامعة سلسلة من المحاضرات، طلب مدير الجامعة، تحسين باشا، من جمال الدين إلقاء محاضرة حول موضوع تقدم العلوم والصنائع، في إطار هذه السلسلة. ألقى الشيخ بالفعل محاضرة في هذا المعنى أثارت عليه سخطا عارما في الأوساط التقليدية المحافظة التي اتهمته بالإلحاد. وفهمت من المقارنة التي أجراها بين دور الأنبياء والرسل في المجتمعات وبين دور الفلاسفة، والتي أخرجت عن سياقها، على أنه لم يسو فقط بينهم وإنما رجح الكفة لهؤلاء الأخيرين وفضلهم على الأنبياء. على إثر هذه الضجة قرر السلطان عبد العزيز، تحت ضغط المحافظين المقلدين، عزله من عضوية المجلس العلمي المركزي كما طلب منه مغادرة البلاد. ولتخفيف وقع هذا قرار الغير اللائق في حق طيف مرموق، على نفسية الشيخ واستجابة لرغبته في التوجه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، فقد زودته السلطات العثمانية برسالة توصية لشريف مكة ليمد له يد المساعدة، لأداء مناسكه في ظروف حسنة [11] حل الشيخ جمال الدين بمصر في أواخر شهر مارس أو بداية شهر أفريل من سنة 1871 ووجد فيها من حسن الاستقبال والرعاية ومن الحفاوة التي أحيط بها من طرف المسؤولين؛ والتفاف النخبة المصرية والعربية المقيمة في القاهرة من حوله ما جعل مقامه واستقراره بها من أخصب فترات حياته وأثمرها. " ثماني سنين من خيرة السنين بركة على مصر وعلى العالم الشرقي فيها كان يزرع في الأرض بذورا وتستعد للظهور ثم الازدهار. فما أتى بعدها من عشق للحرية وجهاد في سبيلها فهذا أصلها ... لقد جرب " السيد" أن يبذر في فارس والاستانة فلم تنبت ثم جربها في مصر فأنبتت " [12].

لقد توفر له الاستقرار المادي عندما خصصت له الحكومة المصرية مرتبا شهريا

قدره عشرة جنيهات[13]. وهو مبلغ كاف جدا بالنظر لطلبات الشيخ الـتي لا تتجاوز ضرورات الحياة اليومية في حدها المقبول. كما توفرت له الراحة النفسية في المحيط الذي يعيش في وسطه وشعوره بكونه يؤدي الرسالة التي يـؤمن بهـا ويغرس بذرته في تربة خصبة.

اتخذ نشاط جمال الدين في مصر شكلين: نشاط تعليمي في إطار دروس علمية منتظمة يلقيها في بيته على طلبة الصفوف العليـا المجـاورين في جـامع الأزهر. وتشمل الدروس المنطق و الفلسلفة، علم الهيئة (الجغرافيا) والتصوف. وكانت طريقته في التدريس: تحديد الموضوع الذي سيدرسه في إحدى الكتب يعتمدها كمرجع؛ ثم يقوم بشرح الموضوع شرحا مستفيضا وليس قـراءة أو تلقينا لما في الكتاب. فكان يرتقي بطلابه من مرحلـة الفهـم والاسـتيعاب للموضوع إلى مرحلة التحليل والنقد مما في الكتاب حول الموضوع، وتمكـين الطلبة من اكتساب حاسة النقد عن دراية وفهم وإحاطة تجنبا للوقوع في آفـة التلقين والترديد دون فهم واستيعاب.

والشكل الثاني وهي الأحاديث التي كان يلقبها على زواره في بيته أو عند زيارته لشخصيات في بيوتهم أو عندما يحلق حوله، في " مقهى البوسـطة" أي مقهى البريد، نخبة المثقفين والمفكرين وحتى من عامة الناس. كـان لهـذه الأحاديث أعمق الأثر على الحركة الأدبية والفكرية في العالم العربي الإسـلامي لقد نزلت بالأدب من حالة كونه عبدا للأرستقراطية ليتحول إلى أداة في خدمة الشعب تعبر عن آلامه وتدافع عن حقوقه وتسعى إلى تحقيق تطلعاته في التخلص من الاستبداد وتحقيق الحرية والرفاه والرقي الاجتماعي. كان يحث تلاميذته على اقتحام ميدان الكتابة وإنشاء الصحف ومعالجة قضايا الأمـة والـدفاع عـن

مصالحها. ففي سعيه لتوسيع دائرة تأثيره وتنويع المنابر التي يستخدمها لتبليغ أفكاره، خاصة وأن مصر كانت تجتاز في تلك الفترة – عند منتصف السبعينيات – مرحلة جد خطيرة على مستقبلها. فالخطر الأجنبي متربص عند الباب وأسا فينه تدق جسم مصر تحت غطاء الأزمة المالية، فقرر الانخراط في المحفل الماسوني الأسكتلدي. فالمحافل الماسونية في هذا العصر كانت تضم علية القوم في البلاد يرتاد إليها أصحاب النفوذ وصانعي القرار. وكان في نيته تحويل هذا المحفل إلى منبر للدعوة إلى أفكاره.

لما تبين له أن المحفل الاسكتلندي له أهداف غير التي يعلنها في شعاراته وأنه يمتنع عن الخوض في السياسة والدفاع عن حقوق الشعب ورفع المظالم عنه، نقده نقدا شديدا وانسحب منه لينخرط في محفل الشرق الكبير الفرنسي. ويبدو أن الحرية الكاملة قد تركت له في تنظيم هذا المحفل الذي يؤدي طقوسه باللغة العربية. حيث جعل منه ما يشبه حكومة الظل [14] و لم يكن هذا سيئا مألوفا في الحكومات الشرقية.

جلب عليه هذا التوجه خوف المسؤولين وخشيتهم منه خاصة عندما بدأ يقترب من الطبقات الشعبية ويخاطبها بلغة فيها نبرة الدعوة إلى الاستنفار والثورة. " انظر أهرام مصر، وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوه وحصون دمياط. فهي شاهدة بمناعة آبائكم وعزة أجدادكم. هبوا من غفلتكم، أصحوا من سكرتكم. عيشوا كباقي الأمم أحرارا سعداء" [15]

لم يستطيع الخديروي توفيق رغم احترامه وتقديره للشيخ، تحمل استمرار مثل هذا الخطاب، خاصة وأن الشعب المصري كان في حالة احتقان بسبب المخاطر التي تتربص به والتي جلبها عليه أخطاء حكامه وقصر نظرهم.

فحاله يشبه برميل البارود القابل للانفجار في كل وقت، ويخشى إن استمر الشيخ في نشاطه أن تنطلق منه الشرارة التي تفجر البرميل.

توفر للخديوي توفيق الظرف المناسب للتخلص منه. ففي إحدى الليالي من شهر رمضان (1296) ألقى الشيخ خطبة في مسجد سيدنا الحسين ندد فيها بشدة بسياسة الإنجليز الرامية إلى وضع يدها على مصر وموقف الخديوي توفيق الذي يخدم هذا الهدف بوعي أو بدون وعي، مختتما خطبته بالدعوة إلى إحباط هذا المخطط. ارتاع الخديوي ارتياعا شديدا من هذا الخطاب وخشي من عواقبه. في نفس الوقت الذي يمارس فيه قنصل انجلترا ضغطا شديدا عليه لإقناعه بإبعاد الشيخ ونفيه. نفي ليلة 24-25 غشت 1879 قبض عليه واقتيد إلى الميناء لترحليه. فلم تترك له الفرصة للم حاجاته وتوديع أصدقائه، وأجبر على اختيار الوجهة التي يرحل إليها بين بلدين: إيران أو الهند، فاختار هذا البلد الأخير[16]

الفترة الأوروبية الإيرانية 1883-1891:

مكث الشيخ جمال الدين في المنفى بحيدر آباد (الهند) ثلاث سنوات وبضعة أشهر وفي شهر نوفمبر (1882) سمحت له انجلترا بمغادرة البلاد والتوجه إلى حيث يريد. اختار فرنسا كمحطة أولى في رحلته إلى أوروبا. بعض الروايات أشارت إلى كون الشيخ جمال الدين توجه أولا إلى الولايات المتحدة ثم عاد ونزل في فرنسا. والحقيقة أن هذه الرحلة إلى أمريكا لم تحدث. في التقرير الذي بعثت به الشرطة الفرنسية للشرطة الإنجليزية ردا على طلب المعلومات حول الشيخ جمال الدين من هذه الأخيرة جاء فيه أنه قدم مباشرة من كلكوتا إلى فرنسا وأنه وصل إلى باريس في غضون شهر جانفي من سنة 1883 [17]

أقام الشيخ في باريس مدة تزيد عن سنتين ونصف (جـانفي 1883- جويلية 1885) وأبرز ما قام به خلال هذه المدة هو إصداره بمعية الشيخ محمـد عبدة جريدة " العروة الوثقي" التي ظهر العدد الأول منها في 15 مارس 1884. وقبل ذلك كان الشيخ جمال الدين قد أقام علاقات مع الأوسـاط الفكريـة والصحفية الفرنسية. لقد رحبت بقدومه جريـدة "L'Intransigeant " الـتي يشرف عليها الكاتب الفرنسي روشفور. كما رحبت به جريدة Débats وهي جريدة النخبة الفرنسية في ذلك الوقت. لقد نشرت لـه الصـحيفتان عـدة مقالات. [18]

في الأسابيع الأولى من وصوله إلى باريس اتصل به الصحفي اليهودي يعقوب صنوع الذي كان قد تعرف عليه أثناء إقامته في القاهرة، وكان ملازما لحلقاته. فالشيخ هو الذي شجعه على اقتحام ميدان الكتابة وإصدار الصحف. وبالفعل فقد أصدر صنوع جريدة أبو نظارة الهزلية في مصر. وعندما عطلتـها السلطات انتقل إلى فرنسا وأصبح مدرسا للغة العربية. كما قام بإحياء جريدة " أبو نظارة" التي أصبحت تصدر في باريس، يبدو أن الشيخ قد نشـر بعـض المقالات في هذه الجريدة أو على الأقل حاول أن يؤثر على توجهاتها قبـل أن تحدث القطيعة بينهما. لقد تحول الصحفي إلى عدو لـدود للشـيخ وناشـر للإشاعات المغرضة ضده في كل الاتجاهات. [19]

خلال ربيع هذه السنة (1883) ألقى المفكر الفرنسي ارنست رينـان محاضرة في جامعة السوربون تحت عنوان " الإسلام والعلوم" وصل فيهـا إلى خلاصة كون الإسلام معاديا للعلم، وأنه هو الذي سد أبواب العالم الإسلامي في وجه التقدم العلمي والحضاري لهذه البلدان. ونشرت جريدة "Débats" هذه

المحاضرة [20] التي أثارت ضجة في الأوساط الفكرية. استاء منها المسلمون المقيمون في فرنسا، وهم من النخبة في ذلك الوقت. كما قام البعض بالرد عليها ردودا متفاوتة في المستوى. من بينها رد الأستاذ ميسمير رئيس البعثة المصرية في فرنسا والذي شبه الإسلام بساعة اعتلالها الغبار. " يكفي نفض الغبار عليها وتحريك عقاربها لتنطلق من جديد، وربط سبع الإنسانية بعجلة التقدم على طريق العلم والحضارة" [21] كما نشرت جريدة Débats رد الشيخ جمال الدين [22]. فكان ردا متزنا. وهو ما حمل بعض الأوساط الإسلامية إلى الاعتقاد بكونه يقر مقولات رينان حول بعض النقاط الأساسية التي أثارها بدل دحضها وتفنيدها [23]

أسفرت الاتصالات ومساعي الشيخ عن تيلور فكرة إنشاء جريدة عربية في باريس وستدخل هذه الفكرة حيز التنفيذ عندما التحق به الشيخ محمد عبده من منفاه في لبنان عند بداية سنة 1884. ففي شهر مارس من هذه السنة ظهر العدد الأول من جردية " العروة الوثقى" التي صدر منها ثمانية عشر عددا.

حددت " العروة الوثقى" أهدافها في العمل على تنوير الشرقيين وتوعيتهم بما يجب عليهم عدم التفريط فيه لما ينجم عنه إن وقع، من ضعف وسقوط، وتبيان الطرق التي يجب اتباعها" لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هو آت". فمعرفة الأسباب ومنشيء العلل التي أدت إلى ما هم عليه يمثل الخطوة الأولى على طريق العلاج الصحيح المؤدي للخلاص. كما تأخذ الجريدة على عاتقها تأمين هذا المسار بكشف الغطاء عن الأوهام التي أضلت " المترفين والمتنعمين حتى أورثتهم اليأس". إن اكتساب المناعة وتحقيق الخلاص لا يستوجب قطع مسافة طويلة. بل يكفي تدقيق النظر في الأمور الخطيرة والتمعن

فيها قبل أي خطوة تتخذ بشأنها إلى جانب التمسك بالمبادئ التي استرشد بها الأسلاف في مساعيهم والقيام ببعض الخطوات القصيرة " فليس للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوروبي في نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك " لما فيه من تحميل للأمة تجربة أجنبية عنها. فالتقليد والتشبه يؤدي إلى فقدان الوعي بقدرات الأمة الذاتية واستعداداتها؛ وهو ما يجعلها في حالة عجز وشلل، تابعة منقادة. تنبه الجريدة إلى إحدى الضرورات التي يجب إدراكها في ميدان العلاقات الدولية. وهي أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هي الركيزة الأساسية للعلاقات الدولية المتوازنة. فإن غاب هذا التكافؤ فإن هذه الروابط تتحول إلى وسيلة لهيمنة القوي على الضعيف، وستتصدى الجريدة من جهة أخرى " إلى كل ما يلحق بالشرقيين عموما وبالمسلمين خصوصا من التهم الباطلة التي يوجهها إليهم من لا خبرة لهم بحالهم" وأبطال المزاعم التي تروج بكون المسلمين لن يتقدموا على طريق المدنية ما داموا متمسكين بأصولهم والتي بفضلها احتل آباؤهم الأولون أعلى درجات الحضارة والإشعاع الإنساني في عصرهم". وفي جميع خطواتها ستعمل العروة الوثقى على تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة بين أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين" (24)

تحتوي مادة " العروة الوثقى" على قسمين: الأول ويشتمل على المقالات الأساسية ذات طابع تثقيفي وتوجيهي مثل: الجنسية والديانة الإسلامية، ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها؛ انحطاط المسلمين وسكوتهم وسبب ذلك: الوحدة الإسلامية والأمة وسلطة الحاكم المستبد. والقسم الثاني ويتضمن تعليقات الجريدة على الأحداث الجارية متعقبة ممارسات الإنجليز

ومناوراتهم. كاشفة مخططاتهم وأهدافهم الرامية إلى إحكام قبضتهم على أمم الشرق وعلى المسلمين منهم بوجه خاص. وهو ما جعل من المسألة المصرية والحملة الإنجليزية ضد السودان لقمع ثورة المهدي وسياسة انجلترا في الهند، تشكل المحاور الأساسية لتعاليق الجريدة على الأحداث.ذاك أن احتلال الإنجليز لمصر سنة 1882 لم يحظ بأي اعتراف دولي للأمر الواقع الذي فرضه الإنجليز. فهناك مساع واتصالات جارية بين مختلف الأطراف الأوروبية الهادفة إلى وضع حد لاحتلال مصر عاجلا أو على مدى زمني محدد. فالعروة الوثقي عندما ركزت في تعاليقها على مسألة مصر والسودان تسعى للتأثير على هذه الأحداث في اتجاه حمل انجلترا على الجلاء. وهو ما يفسر قيام الجريدة من حين لآخر بتذكير الدولة العثمانية بحقوقها في مصر وهي الحقوق التي ربطتها بحق الشعب المصري في إدارة شؤونه [25]

لم تتح الفرصة للعروة الوثقى لتعمر طويلا، فبضعة شهور وثمانية عشر عددا صدر منها فقط. فالعامل المالي كان السبب الرئيسي، على ما يبدو في توقفها. ولا يستبعد أن يكون للملابسات السياسية دور في تأزيم الوضع المالي للجريدة فالسلطات الانجليزية هي التي دفعت بالخديوي توفيق إلى إصدار قرار بمنع دخولها إلى مصر – وهي التي تستقبل حوالي خمسمائة نسخة من كل عدد أو تزيد قليلا موجهة إلى مختلف شرائح المجتمع المصري وإلى بعض الصحف والمجلات – ومعاقبة كل من وجدت عنده نسخة من الجريدة بغرامة قدرها خمسة جنيهات [26] كانت الجريدة تصل إلى قرائها عن طريق البريد لذ كان من السهل على السلطات أن تتعرف على الأشخاص المشتركين فيها، وبالتالي تغريمهم. وهو ما دفع بهم إلى رفض استلامها تجنبا للغرامة. كما كانت ترسل

إلى مختلف الأقطار الإسلامية منها المغرب العربي الذي كانت أقطاره تستقبل بضعة وثلاثين نسخة من كل عدد[27] جاء في تقرير الشرطة الفرنسية الذي سبقت الإشارة إليه أن الحالة المادية للشيخ تبدو مريحة (جويلية 1883) لكن في تقرير آخر لنفس الجهة ذكر أن وضعه المالي كان مهزوزا (أفريل 1885)، بعض المؤشرات تدفع إلى الاعتقاد بأن الخديوي اسماعيل باشا الذي كان مقيما في منفاه بإيطاليا، وكذلك الجنرال حسين التونسي، يكونان قد قدما مساعدة مالية للجريدة في بداية صدورها. وهو ما لم يتم التصريح به، فالشيء الذي كان دارجا هو كون الجريدة ممولة، حسب قول الشيخين الأفغاني و عبده، من طرف جمعية سرية تحمل نفس اسم الجريدة، ولها فروع في عدد من الأقطار الإسلامية [28] فزيارة الشيخ عبده لتونس في نهاية شهر ديسمبر 1884 كانت على يبدو لغرض تأسيس فرع لهذه الجمعية، ومن أجل جمع التبرعات للاستئناف إصدار الجريدة التي توقفت عند منتصف شهر أكتوبر (1884). بعض الاستنتاجات [29] حول كون الشيخ عبده جمع مبلغا معتبرا من المال في تونس/ حوالي ثمانية آلاف فرنك، وأنه لم يصرح بالمبلغ كاملا للشيخ جمال الدين، تبدو مجرد محاولة للنيل من مكانة الشيخ ونزاهته [30] ذلك أن عودته إلى لبنان مباشرة بعد زيارته لتونس توحي بفشل مسعاه بها. أو على الأقل عدم جمع المال من أجل إعادة إصدار العروة الوثقى. كما أن وضعه المادي في بيروت لم يكن مريحا وهو ما اضطره إلى مكاتبة أحد أصدقائه في مصر من أجل القيام بمسعى لدى السلطات للسماح له بالعودة وقبوله في النهاية عودة مشروطة إلى وطنه.

أما بالنسبة للأفغاني فقد بقي في باريس حتى أواخـــر شـــهر جويليـــة (1885) لينتقل بعدها إلى انجلترا[31] كانت له لقاءات مع مختلف الشخصـــيات الإنجليزية من بينها رسميون في الحكومة الذين كانوا يريدون معرفة رأيه في كيفية تسوية المسألة السودانية. وفي شهر نوفمبر من نفس السنة (1885) توجـــه إلى إيران ليترل ضيفا عند أحد أصدقائه الحاج أحمد خان في مدينة بوشهر . بعض الروايات تشير إلى أن الشيخ توجه إلى إيران بناءا على دعوة ملكها ناصر الدين شاه. وهو أمر محتمل وليس مؤكد. ذلك أن إقامته الطويلة عند صديقه أحمـــد خان (ديسمبر 1885- غشت 1886) تشير إلى عدم اســـتعجاله للالتحـــاق بطهران. وهو ما أدى إلى الاعتقاد بكون دعوة الشاه لزيارته وصلته بعد دخوله لإيران وإقامته في مدينة بوشهر.

استقبل الشيخ استقبالا حسنا من طرف الشاه في بداية الأمر، لكـــن سرعان ما بدأ الجو يتكدر من حوله وخاصة من جهة أمين السلطان (رئـــيس الوزراء) وجماعته وهو ما جعل يطلب الإذن من الشاه لمغادرة البلاد قبـــل أن يستفحل الأمر. توجه في شهر أفريل (1887) إلى روسيا حيث أقام بها حـــتى خريف سنة 1889. مع انقطاع قصير أثناء سفره إلى ألمانيا للالتقاء بالشاه، أثناء عودته من زيارة معرض باريس الدولي، في مدينة ميونيخ. عبر الشاه خلال هذا اللقاء عن استعداده للقيام بإدخال إصلاحات جريئة في مختلف قطاعات الدولة وطلب من الشيخ مساعدته وشد أزره في هذا الاتجاه [32] ولإقناعه بجدية نواياه كلفه بإجراء اتصالات مع المسؤولين الروس من أجل إقامة تعاون بين البلدين في عدد من المجالات. وهي المهمة التي رحب بها جمال الدين الذي كان يـــرى في

التعاون الإيراني الروسي وسيلة لمنع انجلترا من فرض هيمنتـــها المطلقـــة علـــى مقدرات إيران.

إن القرار الذي اتخذه الشيخ بالعودة إلى إيران يدعو إلى التساؤل حول الدوافع الحقيقية التي جعلته يندفع مرة أخرى للارتكاب هذه المغامرة. ذلك أن الوعود التي سمعها بشأن الإصلاحات والضمانات التي أعطيت له أثناء لقائه مع الشاه لم تكن بجديدة بالنسبة له. ففي زيارته الأولى لإيران كان قد سمع مثلـــها ولكن الأمور سارت في الاتجاه غير الذي كان يأمله. وفي هذا المرة كانت هناك مؤشرات تدفعه إلى عدم الثقة فيما سمعه ومن الجهة نفسها التي سبق وأن عانـــا منها. لقد رفض الوزير الأول الذي رافق الشاه في زيارته للأوروبـــا اســـتقباله عندما لم يرد على طلبه في هذا الشأن.

على إثر عودته إلى إيران في نهاية شهر نوفمبر (1889) استقبله الوزير الأول استقبالا فاترا وعبثا انتظر الشيخ رد الزيارة، كما وعده ليطلعـــه علـــى نتيجة اتصالاته في روسيا، لكن بدون جدوى. ليعلن فيما بعد بأن الشـــيخ لم يكلف بأية مهمة لدى الروس. لقد ركب جمال الدين هذه المغامرة بـــدون أن يدرك على ما يبدو، مدى تغلغل النفوذ الإنجليزي في أوساط الحكم في إيران. أو أنه كان يعتقد أن بإمكانه أو يواجه هذا النفوذ وأدواته المحلية إذا ما أتيحت لـــه فرصة الإقامة لفترة من الوقت تمكنه من إقامة علاقات وإجراء اتصالات مـــع الأوساط النافذة في المجتمع الإيراني وتبصرهما بالمخاطر التي يمثلها تنامي النفـــوذ الانجليزي على مستقبل البلاد.

هذه الفرصة لم تتح للشيخ، فبعد سبعة أشهر فقط من إقامته في إيران اضطر إلى الالتجاء إلى مقام الوالي الشاه عبد العظيم والاحتمـــاء بـــه. لقـــد

اجتمعت لدى الشيخ من المؤشرات ما أجبرته إلى هذا اللجوء. فحرمة هذا المقام عند الإرانيين كانت كبيرة جدا إلى درجة التقديس.

فلا يتجرأ أحد على انتهاكها مهما كانت سطوته. من ملجئه استمر الشيخ في أداء رسالته بشقيها التعليمي التوجيهي والسياسي. ازدادت أفكاره انتشارا وسط الشعب ومكانته علوا في النفوس. انعكس ذلك بانتشار التذمر من الحكم وسياسته وهو ما دفع الشاه بتحريض من وزيره الأول إلى انتهاك مقام الوالي الشاه عبد العظيم والقبض على الشيخ وهو طريح الفراش شبه فاقد للوعي والسير به متروع الثياب إلا ما يستره في عز الشتاء (جانفي 1891) في اتجاه الحدود العراقية. وعندما انتاب الشاه وخزة الضمير وللحظة، طلب من وزيره الأول إعطاء تعليمات لزبانيته للرفق بالشيخ ومده ببعض النقود ليستعين بها. لكن هذا الأخير صرح لقنصل انجلترا بكونه سوف يعمل على عدم تنفيذ هذا الأمر بقدر المستطاع [33]

الفترة العثمانية 1832-1897

أقام الشيخ في مدينة البصرة فترة من الوقت حتى استرد عافيته. وخلال هذه المدة كان السفير الإيراني في الأستانة يسعى لدى السلطات العثمانية لقبول استدعاء جمال الدين إلى الأستانة واحتجازه بها. بدأت هذه المساعي تجد قبولا شيئا فشيئا لدى العثمانيين. وقبل أن يتخذوا قرارا في هذا الاتجاه قرر الشيخ مغادرة البلاد والتوجه إلى انجلترا دون أن يعلم ما كان يحاك ضده في الأستانة.

وصل جمال الدين إلى مدينة لندن في بداية خريف 1891، استقبله الأمير ملكوم خان وأنزله ضيفا عنده. كان هذا الأخير سفير لإيران في انجلترا. وعلى إثر عزله وانتزاع ألقابه (1890) أسس جريدة سماها " القانون" تصدر

باللغة الفارسية، والتي اتخذت من نقد نظام الحكم في إيران وسياسته مادتها الأساسية [34] تعاون معه الشيخ في تحرير موضوعات الجريدة، وفي شهر فبراير 1892 تأسست مجلة تحمل اسم " ضياء الخافقين" تصدر باللغة العربية والإنجليزية. حددت المجلة خطها الإفتتاحي في تبيلغ " حصيلة المعارف الشرقية للغربيين والمعارف الغربية للشرقيين". وكذا العمل من أجل التآلف والتقارب بين العالمين الغربي والشرقي. ساهم الشيخ جمال الدين في إصدار هذه المجلة إن لم يكن صاحب المبادرة في ظهورها، حيث اختفت مباشرة بعد صدور خمسة أعداد منها، على اثر انتقال الشيخ إلى تركيا والإقامة في العاصمة العثمانية في شهر جويلية 1892.

تابعت الحكومة الفارسية جهودها في مطاردة الشيخ. لقد بذلت كل من في وسعها لإقناع الإنجليز بطرده من بلادهم. لكن هؤلاء كانوا يردون دائما بكون قوانين بلادهم لا تسمح بذلك. وعندما انتقل الشيخ إلى الاستانة واصلت طهران مساعيها في هذا الاتجاه.

تناقلت أثناء إقامته في لندن إشاعة حول اتصالته مع شريف مكة ومع شخصيات عربية نافذة والتي محورها موضوع الخلافة. ونسبت للشيخ أهداف من وراء هذه الاتصالات والرامية إلى إعلان الخلافة في البقاع المقدسة والتمرد على الخلافة العثمانية [35] ليس هناك في مسيرة الشيخ ما يسند هذا الزعم ويدعمه. فلو كانت غايته تنحصر في مسألة الخلافة كعنوان أجوف لن يغير من واقع المسلمين المتردي شيئا لما تحمل هذه المشاق من أجل الدعوة إلى قيام منظومة إسلامية متضامنة متكافئة لمواجهة الأخطار التي تهدد المسلمين خصوصا والشرق عموما. ولما تجرع آلام الاضطهاد والقهر والمطاردة من بلد إلى بلد

ومن قارة إلى أخرى ولا كتفى بالاستقرار في البقاع المقدسة آمنا مطمئنا. ومن جهة أخرى فلو كان لهذه الإشاعة سندا لما استجاب لدعوة السلطان عبد الحميد والإقامة في الاستانة؛ لأنه في هذه الحالة سيكون كالباحث حث عن حتفه بظلفه كما يقول المثل. كما أنه لم يعرف عنه بكونه أحمق ليركب مثل هذه المخاطرة. وأيا كان مصدر هذه الإشاعة فقد أدت الغرض الذي أطلقت من أجله.

تأثر السلطان عبد الحميد بهذه الإشاعة وحرص على استقدام الشيخ إلى الاستانة ليبقى تحت نظره وفي متناول يده. أوعز السلطان للشيخ أبي الهدى الرفاعي بمكاتبة جمال الدين وتوجيه الدعوة له باسمه للقدوم إلى عاصمة الإمبراطورية. فبعد الإشادة به وبجهوده ومكانته في قلوب المسلمين، لامه على تفضيله الإقامة في بلاد " المشركين" وانتفاعهم بعمله وحرمان إخوانه المسلمين منه. فضل جمال الدين إرسال اعتذاره عن قبول الدولة عن طريق السفير العثماني في لندن. متذرعا بأنه يريد الثأر والانتقام من الشاه ناصر الدين للأذى الذي ألحقه به. عاود الشيخ أبو الهدى تجديد دعوة السلطان في رسالته ثانية. مبينا أنه إذا كان تفضيل إقامته في لندن هو من أجل التشهير بالشاه فإن هذا يمكن أن يتحقق في البلدان الإسلامية كذلك. ملاحظا في ختام رسالته أن عدم تلبية دعوة السلطان هي مخالفة لأوامر الله، موازاة مع رسالتيْ أبي الهدى، كانت هناك مباحثات جارية بين الشيخ جمال الدين وسفير الباب العالي في انجلترا، رستم باشا، وأثناءها أعطيت له ضمانات ووعود تتصل بهدفه الكبير الذي كرس حياته من أجله وهو بعث التضامن الإسلامي.

بعد وقت قصير من حلول الشيخ بالإستانة، بعث الوزير الأول الإيراني بتعليمات لسفيره في العاصمة العثمانية يطلب منه إجراء اتصالات مع المسؤولين العثمانيين لغرض إقناعهم باعتقاله وحبسه. وهي الفكرة التي استبعدها الباب العالي كلية، " لقد استقدمه السلطان إلى هنا بوعود فكيف يمكن له أن يحبسه". لم يقتنع بهذا الرد، فقام بمكاتبة السلطان مباشرة حول الموضوع والذي رد عليه بقوله: " اعتقد أنني قدمت خدمة كبيرة للشاه عندما أبعدت جمال الدين عن الملعون ملكوم خان. جئت به إلى هنا لأغلق فاه لكي لا يكتب ولا ينشر شيئا. وما دام موجود هنا فإنني سأسهر على أن لا يكتب شيئا عن فارس. فيما بعد سوف أرسله إلى أية جهة وسأشغله بتأليف الكتب. وبما أنني أعطيت له ضمانات لكي أقنعه بالمجيء فحسبه يكون عملا منافيا للكرامة الملكية " (37)

يلاحظ على هذه المساعي في اتجاه الباب العالي، أن أطروحة الأصل الفارسي للشيخ جمال الدين لم تظهر بعد. فأصوله الأفغانية لم يتطرق إليها شك عند المسؤولين في طهران حتى هذا التاريخ. لقد تم نفيه مرتين من بلادهم و لم يقوموا بنفي أتباعه من الإيرانيين وإنما سجنوهم و أذاقوهم أشد العذاب. فأطروحة الأصل الفارسي للشيخ ستظهر بعد اغتيال الشاه ناصر الدين (38)

لم تكن إقامة الشيخ في الأستانة مريحة رغم الرفاه الذي أحيط به باعتباره في ضيافة السلطان، غير أن هذه الصفة أخضعته لقيود مادية ومعنوية جعلته في وضع شبه محتجز. وهوما يفسر قلة نشاطه في هذه الفترة. وبعد حادثة اغتيال الشاه ناصر الدين (31 ماي 1896) تأزم وضعه أكثر. لقد أصبح سجينا فعلا كما أكد ذلك هو بنفسه، في آخر رسالة محفوظة له، بعث بها لصديق إيراني " إنني في السجن وأنا أكتب هذه الرسالة ويستحيل علي أن ألتقي مع

أصدقائي وبدون أمل في إمكانية إنقاذي ولا بقائي على قيد الحياة. لست متألما من السجن ولا مذعورا من الموت القريب. سجنت لأنني دافعت عن حرية الإنسان وأسير نحو الموت من أجل أن تحيا الإنسانية" (39)

قبل اغتيال الشاه كانت الحكومة الإيرانية قد طلبت تسليم الشيخ وعدد من أنصاره الإيرانيين الذين التفوا حوله في الإستانة، بتهمة التجريح حين أصدر مناشير في شكل مقامات وزعت في كل من البصرة ولندن وكذلك دعوته للعلماء الإيرانيين وحثهم على إصدار فتوى تقضي بعزل الشاه. اقترح السفير علاء الملك أن يتم تدعيم مساعيه في الأستانة بتحريك القوات على الحدود الإيرانية العراقية للضغط عليها. (40)

بعد اغتيال الشاه وجهت أصابع الاتهام مباشرة للشيخ جمال الدين بكونه له ضلع في الحادثة بل ومدبرها. لقد نفى من جهته أن تكون له أية صلة مباشرة بالحادثة. فموقفه من الشاه موقف سياسي من نظام ككل وليس ضد شخص. فبقاؤه أو اختفاؤه لن يغير من واقع الأمر شيئا إذا بقي النظام على ما هو عليه.

قام السفير الإيراني بمساعي متواصلة وبدون كلل وعلى امتداد ثمانية أشهر من أجل إقناع العثمانيين بتسليم الشيخ لطهران مستخدما كل الوسائل الممكنة من بينها التلويح بإمكانية انسحابه والتهديد بقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين وحتى باحتمال نشوب حرب بينهما. ففي خضم هذه المساعي، ظهر ذلك الادعاء بكون الشيخ جمال الدين من أصل فارسي مذكرا بأن هناك اتفاقا بين البلدين يقضي بتسليم كليهما لرعايا الآخر في حالة المطلبة بهم بدون تقديم أي دليلَ على تورطهم في أي عمل هم متابعون بسببه. لقد بلغت شدة

حقد السفير على الشيخ إلى درجة أن طلب الإذن من حكومته لتنظيم اغتياله في العاصمة العثمانية.

هذه الشحنة من الحقد التي يحملها هذا الشخص ضد جمال الدين تدفع إلى التساؤل فيما إذا لم يكن وراؤها رغبة في تصفية حساب قديم، ذاك أن السفير العثماني في طهران أشار في مراسلة له أن الضغط الذي يمارسه علاء الملك في الاستانة لا يعبر عن حقيقة الموقف الرسمي الذي لا يعطي لهذه المسألة الأهمية التي توحي بها مساعي السفير. ومما يرجح احتمال محاولة تصفية حساب خاص أو عمالة لجهة معينة فإن المطالبة بتسليمه بدأت مباشرة على إثر التحاقه بمنصبه في الإستانة.فلسفة كان قد طلب من السلطات العثمانية حبسه فقط ويبدو أن علاء الملك الذي يتمتع بحظوة لدى رئيس الوزراء قد عين في منصبه الجديد لغاية معينة، وأنه هو الذي أملى الموقف الذي يجب إتباعه حول هذه المسألة على وزير خارجيته وليس العكس.

تنفس السفير الصعداء واستراح عندما تأكد لديه أن وضعية الشيخ الصحية تدهورت تدهورا خطيرا فالعملية الجراحية التي أجريت له لم تعط أية نتيجة. لقد تأكد لديه أن أيام الشيخ أصبحت معدودة وبالتالي [41] فهو لا يرى ما يدعو إلى متابعة المساعي من أجل تسليمه.كان تاريخ هذه المراسلة في 31 ديسمبر 1896 وفي يوم 9 مارس 1897، أسلم الشيخ جمال الدين روحه لله ودفن في مقبرة مغمورة كجندي مجهول وبدون مراسيم.

الجامعة الإسلامية:

إن حركة الإصلاح الإسلامي استكملت على يد الشيخ جمال الدين الأفغاني دعائمها الأساسية ومقوماتها. فهي من جهة، أكدت ضرورة متابعة

العمل من أجل إصلاح العقيدة وتطهيرها من الشوائب التي التصقت بها. وهو الجهد الذي ابتدأه محمد بن عبد الوهاب ودعوته للعودة إلى سنن السلف والذي طوره محمد بن علي السنوسي عندما دعا إلى فتح باب الاجتهاد من جهة، وسعيه للإعطاء بعد اجتماعي لطريقته، بإقامة شبكة من الزوايا تعمل في اتجاهات ثلاثة: التعليم والتثيقف، القيام بالعمل الاجتماعي لمصلحة السكان، والتبشير بالدين الإسلامي والعمل على نشره بين سكان القارة الإفريقية الذين لا يزالون يدينون بالوثنية. ومن جهته كان خير الدين باشا قد أثرى حركة الإصلاح الإسلامي بالدعوة إلى أخذ ما هو مفيد وضروري من التنظيمات الأوروبية من أجل تمكين المجتمعات الإسلامية من التقدم والرقي. فالجهد الذي بذله الشيخ جمال الدين وتلامذته من بعده تركز على تعميق هذه الجوانب وإثرائها ونشرها على نطاق واسع من خلال إقامة مؤسسات قادرة و ثابتة في خدمة هذه الأهداف. [42] كما أقام الشيخ دعامة رابعة وهو العمل من أجل إحياء " روابط المليّة" بين المسلمين وبعث التعاون والتضامن والتكافل فيما بينهم من أجل التصدي للأخطار المحدقة بهم من جراء المد الأوروبي وتهديده للأقطار العالم الشرقي عموما والأقطار الإسلامية بوجه خاص. فهذا الجانب من حركة الإصلاح الإسلامي هو الذي يطلق عليه تيار الجامعة الإسلامية والذي يسميه الأوروبيون البانيسلاميزم" الذي يحمل في نظرهم اتّجاها عدائيا ضدهم.

إن الأثر المتبقي من الشيخ جمال الدين حول هذا الموضوع، يتضمنه أساس جريدة العروة الوثقى. ومن المعروف أن أوراقه الشخصية ومكتبته الخاصة لعبت بها الأيدي في كل مرة يتعرض فيها لنفي أو اعتقال. حدث ذلك

في مصر سنة 1879. وفي إيران سنة 1890. كما تم نهب منزله والاستحواذ على أوراقه ومكتبته ومقتنياته الشخصية من طرف السلطات العثمانية بعد وفاته.

وضعت اللبنات الأولى للعمل الإسلامي في هذا الإتجاه، على ما يبدو، أثناء إقامة الشيخ في حيدر أباد (الهند) على إثر نفيه من مصر. لقد تأسست جمعية سرية " تضم عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصا البلاد الهندية والمصرية " (43) فهذه العصبات الخيرة هي التي قامت بتمويل جريدة العروة الوثقى.

إن موضوع القومية في القرن التاسع عشر كان محورا أساسيا من محاور انشغالات هذا القرن الفكرية والسياسية. وهو ما جعل بعض المؤرخين يطلقون عليه اسم قرن القوميات. من زاوية هذا الانشغال عالجت العروة الوثقى موضوع" الجنسية والديانة الإسلامية" تعرض فيه الشيخ إلى تدقيق وتعميق الفكرة ما إذا كان التطور القومي، حالة فطرية أو مكتسبة ليصل إلى أن هذا الشعور الذي يعني الانتماء إلى إقليم معين والى مجموعة بشرية محددة ليس شعورا فطريا وإنما هو مكتسب. مدللا على ذلك بمثال ساقه في هذا الصدد، وهو أن الطفل يولد في موطن والديه ثم يهاجر إلى بلد آخر ولست له فكرة عن بلده الأصلي ولن يحدثه عنه أحد فإنه سيجد نفسه مرتبطا بالبلد الذي تربى فيه ونشأ. ويألفه أكثر ما يرتبط بموطنه الأصلي. وهذا دليل على كون الشعور القومي ليس ميلا فطريا بالطبيعة وإنما هو نزوع مكتسب لأن الطبيعة لا تتغير. ليصل إلى نتيجة أخرى كون المسلمين على اختلاف أقطارهم يعرضون عن التعصب العرقي أو أية عصبية أخرى ويترفعون عن الروابط الخاصة ليتعلقوا بالرابطة العامة وهي رابطة المعتقد. " هذا ما أرشدنا إليه سيرة المسلمين من يوم

نشأة دينهم إلى الآن. لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين. لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي والفارسي يقبل سيادة العربي والهندي يذعن لرئاسة الأفغاني ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض" (44) ويفسر هذه الحالة بكون الدين الإسلامي يتميز عن الأديان الأخرى، فوجهته ليس نحو الآخرة فقط وإنما يحث الناس كذلك على التمسك بالقيم ومبادئ الاستقامة التي تكسبهم سعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة والتي يعبر عنها في المصطلح الشرعي " بسعاة الدارين" فهو يسوي في أحكامه بين جميع الأجناس والأمم المختلفة.

ففي هذا السياق يذكر الشيخ موقف بعض المسلمين " وهم قلة" الذين يلجؤون لحماية سلطة أجنبية هروبا من تعسف حكامهم وجورهم" على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطوها في هذا الطريق. فمثلهم كمثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع" (45)

تناولت العروة الوثقى موضوع الوحدة الإسلامية، مبتدأة بإبراز إحدى المقومات الأساسية لهذه الوحدة والمتمثلة في الرقعة الجغرافية الواحدة التي تمتد من على شواطئ الأطلسي غربا إلى تخوم الصين شرقا ومن قازان شمالا إلى سر نديب الواقعة تحت خط الاستواء جنوبا.ففي هذه الرقعة التي تسكنها شعوب مختلفة ولكن كلها تتفيأ تحت ظلال الإسلام وتجمعها عقيدة واحدة. وكان للمسلمين فيها السلطان الذي لا ينافس وجيش لا يهزم وأساطيل لا توارى في البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندي. " فكان خليفتهم العباسي ينطق بكلمة فيخضع لها فغفور الصين وترتعد منها فرائس أعظم الملوك في أوروبا" (46) في الشرق كما في الغرب، رجال أفذاذ رفعوا راية العلم والمعارف

عالية أنارت السبيل أمام الإنسانية ومدت لهم يد النهوض والارتقاء. " كـــان ذلك شأنهم الأول، و المسلمون اليوم يملؤون تلك الأقطار التي ورثوهـــا عـــن آبائهم وعددهم لا ينقص عن أربعمائة مليون. ولكنهم مع هذا كله وقفـــوا في سيرهم. بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها أساتذة العا لم" (47)

وترجع أسباب الضعف والانحطاط الذي حاق بالمسلمين إلى انفـــلات عقدة وحدتهم السياسية وتناحر طلاب الملك فيهم وتعددهم " كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة". وتغلب طابع الهوى والسفاسف من الأمـــور علـــى العقـــل والحكمة والمصلحة العامة. واقتناعهم بألقاب السلطنة وما يتبعها من مظـــاهر الفخفخة والأبهة ونعومة العيش أقعدهم عن طلب المجد والرفعة. ومـــن أجـــل الحفاظ على سلطانهم الواهن لا يجدون غضاضة في استعداء مـــن يخـــالفهم في الدين والجنس على أبناء ملتهم. فهذا السلوك المشين هو الذي أبـــاد مســـلمي الأندلس وقوض أركان السلطة التيمورية في الهند وهكذا تلاعب أهواء السفهاء بالممالك الإسلامية وقذفت بها أمانيهم الكاذبة في مهاوي الضعف والوهن. قبح ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون

فلو ترك المسلمون بعقيدتهم الخالصة وشأنهم " ورعاية العلماء العاملين منهم و لم ينحز فيهم سموم المفسدين طلاب الملك ولو على قرية لا أمر لها ولا نهي لاجتمع شرقيهم بغربيهم وشمالهم بجنوبهم ولبى جميعهم نداءا واحدا." فمـــا يحتاجه المسلمون اليوم هو إدراك المخاطر التي تحيط بهم وتحديد ما يجب عليهم عمله مجتمعين للدفاع عن أنفسهم " لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك أمـــر في الجميع شخصا واحدا؛ لأن هذا ربما عسيرا. ولكن أرجو أن يكون سلطان

جميعهم القرآن، ووحدهم الدين. كل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته وبقاءه ببقائه" فهذا التناصر والتكاثف إلى جانب كونه أساسا في الدين تقضي به الضرورة اليوم وتفرضه الحاجة في هذا العصر:" ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة وتوقظ من الرقدة تصدر عن أعلاهم مرتبة (من حكام المسلمين) وأقوالهم شوكة. ولا نرتاب في أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا العمل الشريف " (48)

هناك عنصران يتحكمان في نشأة الأمم وفي علاقاتها مع بعضها البعض. أولهما هو النزوع إلى التجمع والوحدة عندما تتوفر خصائص مشتركة لدى مجموعة من البشر تدفعها إلى التعاون والتناصر بين أفرادها. فهذا التجمع تنجم عنه حاجة هذه المجموعة إلى الدفاع عن كيانها وحماية مصالحها ضد قوى مماثلة تحاول النيل منها. وهو ما يحتم عليها مغالبتها. فظاهرة المغالبة هذه سنة من سنن الحياة الدولية. " كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها ويشتد به بناؤها فلا بد يوما أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض. إن التغذية في الأمم كالتغذي في الحياة الشخصية، فإذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو ثم ارتدت إلى الذبول والنحول، ثم أفضت إلى الموت والهلاك" (49)

فهذان العنصران" الوحدة والغلبة، يشكلان ركيزتين أساسيتين في الدين الإسلامي وفرضين محتومين من تركهما فله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة. وهل حالة المسلمين اليوم وما هي عليه من الاختلاف فيما بينهم والاستسلام لحياة الذل والهوان والخنوع للأجنبي، تتلاءم وما يفرضه الدين على المسلمين من عز وريادة ومناعة. و " هل يسوغ لنا أن ترى أعلامنا منكسة

وأملاكنا ممزقة، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا، ثم لا نبدي حركة ولا تجمع على كلمة وندعي مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد (ص). وأخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الإسلام" (50)

يجب على المسلمين أن يدركوا بأنهم مطالبون عند الله بالمحافظة على دار الإسلام أي على كل ما في أيديهم من البلدان. فهذا فرض عين وكلهم مأمورون بأداء هذا الواجب، فلا فرق بين من تجمعهم جنسية واحدة أو أنهم جنسيات مختلفة متفيئين تحت ظلال الإسلام. فالتفريط في حماية أرض المسلمين يقع إثمه على الجميع، ويتحتم عليهم جميعا بذل التضحيات مهما كانت غالية، و ركوب كل الصعاب واقتحام كل المخاطر، فلا يجوز مسالمة من يغالبهم بحال من الأحوال لقد " بالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التخلص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة من دار حربه" (51)

بعد التذكير بهذه المبادئ الأساسية في الإسلام في مواجهة من يعتدي على أرض المسلمين، حاول الشيخ جمال الدين تشخيص أصل الداء وجذوره الأولى التي نفذت في جسم الأمة وانتشرت في مفاصلها إلى أن أوصلتها إلى ما هي عليه اليوم." بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الأمة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم" ويرى أنه عن واجب العلماء العاملين بما شرفوا به من المكانة في الإسلام كورثة الأنبياء أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية

ويتجاوزوا الاختلاف الذي وقع بسبب الملك، بالدعوة إلى الاتفاق الذي يدعو إليه الدين ويحث عليه، فالفرصة لا تزال متاحة أمام المسلمين للنهوض والارتقاء واستعادة مكانتهم الماضية. فلا يجوز للمسلمين أن يقنطوا من رحمة الله، وعيب في حقهم أن يستسلموا لليأس ويرضخوا للذل والهوان ويخضعوا للسلطة الأجنبية. ويتقاعسوا عن إعلاء كلمة الله. " وهم إلى الآن لم يبتلوا بما ابتلى به كثير من الأمم، فإن لهم ملوكا عظاما، ولا يزال في أيديهم ملك عظيم على بسيط الأرض وأن من الحق أن نقول: إن أبواب رحمة الله مفتحة أمامهم وما عليهم سوى أن يلجوها" (52)

إن الوحدة الإسلامية التي ينشدها جمال الدين، ليست مجرد وحدة فوقية جوفاء تتلاشى وتندثر لأول عاصفة تعترضها، وإنما تلك الوحدة الراسخة والضاربة جذورها في أعماق مسار التاريخ الإسلامي. حوصلة لتجاربه النافعة ومدركة لمزالقه التي تسببت في سقوط الأمة وتدهورها. تتوالى على الأمم دورات الوقعة والسقوط والقوة والضعف. ولكن لكل حالة من هذه الحالات أسباب عميقة ومسببات مباشرة. ويرى أن المحاولات التي تبذل في بعض البلدان الإسلامية فيما يعرف " بالتنظيمات" لن تكون بذات جدوى لأنها تنطلق من منظور خاطئ لعلاج الداء الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية. فبذل العمل على تشخيص الداء أولا من خلال معاينة الحالة معاينة مباشرة متفحصة ودقيقة. وهذا يعني متابعة مسار المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ والتعرف على العوامل التي أكسبتها أسباب البأس والمنعة وجعلتها تتصدر الركب الحضاري للإنسانية؛ ثم كيف بدأ الضعف يدب فيها شيئا فشيئا إلى أن أصبحت على ما هي عليه اليوم ومما يزيد من صعوبة العلاج تعقيدا هو الاعتقاد الدارج بأن المداوات إنما

تكون عن طريق إتباع مسار الغير. فهذا التبسيط لعلاج مشـــكل الانحطـــاط والتردي يزيد الداء استفحالا. فمثله كمثل الطبيب القاصر فلا يزيد للمرض إلا اشتدادا. " كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الأمم على غـــير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها وأنواعها. وما يكتنـــف ذلك من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتالية على اختلاف مواقعها مـــن الأرض ومكانتها الأولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة؛ وتدرجها فيما بين المترلتين فإن أخطأ طالب إصلاحها في شيء مما ذكرنا تحـــول الـــدواء داءا والوجود فناءا" (53)

يتصدى الشيخ لمناقشة بعض الآراء حول طرق العلاج لحالة الانحطاط التي عليها المسلمون، كالرأي القائل بأن إصدار الجرائد وتوزيعها على نطـــاق واسع هو السبيل لإنهاض الأمم وترقية الأفكار وتقويم الأخلاق. فهـــو يبـــدي تحفظا حول النتائج المحدودة التي يمكن الحصول عليها بهذه الوسيلة وحتى مـــع توفر النية الحقة والرغبة الصادقة لخدمة الهدف المعلن دون مواربـــة أو حبـــا للكسب أو لنيل مآرب شخصية أو فئوية غير معلنة، إن القراء الجيدين القادرين على فهم الرسالة قليلون" مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث إن هذا وحقك لعزيز" كما يلاحظ على الرأي القائل بأن العلاج يكمـــن في إنشـــاء المدارس على النمط الأوروبي دفعة واحدة ونشرها في كل مكان، بأن مثل هذا العمل العظيم إنما تقوم به سلطة قوية وتتطلب أموالا كثيرة وهو ما لا يتوفر عند المسلمين اليوم. " فهل من الضعف سلطة تقهر وثروت تغني" ولو كان للأمـــة هذان لما عدت من الساقطين" فإذا كان يتفق مع الرأي القائل بإمكـــان نشـــر العلوم والمعارف تدرجا مع الثبات و الاستمرار في متابعة هذا الجهد. غير أنـــه

يضيف ملاحظة تستدعي التوقف عندها والتأمل فيها بعمق عندما قال بأن القوى المتسلطة في العالم سوف لن تسمح لهذه الجهود بأن تصل إلى مداها وتحقق النتائج الموجودة منها. كنا يرى في إرسال البعثات إلى الخارج أن معظم أفرادها يعودون مبهورين بما رأوه وما تعلموه. مأخوذين بعظمة الأمة التي تعلموا عندها معتبرينها قدوة يجب الإقتداء بها، وكمال ينشدون تحقيقه في بلادهم بحيث يكونون في أمتهم" كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فسادا" ويهدمون ما تبقى لها من ثوابت تشد أفرادها بعضهم ببعض . فالعثمانيون والمصريون شيدوا عددا من المدارس على النمط الأوروبي و أوفدوا بعثات إلى البلدان الأوروبية لينقلوا ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف وكل ما يسمى بالتمدن." فهل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقه!؟ [...] وهل أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟ ! هل نالوا بها من المتعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم ... علمتنا التجارب بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ وقوى يتطرق الأعداء إليها. وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم، شئما على أبناء أمتهم يذلونهم ويحتقرونهم ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت" (54) يؤكد الشيخ مقولته هذه بواقعة تاريخية تتصل بأفغنستان عندما قال إنه لو كان في هاته البلاد عدد قليل من هذه الفئة عندما استولى الإنجليز على بعض أراضيها لما اندحروا عنها أبدا".

إذن ما هو الحل؟ وكيف يكون النهوض؟ "فالجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر ولو صحت الضمائر فيها. والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد. " فالحل في نظر الشيخ يكمن في

التمعن جيدا في نشأة الأمة الإسلامية وكيف سادت ثم سقطت حتى تتبين مكامن الخلل. فالذي جمع كلمتها ورفع شأنها هو " دين قويم الأصول محكم القواعد شامل لأنواع الحكم باعث على الألفة داع إلى المحبة مزك للنفوس.. كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبادئ الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها. وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية .. فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها وللأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته... ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططا وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف بها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا نحسا ولا يكتسبها إلا تعسا" (55)

من بين مكامن الخلل في مسيرة المجتمعات الإسلامية هو الاستبداد والتسلط الذي يمارسه الحكام المسلمون في إدارتهم للشؤون العامة. فالأمة التي ليس لها شأن في توجيه مصيرها ولا كلمة في إدارة منافعها العامة وإن مرد هذه الأمور ترجع للإرادة فرد واحد يوجهها حسب معرفته واجتهاده إن كان حاكما مستنيرا تحدوه رغبة صادقة في خدمة بلاده أو حسب هواه إن كان غرا طائشا، هي أمة لا تثبت على حال ولا تعرف الاستقرار. فهي تتأرجح بين المد والجزر. والحصيلة هي السكون والجمود ثم التقهقر والانحطاط. وإذا كان الشيخ لا يدين حكم الفرد المستبد المستنير مبدئيا ولكن اعتراضه كان على الحاكم المستبد، الطائش والمستهتر قصد هذه الطائفة من الحكام يدعو " أهل الرأي وأصحاب الهمة" من أفراد الأمة إلى التعاون " للاجتثات هذه الشجيرة الخبيثة واستئصال جذورها قبل أن تنثر الرياح بذورها وأجزاؤها السامة القاتلة بين جميع الأمة فتميتها وينقطع الأمل في العلاج" (56) ورغم ما اشتهر عنه أثناء

إقامته في مصر والنصائح التي كان يسديها للخديوي توفيق عندما كان على وفاق معه، بكونه من دعاة الحكم النيابي يكون للشعب فيه رأي وكلمة؛ فإن هذا المبدأ لم تتضح معالمه في تفاصيلها، على مايبدو، في ذهنه أو على الأقل لم يحظ باهتمام خاص من طرفه من خلال العروة الوثقى.

إلى جانب هذا الجهد الفكري والتوجيهي الذي بذله الشيخ لتوضيح الرؤيا وتحسيس المسلمين بأهمية إحياء" الروابط الملية" واستنطاق مسار تاريخهم الطويل لتبيان أسباب الارتقاء والرفعة التي كانت لهم في الماضي وإدراك مكامن الخلل الذي ألم بهم وحولهم من قوة إلى ضعف ومن سؤدد إلى المهانة والذل، فإنه سعى من جهة أخرى و بذل عدة محاولات من أجل وضع اللبنات الأولى للاتحاد إسلامي يجمع في كنفه الدول الإسلامية القائمة آنذاك والتي لا تزال تحتفظ بشيء من سيادتها واستقلالها كخطوة أولى

يبدو أن أول مسعى في هذا الاتجاه يتمثل في المشروع الذي قدمه للسلطان العثماني أثناء إقامته الأولى في الأستانة [57] والذي يقضي بإقامة اتحاد بين أفغانستان قشغو ومقاطعة التركمان الصينية وبلوخستان، إلى جانب المدن الإسلامية الواقعة في المنطقة مثل بخارى. والمطلوب من السلطان العثماني هو الدعم الروحي والمباركة السياسية والأدبية لهذه المبادرة. ويرى الشيخ جمال الدين أن الدعم المادي للمشروع سوف يوفره أغنياء الهنود المسلمون الذين يعتبرهم شديدي التمسك بالإسلام. وأنهم سوف لن يدخروا أي جهد يطلب منهم في سبيل نهضة المسلمين وجمع شتاتهم وتوحيد صفوفهم لمواجهة من يعتدي عليهم. و لم يطلب من السلطان سوى الإذن له بالبدء في العمل من أجل تحقيق هذا الهدف. وأن أول خطوة سيقوم بها هو التوجه إلى الهند لجمع المال

اللازم. ويرى أن الإنجليز سوف لن يعترضوا على نشاطه في الهند ما دام المسعى هو تكوين تجمع بهدف التصدي للتوسيع الروسي في آسيا الوسطى وتهديـــدها للكيانات الإسلامية المتبقية(58).

كان للدولة العثمانية نفس الأنشغال حول ما هو العمل لجمع شـــتات المسلمين وتوحيد صفوفهم لمواجهة المد الأوروبي الزاحـــف علـــى البلـــدان الإسلامية من بينها الممتلكات العثمانية. بدأ هذا الإحساس يتبلور باحتشام في الاستانة خلال عقد الستينيات على عهد الســـلطان عبـــد العزيـــز (1861-1876). برزت ملامح العمل في هذا الاتجاه حول الخيار بين اتجاهين: تجـــاوز المذهبية عن طريق توحيد المسلمين في إطار ميثاق مشترك يجمع بينهم دون تمييز مذهبي أو العمل في اتجاه استعادة الخلافة لمكانتها الروحية والأدبية في نفـــوس جميع المسلمين في أي مكان يتواجدون فيه. ويبدو أن هذا الاتجاه الأخير هـــو الذي تغلب على عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1908)، مع تحجيمه بحيث لا يتجاوز الممتلكات الإقليمية للدولة العثمانية.

لا تتوفر المعلومات عن الأسباب التي أجهضت مشروع جمال الـــدين، حيث بقي حبرا على ورق و لم ير النور مطلقا. وكذلك سيكون مصير مشروعه الثاني الذي يهدف إلى إقامة اتحاد بين الدولة العثمانية إيران وأفغانستان (1885-1886).

على أعمدة جريدة العروة الوثقى وجه الشيخ جمال الدين نداءا حـــارا للعلماء وأصحاب القلم في إيران يحثهم فيه على العمل من أجل إقامـــة اتحـــاد بينهم وبين الأفغانيين. تشجع لتوجيه هذا النداء ما وصله مـــن أصـــداء عـــن استقبال الجريدة في بلاد الفرس بشغف واهتمام كبيرين.حيث قامـــت بعـــض

الجرائد الإيرانية ذات وزن لدى الرأي العام المستنير في البلاد بترجمة مقالات العروة الوثقى إلى اللسان الفارسي ونشرها على أعمدة صحفها. عبر الشيخ في هذا النداء، عن تمنيه بأن يرى القائمين على هذه الصحف بتعزيز" أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة وأذهانهم الصافية وترشده إليه عقولهم العالية. خصوصا فيما يتعلق بالدعوة للوحدة الإسلامية وإحياء الروابط الملية بين المسلمين. لا سيما في الاتفاق بين الإيرانيين والأفغانيين".(59)

يرى جمال الدين أن الشعبين الفارسي والأفغاني هما فرعان لشجرة واحدة. ويعزز وحدة أصلهما اجتماعهما" في الديانة الاسلامية الحقة" ولا يوجد بينهما إلا نوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو إلى شق العصا وتمزيق نسيج الاتحاد. وأن كلا من حاكمي البلدين، عبد الرحمان خان والشاه ناصر الدين، يؤمن بالله وبما جاء به رسوله وأن بما لهما من تجربة ودراية بحقائق الأمور في الشؤون الدولية سيدركان بكل تأكيد منافع هذا الاتحاد. " إن البادئ بالعمل في هذا المقصد الأساسي هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين خصوصا وبين العالم عموما ويجني ثمرته في وقت قريب " اختتم نداءه بتوجيه دعوة حارة إلى صاحبي جريدة " فرهنك " الأصفهانية وجريدة " إطلاع" الطهرانية وإلى كل أصحاب الجرائد الإيرانية، أن يخصصوا لمطلب " الوحدة الإسلامية" مكانا بارزا في صحفهم " وينشروها في بلادهم وبلاد الأفغان باللسان الفارسي للطائفتين. وما هي إلا أيام حتى نرى علائم النجاح إن شاء الله رب العالمين" (60). كما قام الشيخ بإجراء اتصالات في نفس الوقت مع السلطان عبد الحميد عن طريق صديقين قريبين منه يقيمان في الاستانة بهدف جمع هذه الكيانات الإسلامية الثلاثة التي لا تزال قائمة في اتحاد تحت أي شكل

من الأشكال لمواجهة الأخطار التي تهددها جميعا. لم يعارض السلطان عبد الحميد فكرة العمل في هذا الاتجاه بل على العكس؛ لقد اقتنع بوجهة نظر الشيخ جمال الدين بإمكانية توحيد السنة والشيعة إذا أظهر كل منهما حسن النية اتجاه الآخر " لقد قوى هذا الشيخ أعلى في التقارب، فإذا تحققت هذه الأمنية تحقق به إنجاز للإسلام". (61)

من أجل تحقيق هذه الغاية قرر الشيخ جمال الدين التوجه إلى إيران عند نهاية سنة 1885. فإذا كان العلماء والمستنيرون عموما تقبلوا فكرة الاتحاد بحماس وتبناها معظمهم فإن السلطة أبدت تحفظا ونوعا من عدم الارتياح لها. يؤشر إلى ذاك انتظار الشيخ ما يزيد عن نصف سنة قبل أن يتم استقباله من طرف الشاه ناصر الدين ثم رحليه عن إيران في ظروف تشبه الإبعاد ولكن بلين ومراعاة. عكس ما سيحدث له في زيارته الفانية، حيث تم طرده من البلاد وبأية كيفية؟!(62)

إن المحاولة الأخيرة التي قام بها جمال الدين من أجل إقامة لبنة للوحدة الإسلامية يكون مركزها الاستانة، وقعت أثناء إبعاده من إيران واستقراره بلندن. ففي هذه المدينة اتصل به السلطان عبد الحميد بواسطة أحد مقربيه الشيخ أبي الهدى في البداية تم عن طريق السفير العثماني في العاصمة الإنجليزية بغرض زيارة الإستانة لمقابلة السلطان. يبدو أن الشيخ وضع شروطا لهذه الزيارة والتي في مقدمتها التزام السلطان بالعمل من أجل دفع فكرة الاتحاد الاسلامي إلى الأمام فلم يكتف بمجرد وعد بهذا الخصوص وإنما قدم مشروعا مفصلا حول الموضوع الذي حظي بموافقة السلطان. ومهما كانت نوايا هذا الأخير إزاءه والغرض من إلحاحه عليه للقدوم إلى تركيا فإن الشيخ، لم يشك على ما يبدو،

في صدق الوعود و الضمانات التي أعطيت له. وهو ما جعله يقرر التوجه إلى العاصمة العثمانية حيث استقبله السلطان بحفاوة وخصص له إقامة مريحة ومنحه شهرية معتبرة. [63] فترك له في البداية، حرية العمل لتحقيق المشروع المتفق عليه. ففي هذا الإطار برزت فكرة عقد مؤتمر إسلامي عام في الأستانة تدعى إليه شخصيات إسلامية رسمية ومرجعيات دينية في مختلف البلدان الاسلامية. وتم توجيه الدعوات بالفعل لهاته الشخصيات والتي جاءت ردود معظمها بالإيجاب وبحماس واستبشار حتى من العلماء الإيرانيين الذين التحق بعض منهم بالشيخ و بدأوا في إجراء اتصالات مع زملائهم المتواجدين في مختلف المناطق الإيرانية لهذا الغرض. لقد تبين أن الشاه لا يعارض فكرة قيام وحدة إسلامية فقط – والتي يعتبرها مضرة بمكانته "كإمبراطور عظيم" إذا ما تحققت وإنما يعاديها وبشدة. وهو ما يفسر شدة حنقه وحنق حاشيته على الشيخ وعلى أنصاره من الإيرانيين.

لم يتحقق عقد هذا المؤتمر والذي يبدو أن القوى الأجنبية وفي مقدمتها انجليز التي استعملت كل ما لديها من وسائل الضغط للإجهاض هذه المبادرة. لقد نجحت فعلا في تحقيق هذا الهدف. وأكثر من ذاك، فقد تولد عن فشل المشروع بداية القطيعة بين الشيخ و السلطان عبد الحميد. وهي القطيعة التي أدت إلى النهاية المأساوية لحياته، يقوي هذا الاحتمال ذلك الوصف الذي أطلقه على السلطان بكونه جبانا لقد تأكدت هذه الصفة في الموقف الذي اتخذه بالوضوح لطلب الحكومة الإيرانية بتسليمها لثلاث شخصيات إيرانية من كبار مساعدي الشيخ وأشدهم حماسا لفكرة الوحدة الإسلامية – رغم كون

المشروع يخدمه هو نفسه بالدرجة الأولى، بترسيخ مكانته المعنوية كخليفة لجميع المسلمين — والذين تم إعدامهم في إيران[64]

و في آخر رسالة لأحد أصدقائه الإيرانيين عبر الشيخ جمال الدين عن حسرته لفشل مختلف المشروعات التي اقترحها من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية. كما عبر عن الأسف العميق الذي يشعر به بسبب الجهد الضائع الذي بذله والمساعي التي قام بها في اتجاه الحكام من أجل تحقيق هذه الغاية، والتي اعتبرها كمن يحرث في أرض جرداء لا تنبت شيئا. ولو وجه هذا الجهد نحو الجماهير الشعبية لكان أنفع وأفيد " حيث التربة خصبة وكل شيء ينمو ويترعرع فيها" [65] باختفاء الشيخ جمال الدين فقدت الجامعة الإسلامية روحها وقلبها النابض لتتحول إلى مجرد وعاء أجوف أفرغ من محتواه.

هناك إشكال يستوجب التوقف عنده وهو: هل يجوز إدراج حركة الإصلاح الإسلامي التي استمرت بعد وفاة جمال الدين، والتي كما سبقت الإشارة بكون الجامعة الإسلامية هي الوجه السياسي لها؛ واعتبارها استمرارا لهذه الأخيرة. وهو التوجه الذي سارت عليه معظم الكتابات التي تناولت هذا الموضوع. أم يجب الفرز بين المسألتين واعتبارهما متميزتين ولكنهما متكاملتان؟ ونميل إلى اعتماد هذه النظرة الأخيرة لاعتبارات منهجية التي تستوجب الفصل بين الموضوعات المختلفة وبناء وقائعها كل على حدة. ومن هذا المنطلق يتبين أن الجامعة الإسلامية بعد وفاة الشيخ جمال الدين لم تعد تلك الحركة التي تهدف إلى إحياء " الرابطة الملية" لدى جميع المسلمين، في أي مكان يتواجدون. وترسيخ هذا الإحياء بإقامة نظام إسلامي متكاتف تشد أجزاؤه بعضها البعض

وإنما تحولت إلى شعار اختلط بمسألة الخلافة واندمجت فيها. وهو يعني تقليص دائرتها وانحصارها في المذاهب السنية واستبعاد المذاهب الإسلامية الأخرى.

فهذا المحتوى الأخير هو الذي سارت عليه الجامعة الإسلامية على عهد السلطان عبد الحميد الثاني. لقد بذل هذا الأخير كل ما في وسعه لاسترجاع المكانة الروحية والأدبية لمنصب الخلافة بدءا بحياته الخاصة التي تميزت بالبساطة والتقشف والزهد ونبذ مظاهر العظمة والأبهة كما بذل جهدا للاستيفاء الشروط الشرعية لمكانتة كخليفة للمسلمين عن طريق النفقة في الدين والتعمق في العلوم الإسلامية. كما أحاط نفسه بالفقهاء والعلماء من الأقطار الإسلامية، وخاصة العربية منها، وقربهم إليه وأغدق عليهم العطايا والامتيازات. إلى جانب قيامه بتأسيس المدارس والمعاهد الدينية لتخريج الوعاظ وإرسالهم إلى الأقطار الإسلامية البعيدة لتلقين سكانها المبادئ الأساسية للدين الإسلامي، وتوعيتهم وتحسيسهم بأهمية التضامن بين المسلمين، والتبشير بالإسلام لدى غير المسلمين. وكان ينفق بسخاء على مختلف المرافق الدينية والتعليمية الأصلية وعلى الصحف والمجلات التي تهتم بالدعوة لفكرة الجامعة الإسلامية .

كما أولى عناية خاصة الاستمالة العنصر العربي وفتح له المجال ليأخذ مكانه في مختلف مؤسسات الدولة وعلى جميع المستويات. فقام بتجنيد شباب من العرب فألف منهم فرقة ألحقها بحرسه الخاص. ولكي يسقط ورقة ضغط بين أيدي الإنجليز والتي كانت تلوح بها في كل مناسبة تخدمها، فقد أغرى شريف مكة حسين بن علي مغدقا عليه العطايا وكل وسائل الترغيب للإقامة في عاصمة الخلافة والاستقرار بها (1893) حتى أنه كان يتقول في عهده: أنه إذا

كان الباب العالي والوزارات بقيت بين أيدي الأتراك، فإن القصر أصبح كله في يد العرب[66]

يبدو أن النهاية المأساوية للشيخ جمال الدين قد أثرت تأثيرا عميقا وبشكل سلبي في نفوس تلامذته وأتباعه حيث لم يتصدى أي أحد منهم للأخذ المشعل والسير به في الاتجاه الذي سار عليه الشيخ. فالشيخ محمد عبده حرم على نفسه السياسة بعد عودته من منفاه إلى بلده وحدد لنفسه مجالا للعمل اعتبره أولى بالعناية من غيره. وهو المجال التربوي والتثقيفي على أسس إسلامية خالصة تهيء الناشئة للتطور والرقي والتفاعل إيجابيا مع متطلبات الحداثة والتمدن في إطار المنظور الإسلامي المتفتح. وآخرون سايروا حركة الجامعة الإسلامية بمنظورها الحميدي الذي اختلط واندمج فيما يعرف بـ " الرابطة العثمانية" مثل الحزب الوطني في مصر وزعيمه مصطفى كامل. وصنف آخر من تلامذة الشيخ انصب جهدهم على العمل الوطني التحريري مستندا على مرجعية عربية إسلامية في مواجهة الاستعمار وتيار التغريب والتفرنج. غير أن كلا من هذه الاتجاهات الثلاثة تلتقي في طرح سؤال محوري واحد وهو لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون فالردود الكثيرة التي حاولت الإجابة عنه خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر تندرج في صميم موضوع حركة الإصلاح الإسلامي. وكعينة من هذه الإجابات نلخص ما كتبه عبد الله نديم [67] حول الموضوع في مقال تحت عنوان " سبب تقدم الغرب وتأخر الشرقيين" [68]

بدأ الكاتب برد ودحض مختلف الأسباب التي يسوقها جمهور الكتاب الأوروبيين حول انحطاط المسلمين وتخلفهم. ثم قام بإجراء مقارنة بين أسباب

تقدم أوروبا وانعدام توفرها لدى المسلمين والتي حصرها في أربعة أسباب رئيسية وستة ثانوية.

فالأسباب الرئيسية تتمثل في قيام الدولة المركزية القوية في أوروبا وفرض لغة المنتصر على الشعوب المهزومة. وهو ما لم يحدث عند المسلمين فهم لم يقوموا بهذا العمل الجمعي والقهري بل تركوا لكل شعب ولكل أمة لغتها ومعتقداتها وتقاليدها وهو ما أدى إلى ظهور ما يعرف في التاريخ الإسلامي بالشعوبية وما نجم عنه من التمرد على السلطة المركزية الذي نجم عنه مع مرور الزمن الضعف وانحطاط الكل. فالأوروبيون مارسوا احتكار السلطة وحصرها بين أيدي الشعب المنتصر وهو ما لم يفعله المسلمون. كما أن الدولة في أوروبا تفرض على رعاياها معتقدا وديانة واحدة وهي ديانة الشعب المنتصر وقيام الدول الأوروبية من جهة أخرى بالتخفيف من صراعاتها وانقساماتها والعمل على إقامة تعاون فيما بينها بدل الإنغراس في صراعات لا أول لها ولا آخر.

أما الأسباب الثانوية فيرى أن الدول الأوروبية فتحت أمام رعايها بابا واسعا لحرية الفكر ووفرت الوسائل لنشرها على نطاق واسع بين الناس وهو ما أفضى إلى التقدم والرقي في كل المجالات عكس الحكام المسلمين الذين صدوا الأبواب أمام كل فكر حر. كما أن الدول الأوروبية تقوم بتشجيع المبادرات الهادفة والمبدعة وتوفر لها مختلف التسهيلات والمحفزات عكس الحكام المسلمين الذين لا يكرمون سوى المداحين والمتزلفين. كما قامت الدولة في أوروبا بتشجيع كل أشكال تجميع رأس المال لاستثماره في بناء المصانع وتنمية التجارة وترفيه الزراعة وكل النشاطات الاقتصادية المفيدة للمجموعة الوطنية. كما أنها أوجدت سلم قيمي معنوي لمجازاة أصحاب الكفاءات والمبدعين في جميع

النشاطات المفيدة للمجتمع. وهو ما ليس متوفرا في البلدان الإسلامية، بل وأكثر من هذا فالشرقيون يحتفرون كل من أراد أن يجدد ويخترع شيئا غير مألوف ليتحول عندهم إلى موضوع للاستهزاء والتندر في نفس الوقت الذي يتلهفون على كل ما هو أوروبي.

أدركت الدولة في أوروبا مخاطر آفة الجهل الذي سيقود الأمة لا محالة إلى الضعف والتخلف فأولت مسألة التعليم ونشره على نطاق واسع بين السكان الأهمية التي يستحقها عكس حكام الشرق الذين يرون في المتعلم عدوا محتملا ولذاك تركوا شعوبهم تتخبط في ظلمات الجهل.. كما أدرك الأوروبيون مخاطر الاستبداد وحكم الفرد مهما أوتي من الحكمة وسداد الرأي فقاموا بإنشاء مجالس تشريعية وتنفيذية ووفروا مناخا لحرية النقد والبناء ووضعوا ألية لمنع احتكار السلطة وضمان تداولها إلى جانب تأسيس هيئات وجمعيات ثقافية، صناعية، زراعية، خيرية أي في كل مجالات النشاط الإنساني. أما الشرقيون فإنهم يجهلون كل هذه الأشياء. فهم لا يجتمعون إلا لكي " يتنازعوا ويتخاصموا ويشتم بعضهم البعض، فهذه هي الأسباب التي جعلت أوروبا تتقدم وغيابها هو الذي تسبب في انحطاط المسلمين وتخلفهم.

في هذا إطار المسعى الهادف إلى الإجابة عن السؤال الإشكالي المحوري حول أسباب تأخر المسلمين، عالج الشيخ عبد الرحمان الكواكبي (1848-1902) [69] بعمق وإسهاب، فعلى ضوء التصور التخيلي الذي وضعه لمؤتمر المنعقد في مكة المكرمة خلال المنتصف الثاني من شهر ذي القعدة 1316 هـ [70] (نهاية شهر مارس 1898) والذي شارك فيه نخبة من العلماء المستنيرين ينتمون إلى مختلف الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب [71].

فحصيلة أعمال هذا الاجتماع الذي يمكن وصفه بمشروع من أجل إقامة جامعة إسلامية هضوية غير سياسية بـــ " جمعية أم القرى" (72) تصـــور الكـــواكبي جدول أعمال الاجتماع حول موضوع الانحطاط الذي يسميه بالفتور والذي تفرع منه عشرة مسائل لتشخيص الداء ومسبباته. والتي منها التناحر المـــذهبي وانتشار البدع ومظاهر الشرك المختلفة التي التصـــلقت بالعقيـــدة الإســـلامية ووجوب التخلص منها والعودة إلى العقيدة الخالصة التي تمر فـــوق المـــذاهب وتطرحها جانب والتي يسميها ب " الإسلامية" ليصل إلى الخلاصة التالية:

" يستفاد من مذكرات جمعيتنا المباركة أن هذا الفتور المبحوث فيه، ناشئ عن مجموع أسباب كثيرة مشتركة فيه، لا عن سبب واحد أو أسباب قليلة يمكـــن مقاومتها بسهولة، وهذه الأسباب منها أصول ومنها قروع ومنها فروع لهـــا حكم بالأصول وكلها ترجع إلى ثلاثة أنواع، وهي أسباب دينيـــة وأســـباب سياسية وأسباب أخلاقية" (73)

عدد من الأسباب الدينية 32 سببا منها أسباب " أصولية" أي بنيويـــة وأسباب فرعية، فمن الأسباب الأصولية تأثير عقيدة الجبر على أفكار الأمـــة، تأثير فتن الجدل في العقائد، تشدد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافا للســـلف، إدخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات من أهل الكتاب وخرافاتهم وبدع مضرة، واعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين، ومن الأسباب الفرعيـــة: تشوش أفكار الأمة بكثرة تخالف (الآراء في فروع أحكـــام الـــدين إدخـــال المدلسين والمقابرية (المكلفين بصيانة المقابر) على العامة كثيرا مـــن الأوهـــام، تطرق الشرك الصريح أو الخفي على عقائد العامة، والتعصب المـــذهبي ولآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف (74)

كما عدد في الأسباب السياسية ستة عشر سببا منها ستة " أصولية" وعشرة أسباب فرعية. من الأسباب الأصولية السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤولية، حرما العلماء العاملين وطلاب العلم من الرزق والتكريم، قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء. من الأسباب الفرعية: حرمان الأمة من حرية القول والعمل وفقدانها الأمن والأمل، فقدان العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمة، حماقات.أكثر الأمراء وتمسكهم بالسياسات الخرقاء وإصرار أكثر الأمراء على الاستبداد عنادا واستكبارا.

أما الأسباب الأخلاقية فقد حصرها الكواكبي في سبعة عشر سببا منها تسعة " أصولية" وثمانية فرعية، من الأسباب الأصولية: " الاستغراق في الجهل والارتياح له، انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية، فقدان القوة الاشتراكية (العمومية) بسبب التهاون في الزكاة، معاداة العلوم العالية ارتياحا للجهالة والسفالة والتباعد عن المكاشفات والمفاوضات في الشؤون العامة، ومن الأسباب الفرعية: الإخلاد إلى الخمول والكسل ترويحا للنفس، فساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد، ترك الأعمال بسبب ضعف الآمال، غلبة التخلق بالتملق تزلفا وصغارا وتفضيل الارتزاق بالجندية والخدم الأميرية على الصنائع[75]

إن الجهد الذي بذله الشيخ عبد الرحمان الكواكبي في إنجاز هذا العمل الهام ذي الأهداف النبيلة لا يبدو كونه مجرد قصة تخيلها كما وصفه البعض، ولكنه مشروع أرضية لعمل نهضوي يشمل كل الأنظار العالم الإسلامي. فبعد الرحلات والتنقلات بين مختلف الأقطار الإسلامية المشرقية، كان ينوي القيام برحلة مماثلة إلى أقطار المغرب العربي للتعرف على أحوالها عن كثب، واستكمال الصورة عن الأوضاع السائدة في العالم الإسلامي مشرقه ومغربه

للبدء في إنجاز ما خطه قلمه وجاءت به قريحته. لكن الأجل عاجله قبل أن يحقق أمنيته.

الهوامش:

1- هناك حاجة إلى تاريخ للوقائع الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية يغطي عموم الأقطار الإسلامية، والذي بواسطته يمكن استخلاص المبادئ التي وجهت حركة المجتمعات الاسلامية وأنتجت نمطا اقتصاديا واجتماعيا مغايرا للأنماط الاقتصادية والاجتماعية، التي عاشتها المجتمعات الغربية ويجيب عن هذا السؤال الملح: لماذا لم تنتج المعاملات التجارية في الأقطار الإسلامية وفيما بينها نمطا اقتصاديا مرتكزا على رأس المال كما حدث في الغرب؟

2- لأخذ فكرة عامة عن الوهابية راجع: أحمد أمين، "زعماء الإصلاح في العصر الحديث، البيروت د.ت ص ص 10-25 وكذلك أنور الجندي. "تراجم أعلام المعاصرين في العالم الاسلامي". القاهرة 1970 ص ص 393-400

3- مقدمة كتاب" ايقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن" الجزائر 1914

4- A. G.V.H. 229 مذكرة ليون روش حول " سيدي محمد بن علي السنوسي"

5- للمزيد من الاطلاع حول السنوسية راجع: تعليق الأمير شكيب أرسلان في لوثروب ستودارد حاضر العالم الاسلامي م المجلد الأول الجزء، 1 ط 4 بيروت 1973 ص 140 وما بعدها.

6- خير الدين التونسي: أقوام المسالك في معرفة أحوال الممالك" تحقيق المنصف الشنوفي نشر مشترك جزائري تونسي 1986. المدخل.

7- خير الدين التونسي ق.م ص 91

8- ن. م. ص 93

9- عن أحمد أمين ف.م.ص 106

10- Pakdman Homa, Djamel-Al Dine Assad Abadi dit Al Afghani, Paris, 1989, p.49

11- Ibid p. 49

12- أحمد أمين، ت.م.ص 62

13- مبلغ يعادل مائتين وخمسين فرنكا فرنسيا بسعر الصرف في ذلك الوقت

14- نظم شعب المحفل حسب الوزارات فهناك " شعبة للحقانية وأخرى للمالية وثالثة للأشغال ورابعة للجهادية. وهكذا فلكل وزارة أو مصلحة شعبة مقابلة لها تدرس شؤونها وتعرف ما يقع فيها من تجاوزات وما يستوجب القيام به من إصلاحيات. فكل شعبة تتصل بالوزارة التي تعنيها لتبلغيها رغباتها وملاحظاتها" في أسلوب حازم صريح. فكان لذلك هزة في الأندية والمجتمعات" أحمد أمين ت.م.ص 74

15- عن أحمد أمين ،. / . ص73

16- Pakdaman.H ن.م ص ص 63-64

17- Pakdaman ن.م الملحق الوثائقي ص 329

18- المرجع السابق. الملحق الوثائقي ص ص 340- 342

19- يبدو أنه هو صاحب الرسائل غير الموقعة التي تنشرها جريدة Paris في أعدادها الصادرة في 4-5-12 ديسمبر 1884 تحت عنوان " دسائس الشرقيين"

20- عدد 30 مارس 1883

21- للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع. أنظر أحمد أمين ن.م ص ص 86-93

22- عدد 18 ماي 1883

23- PAkdaman ن. م ص 82

24- العروة الوثقى. نشر دار الكتاب العربي. بيروت لبنان.د.ت ص ص 47-48

25- العروة الوثقى، ص 95 وما بعدها

26- وهو ما يعادل 125 فرنكا فرنسيا أي ضعف المرتب الشهري لموظف متوسط في مصر

27- Pakdaman H ن. م ص ص 100-101

28- أحمد أمين ن.م

29- Pakdaman H ن. م ص 103

30- حول الزيارتين اللتين قام بهما الشيخ محمد عبده لتونس أنـــظر:

Chenoufi, Les Deux séjours De Md Abdou en Tunisie, in Cahier de la Tunisie, année 1968, pp 57-83

31- جاء في بعض الروايات أن الشيخ محمد عبده قام بزيارة الجزائر خلال هذه السنة (1885) وهي على ما يبدو مجرد إشاعة لم يؤكدها أي مصدر محلي أو رسمي

32- بنيت الأحداث التالية أن هذه الرغبة كانت مجرد نزوة بفعل ما شاهده في معرض باريس الدولي

33- Pakdaman H ن. م ص 143

34- ن. م ص 156

35-Pakdaman H الملحق الوثائقي ص ص 329-330

36- Pakdaman H ن. م ص ص 168-169

37- Pakdaman H الملحق الوثائق ص 330

38- مما يعاب على عمل السيدة بكدمان (Pakdaman) رغم الجهد المعتبر الذي بذلته في التوثيق أنهـــا قد حاولت تأكيد الأصل الفارسي للشيخ بالقوة. مستعملة الوثائق حتى تلك التي مصدرها أعـــداء جمـــال

الدين بدون نقد وتدقيق في محتواها، كما حاولت التشكيك في عقيدته الإسلامية وفي دعوته لقيام تضامن إسلامي فاعل لمواجهة المد الاستعماري الزاحف على الأقطار الإسلامية، دون أن تدرك أن مسيرة الرجل تخللتها فرص كثيرة للتنعم بالحياة في راحة ورفاه لكنه اختار الطريق الشاق طريق التضحية والمعاناة من أجل القضايا التي يؤمن بها، فلو كانت الكاتبة باحثة متجردة وبدون فكرة مسبقة عن الرجل لكانت نهاينه كافية لأن تجعلها تدرك خطأ استنتاجاتها.

39- Pakdaman H ن. م الملحق الوثائقي ص ص 326-327

40- ن.م الملحق الوثائقي، رسالة سفير إيران في الإستانة إلى الوزير الأول الإيراني 8 فبراير 1896 ص 331

41- للمزيد من التفاصيل حول مساعي السفير الإيراني في الأستانة أنظر الملحق الوثائقي في ن . م ص ص 331-338

42 – دهاش الصادق، "ظهور وتطور فكرة الجامعة الإسلامية من الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى الثلث الأول من القرن العشرين". رسالة ماجستير مخطوطة، مكتبة جامعة الجزائر.

43- العروة الوثقى ص 46

44- العروة الوثقى ص 51

45- ن.م.ص 52

46- ن.م.ص 107

47- ن.م ص109

48-العروة الوثقى ص 113

49- العروة الوثقى، مقال تحت عنوان الوحدة والسيادة أو الوفاق والغلبة، ص 114

-50

51- نفسه مقال تحت عنوان، انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك ص 91

52- العروة الوثقى، مقال تحت عنوان الأمل وطلب المجد، ص 126 وبعدها

53- العروة الوثقى، مقال تحت عنوان، ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها، ص 55 وما بعدها

54- العروة الوثقى، ص59 وبعدها

55- العروة الوثقى ص 61

56- العروة الوثقى، مقال تحت عنوان الأمة وسلطة والحاكم المستبد، ص 46 وما بعدها

57- عثر على هذا المشروع على ما يبدو بين أوراق الشيخ على إثر إبعاده من مصر (1879) وحجز مقتنياته من طرف السلطات المصرية والذي تسربت نسخة منه للسلطات الإنجليزية

58- راجع بحذر ما ورد حول هذا المشروع في Pakdaman H ن. م ص ص 50-55

59- العروة الوثقى. مقال تحت عنوان دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان " ص 147 وما بعدها

60- ن. مص 151

61- السلطان عبد الحميد الثاني، "مذكراتي السياسية 1891-1908" ط5 بيروت 1986 ص

62- حول هاتين الزيارتين أنظر أعلاه

63- قدرها 57 جنيها عثمانيا وهو ما يعادل حوالي ألف وثلاثمائة فرنك فرنسي بسعر الصرف في ذلك الوقت

64- هذه الشخصيات الثلاث هم: الشيخ أحمد الروحي والسيدان ميرزا آغا خان الكرماني وميرزا حسن خان

65-Pakdaman H ن. م الملحق الوثائقي ص ص 326-327

66- جورج انطونيوس" يقظة العرب." ترجمة.د ناصر الدين الأسد وإحسان عباس بيروت ط2، 1966، ص 137 وما بعدها

67- عبد الله نديم (1845-1896) من تلامذة الشيخ جمال الدين لازمة أثناء إقامته في مصر ثم التحق به في الأستانة التي توفي بها بضعة أشهر قبل وفاة الشيخ للمزيد من التفاصيل حول حياته ومعاناته راجع أحمد أمين ن. مص 3.202 -248

68- Revue Orient 4 eme Trim,.1960 p p 99-114

69- أنظر ترجمة الكواكبي في : أحمد أمين ،. م ص 249 وما بعدها

70- السيد الفراتي (عبد الرحمان الكواكبي) " أم القرى القاهرة 1931

71- يلاحظ غياب تمثيل الجزائر في هذا المؤتمر وهو مؤشر يدفع إلى طرح هذا السؤال هل نجحت فرنسا في سياستها المشرقية إلى درجة أنها تمكنت من محو وجود الجزائر وكفاحها المستبسل من أجل الحفاظ على شخصيتها العربية الإسلامية في ذاكرة هذا الجيل من المثقفين المشارقة؟

72- تنص " القضية" أي المادة 14 من القانون الأساسي لمشروع الجمعية على مايلي" الجمعية لا تتدخل في الشؤون السياسية مطلقا فيما عدا إرشادات وأخطارا بمسائل أصول التعليم وتعميمه " أم القرى" ص 174

73- السيد الفراتي ن. م ص 137

74- ن. م ص ص 138-139

75- ن. م. ص 141

الأمير عبد القادر الجزائري رمز المقاومة الجزائرية

د. سامية أبوعمران

جامعة الجزائر

بعد احتلال الجزائر في جويلية 1830 استسلم الداي حسين للفرنسيين و لجأ إلى المشرق. فعمت الفوضى في البلاد و كثر الشقاق و أدى ذلك إلى اعتزال كل زعيم بناحيته[1]. فساء الوضع في البلاد إلى درجة أنه اجتمع الأشراف و العلماء و الأعيان بغرب الجزائر و اختاروا عبد القادر [2] بن محي الدين أميرا لمقاومة الاحتلال[3]. فتم ذلك في 27 نوفمبر 1837 على أساس أن يقود الأمير المقاومة الشعبية ضد العدو. فصرح: " *قبلت بيعتهم و طاعتهم كما أني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه مؤملا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين و رفع النزاع و الخصام من بينهم و منع الأعمال المنافية للشريعة و حماية البلاد من العدو* " [4]. فلم يرض بتسميته سلطانا و اكتفى باسم الأمير.

ونتساءل عما كانت خبرة الأمير في الحرب و هو ابن طريقة صوفية لم تؤهله مبدئيا لقيادة الحرب؟ قد أشار هو بالذات إلى ذلك حين بويع أميرا وشرح أنه تكون في أسرة مسلمة على أساس أن يقوم بالتدريس و الأعمال الصالحة و مساعدة الفقراء و المساكين، و لم يفكر أنه سيكون في يوم من الأيام قائد ثورة مسلحة إلا أن ظروف البلاد فرضت عليه هذه المهمة الصعبة فتقبلها و قام بواجب الوطن و الدين[5] . فصار الأمير فعلا رائد الجهاد و قد ساعدته على أداء مهمته شخصيته البارزة النادرة و ذلك في تحمل المخاطرة بنفسه في ميدان الحرب إلى درجة أنه نال إعجاب مواطنيه و أبرز الشخصيات الأجنبية[6] التي اعترفت بمناقبه العسكرية و السياسية بما فيهم خصومه حيث قال المارشال سولت : "*هو أعظم شخصية في زمانه مع نابليون*" . أما بيجو فاعترف بفضله بعد محاربته مدة ست سنوات(1841-1847)أنه "*رجل عبقري*"[7].

فكان قادر على قيادة الشعب وقام على جمعه تحت لوائه و توصل إلى توحيد صفوف القبائل، فوضع أسس الوحدة التي تتجاوز النظام القبلي و العصبية الضيقة[8]. و كان عليه أن يقاوم على جبهتين، من ناحية لتوعية شيوخ القبائل و من ناحية أخرى للقضاء على بعض الخصوم الذين تحالفوا مع العدو و لهذا الغرض تنقل بنفسه لإقناع المترددين و تحريضهم على المشاركة في الجهاد.إنه كما عبر أحد معاصريه: "*خاض غمار القتال ضدا لعدو من جهة و بعث الحماس و الثقة في القبائل لنشر روح المقاومة في جميع أنحاء البلاد*"[9]...

و سنقسم هذه المقاومة إلى ثلاثة أصناف هي: المقاومة السياسية و المقاومة المسلحة والمقاومة الثقافية.

1- المقاومة السياسية

شرع الأمير بعد مبايعته في تنظيم الدولة و تطبيق نظام مدني أقرب إلى نظام الدولة الحديثة في القرن 19 مع أن الجزائر كانت تعيش في النظام القبلي. فاتخذ مدينة "معسكر" عاصمة له و أسس حكومة مركزية و شكل المجلس الشورى الأميري المكون من 11 عضوا من العلماء الأجلاء و الأعيان[10]. و كان يستشير بطريقة منتظمة هذا المجلس و يتداول معه المسائل الكبرى التي يرى من واجبه أن يأخذ برأيهم فيها، ثم قسم البلاد إلى ثماني مقاطعات و وضع على رأس كل واحدة منها خليفة و تحت أمرهه دوائر يقود كل واحدة منها" *آغا* " . ومن أشهر خلفائه بوحميدي في غرب البلاد و *مصطفى بن تهامي* في وسطهاو *ابن علال* في مليانة و *البركاني* في المدية و *بن سالم* في منطقة الجرجرة و *بن عزوز* في منطقة بسكرة... و قام هؤلاء الخلفاء بالإدارة والعمليات الحربية في نفس الوقت. و أبعد الأمير الكثير من الذين شاركوا في

النظام السابق (العهد العثماني) و اختار القادة على أساس الخبرة و الكفاءة[11]. و زوّد كل خليفة من خلفائه بعدد من الجنود النظاميين ليتمكنوا من فرض سلطة الدولة في مختلف مقاطعاتهم و محاربة العدو فيها. واشتهر هؤلاء القادة بالبسالة و الخطة المحكمة و الأخلاق الحميدة فنالوا تأييد الشعب تأييدا كاملا ما عدى بعض الخصوم و عددهم قليل الذين التحقوا بالعدوّ فحاربهم بصرامة و تم القضاء عليهم في أكثر من مناسبة.

و إلى جانب الخلفاء كان للأمير قضاة مسؤولون على توفير العدل للأشخاص وقد دفع لهم رواتب من الخزينة التي كانت تموّلها الضرائب المحلية حسب ما تأمر به الشريعة[12].

أما الحكومة فتكوّنت من الوزارات الأساسية منها الداخلية و الخارجية و العدل. و اتصفت بتطبيق المبادئ الإسلامية في المساواة و العدل إلى أن ساد الأمن في البلاد. وعمّ الشعور بالمصلحة الوطنية بدلا من الشعور بمصلحة القبيلة [13]. فحرص الأمير شخصيا على أن يحكم المسؤولون بالحق و أن يعملوا بإخلاص و طلب من عامة الناس على حد تعبيره أنه إذا: *" كان لأحد قضية فليرفعها إلى الديوان الأميري من دون وساطة و إن ظلم أحد و لم يتقدم بشكواه فلا يلومن إلاّ نفسه"*[14] .فبفضل المراقبة الشخصية التي لا تمهل أحدا استطاع الأمير أن يواصل مهمته و يحقق مخططاته الطموحة في مجال الإصلاح و التقدم. وهكذا تمكن من تجسيد مبدأ التقدم و الإصلاح بفضل مهارته في البلاد و نشر التعليم و التكوين و الأمن و الاستقرار[15]

اتخذ الأمير عاصمته في أول الأمر بمدينة "معسكر" كما أسلفنا ثم نقلها إلى مدينة "تاقدمت" بعدما قام العدو بتدمير المدن الشمالية ثم كوّن مدينة "متنقلة" هـــي "الزمالة"[16].

2- المقاومة المسلحة

أعدّ الأمير جيشا نظاميا سماه *"الجيش المحمدي"*، وهو جيش حـــديث فرتّب الصفوف فيه[17] و اختار رؤساء الجند من ذوي الشجاعة و الإيمـــان و هم من زعماء القبائل. و وضع له قوانين في كتاب *"وشّـــاح الكتائـــب"*[18]. وصنف الدرجات بين ضباط صغار و ضباط كبار و حدّد لكل درجة الراتب الذي يناسبها كما جعل في الجيش روح القتال و النصر أو الشهادة. و أضاف إلى الجنود النظاميين عددا من المتطوعين من مختلف السكان استعان بهم في وقت القتال و أطلق سراحهم في وقت الهدنة ليقوموا بنشاطهم الزراعي و هو مصدر عيشهم.الأمر الذي ساعده على ذلك قبل كل شيء هو القدوة الحسنة التي كان يمثلها حيث اختلط بالجنود و شجعهم لرفع معنويـــاتهم و قـــال في إحـــدى قصائده:

" يا رب البرايا زدهم صبرا و نصرا دائما يتكمل".

و أبدى مهارته في الفروسية و القتال كما وصفه معاصروه: "*" لم يكن عبـــد القادر فارسا مهيبا فحسب، بل إن تفوقه المدهش في كل متطلبات الفروســـية يدفع الفرس إلى أكبر سرعة ممكنة و يطلق النار على هدفه بدقة عجيبة"* [19].

فكان عدد الجنود يتراوح بين 8000 و 15000 مقاتل[20] و ذلك في مقابـــل الجيش الفرنسي الذي كان عدده يتراوح ما بين 60 ألف و 100 ألف جندي. فكيف استطاع الأمير أن يحقق انتصارات متتالية على الفرنسيين رغم تفوقهم في

العدد و العتاد؟ و لكنه لم يستطع مجابهة العدو نظرا لتفوقه فاستعمل حرب العصابات و المناوشات و وضع الكمائن و الهجوم السريع و المفاجئ و التنقل الدائم لتضليل العدو و التحايل عليه و استنزافه و لا ننسى مزايا الجغرافيا الطبيعية التي تتميز بها البلاد زيادة على قدرة الأمير على الإبداع كما تتغيراستراتيجية العدو[21]. و أما السلاح فاشتراه الأمير من الدول المجاورة ثم قام بصنعه في مدن محصنة مثل "المدية"و "مليانة" و"معسكر"... و كان غرضه من تحصين المدن و بناء القلع الدفاع عن حياة المدنيين و عايش الضباط مع جنودهم فيها و تنقل الأمير بينها بسرعة عجيبة[22] فارتبكت خطة العدو الذي لم يتمكن من اعتقاله طيلة سبعة عشر عاما رغم ما بذله من مجهود في هذا الغرض. كتب القائد العسكري "بيجو" : *"ينبغي للمرء أن يكون ساحرا لكي يتنبأ بحركاته و أن تكون لجنودنا أجنحة للّحاق به، فهو يتنقل إلى حيث لا نكون موجودين أو إلى حيث لم نعد فيه موجودين، هل تعرفون أين تكمن قوته؟ إنها في عدم إمكان العثور عليه، إنها في مساحة الأرض، في حرارة شمس إفريقيا، في انعدام الماء، في حياة الترحال بين العرب، هنا تكمن قوته و لا بد لنا من إخضاعه،و يجب القضاء عليه"*[23].وبفضل خطة الأمير هذه و بسالة جنوده انتصر الأمير في أكثر من معركة، نشير هنا فقط إلى معركتين شهيرتين، المعركة الأولى هي "المقطع" الواقعة بين مدينة "أرزيو" و مدينة مستغانم في 28 جوان 1835 حيث انهزم الجيش الفرنسي و خسر فيها مئات القتلى، واهتز الرأي العام الفرنسي بعد هذه الهزيمة و عزل القائد "تريزل"(Trezel) الذي كان أساء التصرف، و إثر ذلك قال رئيس الحكومة الفرنسية :*"إن غزونا للجزائر عملية خاسرة إلى الآن لم*

تنجح"[24]. و انتقاما لهذه الهزيمة قرر القائد العام الفرنسي حملة على عاصمة الأمير "معسكر"[25].

أما المعركة الثانية فهي معركة سيدي إبراهيم في سبتمبر 1845والتي كان موقعها قريبا من مدينة "الغزوات"، انتصر فيها الأمير على العدو انتصارا كليّا. فتكبّد القائد "مونتانياك" (Montagnac) خسائر كبيرة و قتل فيها، واعتقل الأمير العديد من الأسرى... و كان لهذا الانتصار العظيم صدى كبيرا داخل القطر و خارجه[26]. فقويت معنويات الجيش المحمدي و واصل الأمير القتال ضد العدوّ رغم الفارق الكبير بين الجيشين في العدد و العتاد كما أسلفنا.

وبالإضافة إلى هذه المعارك لم يهمل الأمير الجانب الدبلوماسي بل حصل بعد مفاوضات صعبة على معاهدتين بارزتين، الأولى هي معاهدة "دي ميشال" (Desmichels) التي أبرمت في 26 فبراير 1834 ، و كان القائد الفرنسي هو الذي طلبها لأسباب نذكر أهمها: كان القائد الفرنسي قد عانى من صعوبة التموين لجيشه إذ حاصره الأمير و منع على مواطنيه التعامل التجاري مع هذا العدو. فاعتقد هذا القائد أن الصلح مع زعيم يتمتع بنفوذ سياسي كبير يمكن أن يتفق معه و إن كان ذلك مؤقتا. أما الأمير فكان في حاجة إلى هدنة ليواصل بناء دولته و تنظيم جيشه فطوع بعض المعارضين الذين تمردوا على سلطته(مصطفى بن اسماعيل في تلمسان، الغمري في أقصى الغرب) [27] و إدارته و كان الأمير يعلم علم اليقين أن هذه الهدنة لن تعّمر طويلا و لكنه استفاد منها حيث اعترفت به الحكومة الفرنسية في مقابل بقائها على بعض المدن الساحلية مثل الجزائر، وهران، مستغانم، أرزيو[28]. فتعيّن ممثل للإدارة الفرنسية في عاصمة الأمير و ممثل للأمير لدى الحاكم الفرنسي بمدينة الجزائر. و

كان الأمير على يقين أن هذا الصلح مع العدو ما هو إلا مجرد هدنة إذ كانت للعدوّ خطة بعيدة المدى في احتلال القطر كله و السيطرة عليه و شرعت الإدارة الفرنسية في تأويل[29] المعاهدة لفائدتها فاستعملت المراوغات في تنفيذها و حاولت التقليص من تطبيقها [30]. و زعمت مثلا أن المعاهدة فيها جانب سري لم تطلع عليه و شككت في صلاحية الهدنة[31].

أما المعاهدة الثانية فتمّت في 30 ماي 1837على ضفاف نهر "التافنة" القريب من مدينة تلمسان. قد وافقت عليها الحكومة الفرنسية (الملك لويس فيليب) مما عزز من جديد دولة الأمير. و لكن الإدارة خالفت بندا من بنودها و اقتحمت منطقة في شرق البلاد كانت تابعة للأمير [32] وقبل هذه الفترة استفاد الأمير من الهدنة حيث انتقل إلى"عين ماضي" قريبا من مدينة "الأغواط" مقر زاوية الطريقة التجانية في18 جوان 1838 و قضى على تمرد رئيسها بعد ما حاصره في قلعته ثم نفاه إلى المغرب[33].

و الجدير بالذكر أن الأمير كان وفيا لتطبيق المعاهدتين في حين أن الدولة الفرنسية لجأت إلى التلاعب قصد السيطرة على بعض المدن و المقاطعات... و استمرت في مناوراتها إلى أن اندلعت الحرب من جديد سنة 1839. أخذت المعارك تشتد و تكبّد العدوّ خسائرمعتبرة إلا أن الحكومة الفرنسية زودت جيشها بقوات جديدة بقيادة "بيجو(Bugeaud) الذي انتهج سياسة "الأرض المحروقة"، فقضى على الأخضر و اليابس و دمر المدن و أباد السكان العزل. وارتكب جريمة نكراء باختناق عدد من السكان الأبرياء في مغارة[34] و أحدثت هذه الجريمة ضجة كبيرة في الرأى العام الفرنسي.

و ظل الأمير يجاهد و يقاوم في كل الجهات و خاصة في عمق البلاد و لكن العدو ضاعف من قواته و استولى على "الزمالة" سنة 1843 بما فيها من نساء و أطفال [35]. فراسل الأمير سلطان المغرب للاستعانة به إلا أن هذا الأخير تعرض لضغوط كبيرة دبلوماسيا و عسكريا فتخلى عن الأمير[36]. فضعف الجيش المحمدي و لم يستطع الأمير أن يواصل الحرب التي خاضها طيلة 17 سنة. فاضطر إلى وقف القتال كما سنرى ذلك فيما بعد.

3-المقاومة الثقافية

لم يكن الأمير قائدا عسكريا أو مؤسسا للدولة الجزائرية الحديثة فحسب بل كان شاعرا كبيرا و مفكرا بارعا و متصوفا. فشهد معاصروه بأنه كان واحدا من الرجال الأكثر ثقافة في زمانه. و ذلك أنه تلقى تربيته الأولى في الزاوية العائلية حيث كان والده مقدم الطريقة القادرية[37]. فاهتم بإعطائه تربية شاملة زيادة على سعة مطالعته في الفلسفة و المنطق و التاريخ و الجغرافيا و اللغة و غيرها، فكان الأمير يدعو للعلم مثلما كان يحرض على الإيمان منبها رجاله: " *احذروا أن تكونوا أحد النوعين من الرجال، العالم أو المؤمن بل كونوا الاثنين معا"* [38]. فنظم الأمير التعليم في مختلف أنحاء القطر حيث وضع راتبا للمدرسين من ميزانية الدولة. و ذكر في إحدى المناسبات أنه شفق على المثقفين و المدرسين خاصة عندما ارتكبوا أخطاء،فتسامح معهم لأنه رأى من الصعب تعويضهم إن قضى عليهم[40]، الأمر الذي يدل على إنسانية الأمير و كرم أخلاقه.

فرغم خوضه المعارك إنه لم يترك القلم و لا المطالعة. فكان دائما يعبر عن شعوره بقصائد لا تخلو من الرقة و الجمال[41]. و ألف عدة كتب و رسائل

نذكر منها "*ذكرى العاقل و تنبيه الغافل*" [42] و هو كتاب طلبته منه "*الجمعية الآسيوية*"بباريس [43]. أكد الأميرفيه أن الإيمان يتكامل مع العقل و العلوم ليست منافية للدين. و على الإنسان أن يتكيف مع عصره دون أن يفقد روحه: "*إذا استطاع الإنسان أن يجد طريقة إلى روحه فإن سعادته ستكون بقدر علمه، و في حالة العكس فإن شقاه سيكون بقدر جهله*" .[44] و رفض الأمير أيضا الجبر وقال إن الله أراد أن يكون الإنسان حرا في تصرفه[45]. و رأى أن الحوار ممكن بين الديانات و خاصة بين الإسلام و المسيحية فقال: "*لو أصغى إلي المسلمون و النصارى لرفعت الخلاف بينهم و صاروا إخوانا*" [46].

و ألف في التصرف "كتاب المواقف" متأثرا بالشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الأندلسي، فهو ثمرة الدروس التي ألقاها في دمشق في تفسير آيات قرآنية وشرح أحاديث نبوية مخصصا لكل موضوع "*موقفا*". و له أيضا "*المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطن و الإلحاد*" الذي رد فيه علىالذين هاجموا دين الإسلام [47].

إن هذه النظرة السريعة على المقاومة في مراحلها الثلاث سمحت لنا بتقديم صورة صحيحة عن حياة الأمير و أعماله. و يجدر بنا في نهاية المطاف أن نتوقف قليلا عند أسئلة طرحها أكثر من باحث: -لماذا قرر الأمير نهاية القتال بعد سبعة عشر سنة من الجهاد المرير؟- لماذا اعتقلته فرنسا رغم الاتفاق الذي تعاهدت به؟-لماذا اختار الأمير دمشق إقامة له بعد إطلاق سراحه؟-هل انخرط فعلا في الماسونية؟

فيما يتعلق بوقف القتال فقد قرره بإرادته في 23 ديسمبر 1847إذ وضح الأمير لمجلسه الشوري أن العدو قد تفوق على جيشه بالعدة و العدد،

فدمر البلاد. فبعد استشارة الأعيان و القادة قدم لهم خيارات ثلاثة: -إما اللجوء إلى الصحراء و إما إلى المغرب الأقصى و إما التفاوض مع العدو. فأبعد الخيار الأول لأن الصحراء ليست لها موارد كافية و لا قوة تساعده، و أبعد الخيار الثاني لأن المغرب أيده في البداية تأييدا كليا ثم تخلى عنه لأن العدو الفرنسي اعتدى عليه (48). فسدت كل الطرق في وجه الأمير و حاصره الجنود المغاربة في الحدود و لم يبق إلا الخيار الثالث حيث قال: *" لا أرى إلا التسليم بقضاء الله، و لقد أجهدت نفسي في الذب عن الدين و البلاد و أقمت على ذلك ما ينوف من 17 سنة، أقتحم المهالك و أملأ بالجيوش الجرّارة الفجاج و المسالك استحقر العدو على كثرته إلى أن فقدت المعاضد و المساعد، و دبت إليّ من بني ديني الأفاعي، و الآن بلغ السيل الزبى و كل شيء بائد"* (49).

تفاوض الأمير فعلا مع الجيش الفرنسي بشروط حددّها منها أن يكون حرًا في الهجرة إلى بلد مسلم يختاره هو و رفاقه. فتعهد له القائد "لامورسيار" (Lamoricière) بما طلب و أدى ذلك إلى سخط المجلس الفرنسي فكتب هذا القائد: *"وجهت إلي تهمة الدخول في مفاوضات بدلا من مواصلة العمل العسكري للإمساك به، هل تعلمون أن كل ما كنت سأخذه لو أني مضيت في مطاردته؟ كنت سأقوم بحملة عسكرية أخرى و كنت أستطيع الاستيلاء على خيمة الأمير و على حريمه و ربما على أحد خلفائه، أما هو شخصيا بفروسيته المعهودة فإنه كان سيلتحق بالصحراء"* (50). و لكن الحكومة الفرنسية التي وافقت على هذا *"التسليم"* سقطت بعد ثورة شعبية و رفضت الحكومة الجديدة احترام العهد، فاعتقلته مدة أربع سنوات في فرنسا إلى أن قرر الرئيس "نابليون

بونابارت" إطلاق سراحه في أكتوبر1852 (51). فغادر الأمير الأرض الفرنسية و بقي مؤقتا في مدينة "بروسة" بموافقة الدولة العثمانية ثم وقع زلزال في هذه المدينة فقرّر الأمير السفر إلى دمشق سنة 1855. فقابله أهل الشام باحتفال عظيم لم تشاهده هذه المدينة منذ عهد صلاح الدين الأيوبي(52).

وفي دمشق تفرغ الأمير للدراسة و التدريس و التأليف و اهتم بالمهاجرين الجزائريين إلى أن قامت الأحداث الدموية سنة 1860. فأنقذ الأمير بشجاعته المعتادة الآلاف من المسيحيين الذين تعرّضوا إلى مجزرة، و نقلهم إلى داره لحمايتهم (53). فنال حينئذ إعجاب الدول الغربية فمنحته قادتها الأوسمة اعترافا بإنسانيته و بطولته(54). و بعثت له الجمعية الماسونية الفرنسية أكثر من رسالة طلبت منه الانخراط في صفوفها إلا أنه لم يوافق على ذلك رغم أن الماسونية ادّعت فيما بعد أنه انخرط فيها، و هذا مجرد افتراء يحلو لبعض الباحثين الفرنسيين الإصرار على إثباته، و إجابة الأمير علىهذه الرسائل لايدل على انضمامه إليها. فالأمير شخصية قوية لا تخضع إلا للمواقف التي تمليها عليه عقيدته و فكره. وفي الواقع إن الماسونية كانت تريد استغلال شهرته في العالم الإسلامي لنشر أفكارها بواسطته و لكنها لم تنجح فأعادت هذه الجمعية المحاولة نفسها فيما بعد مع رائد النهضة الإسلامية الحديثة جمال الدين الأفغاني و غيره من العلماء.

و الجدير بالذكر أن الأمير احتفظ على لقب الإمارة بعد نهاية جهاده فكانت إمارة الجهاد كما هو معلوم. و لا يمكن أن يتلقب أحد من أسرته بهذا اللقب. و بفضل صفاته الحميدة و مواقفه البطولية أصبح الأمير رمزا لجميع الثورات الشعبية التي توالت بعده في بلاده بما فيها حرب التحريرالمباركة التي حققت

استقلال الجزائر. فهو رمز مجدنا وِ نحن نحتفل به و نواصل إحياء ذكراه في جميع المناسبات. وقد اعتنى به باحثون جزائريون و أجانب و انصفوه و اعتبروه من أكبر الشخصيات العالمية التي برزت في القرن التاسع عشر مع المجاهد القوقازي "شميل" و "محمد علي باشا"[55].

(محاضرة القيت في كلية الاداب بجامعة القاهرة في 18 ديسمبر 2004.)

الهوامش:

1- راجع يحي بوعزيز، الأمير رائد الكفاح،ص 44.

2- ولد عبد القادر سنة 1808 في ضواحي معسكر بالغرب الجزائري و توفي في دمشق في 1883. يمكن الرجوع إلى حياته بالتفصيل من خلال المصادر المذكورة في نهاية بحثنا.

3- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر،ص 101.

4- تحفة الزائر، ص 96-106.

5- مصطفى بن تهامي، سيرة عبد القادر و جهاده، ص 130.

6- أ.ف.دينيزن، الأمير عبد القادر و العلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ص 27.

7- Ch.H.Churchill, La vie d'Abd – el- Kader,p.352.

8- أ.ف.دينزين، نفس المرجع، ص 20.

9- Ch.H. Churchill, op.cit.,p. 167

10- يحي بوعزيز، نفس المرجع،ص 76

11-نفس المرجع،ص 79.

12- Ch.H. Churchill, op.cit.,p. 159.

13- أ.ف. دينزين، نفس المصدر، ص 82.

14- بديعة الحسني جزائري، الأمير عبد القادر بن محي الدين،ص 40.

15- Ch.H. Churchill, op.cit.,p.97-98

16-هي عبارة عن مدينة من الخيام، تأسست في 1842 و بلغ عدد سكانها حوالي 20 ألف نسمة، فيها قسم لعائلة الأمير و ذويه و قسم لأركان الحرب و عائلتهم و قسم للجند و عائلتهم و أماكن خاصة لمعامل السلاح و أماكن لمجالس الشورى و القضاء ...

17- مصطفى بن تهامي، نفس المصدر،ص 135-136.

18-ترجم إلى اللغة الفرنسية في 1848.

19- Ch.H. Churchill, op.cit.,p. 82.

20-راجع M. Emerit, L'Algérie àl'époque d'Abd –el- Kader, p. 277-280.

21-أ. ف.ديترين، المصدر السابق، ص 27 .

22- P.Azan, Bugeaud et l'Algérie, p.68.

23- Ch.H. Churchill, op.cit.,p.352-353

24- Ibid., p. 110.

25-تحفة الزائر،ص 167.

26- P. Azan, L'Emir Abd-el-kader, p.53.

27- Ch.H. Churchill, op.cit.,p.96

28-تحفة الزائر،ص 113-116.

29- Ch.H. Churchill, op.cit.,p175-179

30-مصطفى بن تهامي، نفس المصدر، ص 110.

31- Ch.H. Churchill, op.cit.,p.101 .

32-المرجع السابق، 175-185.

33-تحفة الزائر،ص 196-199.

34- P.Azan, op.cit. p.117-118.

35- Ch.H. Churchill, op.cit. p.240.

36- P.Azan, op.cit . p. 98.

37- مؤسسها عبد القدر الجيلاني و ضريحه مشهور في مدينة بغداد.

38-الأمير عبد القدر الجزائري، ذكرى العاقل، ص 40-41.

39- Ch.H. Churchill, op.cit .p.167.

40-نفس المصدر و الصفحة.

41-ألف ديوان شعر عالج فيه مواضيع مختلفة من فخر و مدح، فهو أحسن تعبير في حماسه و انصرافه الكلي للجهاد و المقاومة. راجع ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، حقيق عبد القادر السايحي و محمد صالح رمضان، ط، دار الأمة،الجزائر 2001.

42-ألفه الأمير في بروسة سنة 1855 بطلب من الجمعية الآسيوية بباريس. يبدو أنه اطلع على كتب ابن رشد و الغزالي و ابن خلدون.

43- ترجم إلى الفرنسية مرّتين في 1858 و 1867.

44-تحفة الزائر، ص 63.

45-ذكرى العاقل، ص 167.

46-نفس المصدر و الصفحة.

47- المقراض الحاد ،دمشق، بدون تاريخ.

48-:كانت فرنسا قد ضايقته بمعاهدة طنجة في 1844 التي كانت ترى أن الأمير خطير فعلى السلطان أن يقضي عليه أو يعتقله و يسلمه للسلطات الفرنسية. راجع P.Azan, L'Emir Abd-el-kader, p.226-227.

49- تحفة الزائر، ص 323-324.

50- Ch.H. Churchill, op.cit. p. 273

51-تحفة الزائر، ص 37.

52-راجع الراوي، أعيان دمشق،عند بديعة الحسني، المرجع المذكور،ص 176.

53-جرجي زيدان، بناة النهضة العربية، ص 31-32.

54-إمبراطور فرنسا، ملك بروسيا، قيصر روسيا، ملك إيطاليا، ملك اليونان، ملكة بريطانيا...

المصادر و المراجع (باللغة العربية)

- الأمير عبد القادر الجزائري، *ذكرى العاقل و تنبيه الغافل*، ت. د. ممدوح حقي، ط. دار اليقظة العربية،بيروت،1966.
- الأمير عبد القادر الجزائري، *المقراض الحاد لقطع لسان دين الإسلام بالباطل و الإلحاد*، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،بدون تاريخ.
- مصطفى بن تهامي، *سيرة الأمير عبد القادر و جهاده*، تحقيق د.يحي بوعزيز،ط دار الغرب الإسلامي، بيروت،1995.
- د. بوعزيز يحي، *الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري*، ط. ابن خلدون، تلمسان،2002.
- محمد الحسني الجزائري(ابن الأمير) : *تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر*،*المطبعة التجارية*،الإسكندرية،1903.
- بديعة الحسني الجزائري،*الأمير عبد القادر الجزائري*،دمشق،1992.
- أ.ف.ديترين، *الأمير عبد القادر و العلاقات الفرنسية-العربية في الجزائر*،ترجمة من الدانماركية د. أبو العيد دودو،دار هومة، الجزائر،1999.
- د.أحمد درويش، في صحبة الأميرين أبي فراس الحمداني و عبد القادر الجزائري،ط. مؤسسة البابطين،الكويت،2000.
- جرجي زيدان، *بناة النهضة العربية*،دار الكتاب العربي،بيروت.

المصادر و المراجع باللغة الأجنبية

Azan Paul, *L'Emir Abd El Kader, du fanatisme musulman au patriotisme français*, Edit. Hachette, Paris, 1925.
Azan Paul, *Bugeaud et l'Algérie*, édit. Paris, 1930.
Azan Paul, Sidi-Brahim, édit. Horizons, Paris, 1945.
Dr Bouamrane Cheikh, *L'Emir Abd el Kader, résistant et humaniste*, édit. Hammouda, Alger, 2001.
Churchill Charles-Henry, *La vie de l'Emir Abd El Kader*, traduction de l'anglais M. Habart, édit. Sned, Alger, 1971.
Emerit Marcel, *L'Algérie à l'époque de Abd El Kader*, édit. Larose, Paris, 1951.
Esquer Gabriel, *Correspondance*, édit. Champion, Paris, 1926.
Sahli Mohamed-Cherif, *Abdelkader, le chevalier de la foi*, Alger, 1953.
Vignon Louis, *La France en Algérie*, édit. Hachette, Paris, 1893.
Temimi Abdeljalil, *Lettres inédites de l'Emir Abd El Kader*, Revue d'histoire maghrébine, Tunis, 1978, t.18, pp.308-311.

ثورة السلطان سي زغدود في جبل إيدوغ 1841- 1843

أ. علي خنوف

مقدمة:

من الثورات الشعبية المجهولة تماما ثورة السلطان سي رغدود التي دامت أكثر من سنتين، من أواخر سنة 1840-1843، قد اندلعت في منطقة جبل إيدوغ غرب مدينة عنابة، لتمتد إلى مدينة جيجل حيث انتشرت بسرعة في الشمال القسنطيني كله. وحسب اجتهادي المتواضع فإن هذه الثورة الشعبية الهامة التي قادها سي زغدود مازالت في بطون الكتب الفرنسية المعاصرة لها.

لقد سبق لي الإشارة في المقدمة إلى أهمية ثورة السلطان سي زغدود في جبل إيدوغ[1]، ورغم ذلك بقيت مجهولة عكس المقاومات الشعبية الأخرى التي أدرج الكثير منها في المناهج المدرسية، وإن كانت أقل منها أهمية، وقد بقيت تلك الثورة حسب المعلومات المتوفرة لدّي في بطون الكتب الفرنسية المعاصرة لها مثل كتب شارل فيرو[2] وغيره. وأغلب هؤلاء الكتّاب الفرنسيين من ضباط جيش الاحتلال في فترة 1830-1850، ولهذا فإن المادة التاريخية التي سأعتمد عليها في هذا البحث كلها منقولة من كتاب تاريخ مدينة سكيكدة لشارل فيرو لأن إمكانياتي الخاصة لا تسمح لي بالإطلاع على دور الأرشيف الفرنسي التي تحتوي على وثائق هامة مثل أرشيف وزارة الحرب بقصر فانسان بباريس وأرشيف ماوراء البحر بجامعة إيكس بروفانس، والمصادر الوطنية لهذه الثورة منعدمة حسب اجتهادي،[3] وحتى الأشعار الشعبية التي عادة ما تخلد أبطال تلك الثورات اندثرت إن وجدت، وإذا بقي منها شيئ إلى اليوم فإنني لم أستطع الحصول عليه. وقد سألت البعض من معارفي الذين تعود أصولهم إلى منطقة إيدوغ عن أية معلومات متوارثة حول ثورة سي زغدود لكنهم حسب قولهم،

لم يسمعوا أي شيء عنها من الكبار الذين سبقوهم. و لم تبق لنا سوى المعلومات الفرنسية غير المحايدة لأن طريقة كتابة الفرنسيين للأحداث التاريخية معروفة، وعلى الأخص تلك التي شاركوا في صناعتها بقمعهم الوحشي لتلك الثورات، فمقاومة الاحتلال والدفاع عن الوطن يعتبرونها عصبية دينية وقبلية. وينعتون أصحابها بقطاع الطرق، هذا هو أسلوب المصادر الفرنسية في تناولها للثورات الشعبية خلال القرن التاسع عشر، لم نجد مع الأسف أي سند مكتوب ماعدا تلك الادعاءات. لذلك بقي لنا أن نأخذ تلك المعلومات ونفسرها حسب وجهة نظرنا، وربما هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل الكثير من المهتمين بتاريخ الاحتلال الفرنسي يمتنعون عن الخوض في الكثير من الثورات الشعبية. وحتى الدكتور يحي بوعزيز صاحب الأبحاث في ثورات القرن التاسع عشر الذي تعرض للعشرات منها، حتى تلك التي دامت شهرا واحدا فقط، لم أجد في كتبه التي استطعت الاطلاع عليها أية إشارة ولو بسيطة، لثورة سي زغدود المغمورة، وأجهل مع الأسف الأبحاث التاريخية المحلية التي تقوم بها معاهد التاريخ لجامعات الشرق الجزائري، وهل تناول بحث من أبحاثها هذه الثورة أم لا؟

لقد اندلعت الثورات الشعبية في كل مكان بعد سقوط المقاومة الرسمية الممثلة في حكومة الداي حسين يوم 5 جويلية 1830م ولكن هيمنة كفاح الأمير عبد القادر في الغرب وأحمد باي في الشرق قلل الاهتمام بالثورات الشعبية المحلية التي اندلعت في فترة كفاحهما، رغم أننا لا نجد في المصادر الفرنسية أو سواها أي دليل مادي ملموس يثبت أية علاقة للكثير من تلك الثورات الشعبية مع كفاح الرجلين.

الوضع العسكري العام لفترة 1840–1843م.

منطقة الغرب الجزائري: استؤنفت المعارك بين الأمير عبد القادر والفرنسيين سنة 1839 بعد ما خرقت معاهدة التافنة [4] وتكبّد الغزاة خسائر فادحة وعلى الأخص في سنتي 1839و 1840 في عدة مناطق وظهرت في فرنسا معارضة قوية ضد حرب الجزائر وطلبت من الحكومة الكف عن التوسع والتوغل داخل الجزائر والاكتفاء بالمدن الساحلية، وحتى أن البعض منها طالب بالانسحاب نهائيا من الجزائر. لكن رئيس الوزراء حينئذاك السيد تيير[5] وقف بحزم ضد هذه المعارضة وأعلن تصميم حكومته على الاحتفاظ بالجزائر وأيده في ذلك وزير الدفاع المارشال سولت[6] وطالب هذا الأخير بالقيام بعمليات عسكرية حاسمة. ولتنفيذ هذا الاتجاه عين سولت الجنرال بيجو[7] قائدا عاما للجيش الفرنسي بالجزائر في شهر فيفري 1841م، وقد التحق بالجزائر بعد التعيين مباشرة، ومعه أكثر من مائة ألف جندي، مع إعطائه الصلاحيات الواسعة لتنفيذ السياسة الجديدة. وفعلا، بدأ تطبيقها، و ذلك بالهجوم على التجمعات السكانية الموالية للأمير عبد القادر لنهبها وحرق منازلها واتلاف مزروعاتها ومصادرة حيواناتها وبث الفتن بين أعيانها، وشيوخها ليبتعدوا عن مناصرة الأمير واضطرارهم للوقوف ضده وبالتالي يقوم هو بمعاقبتهم. والكتب التاريخية مملوءة بهذه المآسي التي تضع الأعراش بين نارين. وكان بيجو يعطى لضباطه وجنوده التعليمات التالية: ليست مهمتكم أن تجروا وراء العرب في الجبال والصحاري فهذا غير مجد فمهمتكم أن تمنعوهم من البذر والحصد والرعي، وأحرقوا القرى، و أتلفوا المحاصيل، اجمعوا المواشي. وفعلا أثرت هذه الأساليب البعيدة عن اخلاقيات الحروب على الأعراش التي كانت تساند الأمير في كفاحه ضد جيش الاحتلال

وانقلب ميزان القوة لـــــصالح بيجو فشدد هجماته وصار يتوغل في الداخل فهاجم تاقدمت [8]عاصمة الأمير عبد القادر سنة 1841 ثم احتل مدينة معسكر، وفي سنة 1842 احتل تلمسان وشرشال والمدية ومليانة، وفي سنة 1843 استولى على الزمالة عاصمة الأمير المتنقلة.

منطقة الشرق الجزائري:

بعد سقوط قسنطينة في يد جيش الاحتلال الفرنسي سنة 1837 فـــر الحاج أحمد باي[9] قسنطينة نحو الجنوب واستقر في أول الأمر في منطقة بسكرة ويذكر أحمد باي في مذاكرته [10] بأن خاله بوعزيز بن قانة[11] هـــو الـــذي شجعه على الالتجاء إلى بسكرة، وفي نيته محـــاربة توسعات الأمير عبد القادر لا محاربة الفرنسيين، وفعلا فقد بدأ الصراع بين الطرفين على النفوذ فهـــاجم محمد بن البركاني، خليفة الأمير عبد القادر على المدية، مدينة بســـكرة ســـنة 1838 فانسحب منها أحمد باي والتجأ إلى النمامشة، وهناك ضايقه الفرنسيون فانسحب منها كذلك وذهب إلى نواحي توقرت. وفي سنة 1841م استســـلم خاله بن قانة لجيش الاحتلال الفرنسي، وأول شيء قام به بعـــد استســـلامه مهاجمة خليفة الأمير عبد القادر في نواحي وادي ميزاب.

والحقيقة التاريخية المرة هي: إن هذه الفترة 1838 1843، التي التجأ في بدايتها أحمد باي إلى منطقة بسكرة شهدت حروبا وصراعات علـــى النفـــوذ والسلطة بين العائلات التقليدية التي كانت تتوارثها في العهد العثماني فلعبـــوا على حبال الأمير عبد القادر وأحمد باي والفرنسيين ولذلك فالمعـــارك الـــتي خاضتها تلك العائلات فيما بينها مثل عائلة بوعزيز بن قانة وعائلة فرحات بن السعيد أكثر من المعارك التي خاضتها ضد الفرنسيين.

هذه خلاصة الأوضاع العسكرية لكفاح الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي في الغرب والوسط والجنوب الشرقي القسنطيني خلال الفترة السالفة الذكر. فهي على العموم غير مريحة بالنسبة للأمير والحاج أحمد، وبقيت أرياف الشريط الساحلي الممتد من الحدود التونسية إلى مستغانم غير مهتم بها كثيرا رغم موقعها الجبلي الهام لحرب العصابات وروح المقاومة العالية لسكانها.

- الشريط الساحلي القسنطيني ما بين 1830-1843:

لقد بدأ الاستعمار الفرنسي باحتلال مدن الساحل القسنطيني: مدينة عنابة سنة 1832، بجاية سنة 1833 ، ومنطقة سكيكدة سنة 1838 وجيجل سنة 1839. كما شرع في بناء مدينة سكيكدة (فليب فيل)(12) بعد احتلال المنطقة مباشرة ولضمان الاتصال بينها وبين قسنطينة شيد على طول الطريق القلاع العسكرية التي تحولت فيما بعد إلى مستعمرات وهي ديدوش مراد (بيزو) و زيغود يوسف (السمندو) ، والحروش وفج المديس الذي يبعد عن مدينة سكيكدة بحوالي 13 كيلومتر. وبمجرد معرفة النوايا الحقيقية لجيش الاحتلال وهي الاستطيان واغتصاب الأراضي الخصبة بدأت المقاومات الشعبية في نواحي عنابة وسكيكدة وجيجل وبجاية، وكثرت الهجومات على المدن الساحلية المحتلة كل ليلة وأهم تلك الثورات الثورة المعروفة باسم صاحبها سي زغدود.

من هو السلطان سي زغدود:

إن المصدرين الفرنسيين اللذين اعتمدت عليهما في هذا البحث وهي شارل فيرو، وبليسي لا يذكران شيئا على ماضيه ولا على سنة ازدياده ولا نسبه الأسر ولا تكوينه الأولي ولا نشاطه السياسي أو الإداري، وكل ما أفادتنا به تلك المصادر هو أن سي زغدود، سنة 1840،كان شيخا على عرش بني

محمد الموزع في المنطقة الساحلية رأس الحديد غرب مدينة عنابة (منطقة الشطايبي) أما أسباب ثورته فالمصادر الفرنسية الوحيدة في هذا الميدان ترجعها إلى التعصب، ورفض المسيحيين وحضارتهم، والسذاجة والتخلف، ولكن الأسباب الحقيقية لثورة سي زغدود نعرفها من خلال شرحهم للأحداث التي أدت به إلى إعلان الجهاد ضد ذلك المحتل. فمن خلال ذلك الشرح نعرف أن سي زغدود كان قبل إعلان الجهاد يعترف بالأمر الواقع الذي أحدثه جيش الاحتلال وهو نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي لكن سي زغدود كان يجهل الأهداف الحقيقية للفرنسيين وهو الاستعمار الاستيطاني والاستيلاء على الأراضي الخصبة وعلى الثروات الغابية، والمعادن الباطنية، وطرد الجزائريين إلى الجبال والأحراش.

تعترف المصادر الفرنسية أن منطقة إيدوغ غرب مدينة عنابة كانت هادئة من سنة 1832إلى 1840م وأن القائد الذي تركه العثمانيون يحكم منطقة إيدوغ استمر في حكمه، وكان متحكما في شيوخها ومن بينهم سي زغدود، وقد كانوا يجمعون الضرائب، ويذهبون بها إلى القيادة العسكرية في أوقاتها المحددة، وقد زار سي زغدود عنابة قبل إعلانه الثورة بخمسة عشر يوما، كما يعترف الفرنسيون بأن السبب المباشر للثورة هو عزل القائد القديم المتحكم في الأوضاع المدعو سي كريمش، وتعيين أحد صنائع جيش الاحتلال الصبائحي بن بركوش على منطقة إيدوغ، فرفضت أعراش إيدوغ هذا التغيير و لم تعترف بقيادة بن بركوش، كما رفضت دفع الضرائب له، وفي الوقت نفسه بدأت تظهر طلائع المغامرين من المعمرين الأوائل من فرنسيين وإيطاليين ومالطيين لاستغلال قشرة أشجار البلوط الكثيرة بغابات المنطقة، ولتثبيت هذا الأمر الواقع

أمرت القيادة العسكرية الضابط ألوم(Alloume) بتنظيم حملة عسكرية لتأديب الأعراش التي رفضت القائد الجديد الصبائحي بن بركوش [13] فخرجت القافلة يوم 17 جوان 1841 من مدينة عنابة تضم خمسة وعشرين جنديا فرنسيا ومجموعة كبيرة من صبايحية القائد الجديد بن بركوش واتجهت نحو منطقة إيدوغ وجمعت الضرائب من أعراش وشاوية، والتريعات؛ وصنهاجة[14] وفي يوم 13 من الشهر نفسه وصلت إلى عرش بني محمد [15] فنصبت خيامها، وطلبت من سي زغدود ضرائب عرشه فمطالهم إلى ما بعد الظهر بحجة إتمام جمعها لكن الضابط الفرنسي أحس بشيء غير عاد فطلب من القائد بن بركوش الاستعداد للانسحاب والعودة إلى مدينة عنابة وعند ما بدأ في الانسحاب أطلق عليهم الرصاص سي زغدود وقتل الضابط الفرنسي ألوم وفي الوقت نفسه خرجت مجموعة كبيرة من الأحراش القريبة وأطلقت النار على الفرقة العسكرية المرافقة له فقتلوا بعضها والبعض الآخر استطاع الفرار ومن حسن حظتهم فقد وجدوا أمامهم مجموعة من الخيل ترعى فركبوها، وفروا بها إلى مدينة عنابة ومنهم القائد بن بركوش. وبذلك بدأت المرحلة الأولى من ثورة سي زغدود .

انتشار الثورة في منطقة عنابة:

في يوم 21 جوان 1841 وصل خبر مقتل الضابط الفرنسي ألوم إلى قائد منطقة عنابة الجنرال لافونتين (la Fontaine) فجهز بسرعة حملة عسكرية من حوالي خمس مائة جندي وقادها بنفسه واتجه بها نحو عرش بني محمد لينتقم من سي زغدود الذي غنم من هذه العملية عدة خيم عسكرية، وحوالي 30 رأس من الخيول والبغال وعدة أسلحة متطورة، وحوالي خمسة آلاف فرنك بالإضافة إلى تجهيزات أخرى. وكان سي زغدود واعيا لعواقب ما أقدم عليه،

فاستعد لذلك وكان بالمرصاد لقافلة الجنرال لافونتين فتركه حتى توغل في شعاب المنطقة وهاجمه من كل جهة، واندلعت معركة كبيرة بينهما وانتهت بانتصار سي زغدود، وموت العديد من الجنود الفرنسيين وعودة ما تبقى منهم خائبين إلى مدينة عنابة. وبهذا الانتصار أصبح سي زغدود سيد المنطقة الساحلية الممتدة من عنابة إلى سكيكدة وحصر الفرنسيين في مدينة عنابة وأصبح الإقليم الريفي خارج عن طاعتهم وقد هاجم مدينة عنابة عدة مرات في شهري أوت وسبتمبر من السنة نفسها، ونتيجة لفشل الجنرال لافونتين في التغلب على سي زغدود أبعد من قيادة عنابة وعين مكانه في شهر أكتوبر 1841 الجنرال راندو. بعد استقراره نظم حملة عسكرية ضخمة في شهر نوفمبر من السنة نفسها تضم أكثر من ألف جندي واتجه بها نحو منطقة إيدوغ وبدأ يطبق الاستراتيجية الجديدة التي جاء بها الجنرال بيجو من فرنسا وهي القتل الجماعي وإحراق القرى وإتلاف البذر والحصد ومصادرة الحيوانات. وفعلا أعاث الجنرال راندو في منطقة إيدوغ فسادا فحرق جميع القرى التي وجدها في طريقه في أعراش التريعات وصنهاجة وبني محمد وغيرهم كما قتل أربعة إخوة لسي زغدود وعشرين من أقاربه والكثير من سكان الأعراش. ورغم بقاء القوات الفرنسية في المنطقة عدة أيام فإن سي زغدود والكثير من مجاهديه استطاعوا الإفلات من هذه المحلة التي قادها الجنرال راندو فخرجوا سالمين من منطقة عنابة واتجهوا غربا نحو ناحية سكيكدة.

سي زغدود في منطقة سكيكدة:

لقد انتشرت بسرعة بطولة سي زغدود، وانتصاراته على الجنرال لافونتين في منطقة عنابة بين أعراش الشمال القسنطيني كله من عنابة إلى مصب

الوادي الكبير شرق مدينة جيجل وكثر مؤيدوه وسنعرف ذلك حينما نتعرض لاحقا لنشاطه الثوري في منطقة سكيكدة.

لقد اضطر سي زغدود لمغادرة منطقة عنابة بعد ما خرجها الجنرال راندو، وفي شهر ديسمبر 1841 حط رحاله في منطقة المثلث سكيكدة، القل الحروش في وسط عرش بني إسحاق القبلية [16] . ومن هناك استأنف نشاطه الثوري فاستجابت له أعراش المنطقة كلها الزرامنة بنى توفت أولاد عطية بنى فرقان بنى حمدوش وشاوي أولاد الحاج بني ولبان وبني صالح بني مهنة والعلمة معسلة[17]. كما انضمت إليه أعراش المنطقة الشرقية الواقعة ما بين الحروش وقالمة مثل أولاد جابرو أولاد عطية الشرقية و زردارة[18] . ونظرا لهذا التأييد الواسع أعلن نفسه سلطانا وكتب الرسائل إلىجميع أعراش المنطقة باسم السلطان سي زغدود وقد عين خلفاء على كل عرش فقد عين مثلا محمد ابن عبد الرحمن خليفته على عرش زردارة الكبير، وقد قدر الفرنسيون مجاهديه ما بين خمسة وسبعة آلف مجاهد أثناء هجومه على المركزين الفرنسيين فج الديس بنصب الكمائن ليلا ونهارا والحروش. وقد جعل مركز نشاطه الرئيسي سوق الثلاثاء[19] بوسط عرش بني إسحاق القبيلة غرب مدينة سكيكدة. ومن هناك انطلقت نشاطاته الثورية بنصب على الكمائن للقوافل العسكرية الفرنسية أثناء تنقلاتها ما بين قسنطينة وسكيكدة، وقطع الطريق على المسافرين ومصادرة التموين واختطاف المعمرين والمتعاونين معهم من الجزائريين. وقد كبد الفرنسيين خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، كما قطع عليهم الطريق بين سكيكدة وقسنطينة وأصبحت المراكز الفرنسية كالحروش وفج الديس مهددة بالسقوط في يدي السلطان سي زغدود، فعم الذعر المعمرين الأوائل اللذين

وزع عليهم أكثر من عشرة ألاف هكتار من اخصب الأراضي الواقعة على ضفاف وادي الزرامنة وضفاف وادي الصفصاف، والتحقوا بالمراكز العسكرية خوفا من ضربات السلطان سي زغدود.

معركة سوق الثلاثاء ببني اسحاق القبلية:

ونتجية لما يقوم به السلطان سي زغدود من نشاطات ثورية واسعة وسيطرته التامة على أرياف منطقة سكيكدة كلها، بما فيهم الكثير من عشائر عرش بني مهنة، وكذلك عشائر من عرش العلمة معسلة، لأن هذين العرشين يعدان من الخاضعين لجيش الاحتلال. فقد أصبح الوضع العام خطيرا بالنسبة للوجود الفرنسي في الشمال القسنطيني كله، وأصبح سي زغدود السلطان الفعلي له، ولاختبار قوته نظم الكولونيل بريس(Brice) قائد منطقة سكيكدة، حملة عسكرية يوم 4 ماي 1842 تضم أكثر من خمس مائة جندي واتجه بها نحو سوق الثلاثاء جنوب غرب فج الديس (مابين الحدائق وتامالوست) ويدَّعي الفرنسيون بأن هذه الحملة كانت للاختبار وإظهار القوة فقط، فقد وصلت بعد ماسارت أكثر من عشر ساعات إلى سوق الثلاثاء، فتفرق أنصار زغدود في كل الاتجاهات و احتلت المحلة على اثرها مرتفعا مكشوفا.

و لم تقم بأي عمل حربي، كما أنها لم تقم بأي عقاب ضد السكان. فبقيت المحلة حوالي ثلاث ساعات، و لم يطلق عليها أية رصاصة ولكن أثناء عودتها تعرضت هذه الأخيرة للهجوم في الوسط وفي المؤخرة، واندلعت معركة شرسة استعمل فيها السلاح الأبيض واستمرت أكثر من ست ساعات من السادسة مساء إلى منتصف الليل وقد اعترف الفرنسيون بموت خمسة عشر جنديا، وجرح 67 آخرين وقد تركوا في المعركة الكثير من المعدات الحربية،

والتموين وأسر ثلاثة جنود أثناء المعركة. وقد استغل سي زغدود هذا الانتصار وأرسل دعاته إلى كل الجهات محملين بالأسلحة التي غنموها كما أرسل معهم الجنود الفرنسيين الذين أسرهم أثناء المعركة ليشاهدهم الخاضعون لجيش الاحتلال.

الهجوم على الحروش وفج الديس:

بعد انتصار السلطان زغدود على الكولونيل بريس صار يطمح لاسترجاع عاصمة الإقليم قسنطينة.وفعلا فقد عزل منطقة سكيكدة عن مدينة قسنطينة، وأصبح ممر الكنتور مراقب ليلا نهارا من طرف مجاهديه. ولإظهار قوته قام يوم 20 ماي 1842م بهجومين كبيرين في وقت واحد.

الأول: على مركز فج الديس والثاني على الحروش وقد حاصر المركزين طيلة صبيحة 20 ماي بأكثر من خمسة آلاف مجاهد، وقد قاد بنفسه الهجوم على الحروش لكن المدفعية الفرنسية الثقلية والحصانة القوية للمركزين وبساطة أسلحة مجاهدي سي زغدود جعل الرصاص الذي يطلقونه، لا يخترق الأسوار، فهذه العوامل أفشلت الهجومين حيث خسر فيهما سي زغدود حسب المصادر الفرنسية، أكثر من مائة مجاهد، أما خسائر العدو فلا تتعدى عشرة جنود.

ونظرا لهذا الفشل وعدم جدوى مهاجمة المراكز العسكرية الفرنسية غيّر سي زغدود الاستراتيجية، واتجه إلى حرب العصابات وقسم مجاهديه إلى فرق صغيرة تضرب، وتهرب، عاد لتشديد الخناق على تحركات الجيش و المعمرين وأصبح التنقل بين المراكز العسكرية لا يتم إلا بالقوافل الطويلة. ونظرا لهذا الوضع المقلق، عوض الكولونيل بريس، قائد منطقة سكيكدة، بالجنرال لوفاسور (Le Vasseur) وأعطيت له التعليمات بالقضاء على سي زغدود بأي ثمن كان:

ودعم بحوالي خمسة آلاف جندي فرنسي ليطبق سياسة بيجو الجديدة، الأرض المحروقة. وقد اختار الوقت المناسب، وهو بداية الحصد، والدرس لخروجه. فقد خرج من سكيكدة، في نهاية شهر جوان 1842، على رأس محلة تضم أكثر من ألفي جندي وقصد بها أعراش غرب الطريق الرابط بين سمندو وسكيكدة، فبدأ بحرق القرى والمزروعات وقتل الحيوانات أو جمعها، وقتل الرجال القادرين على حمل السلاح، وبدأ بالأعراش القريبة من سكيكدة مثل الزرامنة والتعابنة، وبنى إسحاق القبلية، وأولاد الحاج وبنى صالح وبنى ولبان وغيرهم، وقد جمع حوالي 500 من الخيول والبغال وعشرة آلاف، رأس من البقر، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الماشية، وقد تجنب سي زغدود الاشتباك مع هذه المحلة لأنها تفوقه عدة، لهذا انسحب إلى الأعراش الواقعة شرق الطريق وبقي يتنقل بين زردازة، وأولاد عطية الشرقية.

أما القوات الفرنسية فقد عادت إلى مدينة سكيكدة دون أن تلتقي بمجاهدي سي زغدود ولكنها علمت بتنقلاته غرب عزابة وفي عرش زردازة الكبير، لهذا جهزت يوم 15 جويلية محلة بقيادة الجنرال لوفاسور، واتجهت نحو زردازة فأحرقت كل المزروعات والقرى التي وجدتها في طريقها، ابتداء من غرب عزابة وانتهاء بالحدرات المطلة على الحروش من الناحتين الشرقية والجنوبية. وقد تفادى مجاهدو سي زغدود التعرض لهذه القوات، وعدم ظهورها أثناء الحملتين الأولى والثانية جعلت قوات الاحتلال تعتقد بأن قمعها الوحشي للسكان وتطبيق سياسة الأرض المحروقة قد أتت ثمارها، كما أن اختفاء نشاطات سي زغدود الثورية طلية الشهور الثلاثة: أوت، سبتمبر، أكتوبر، قد دعمت هذا الاعتقاد. والحقيقة أن هذه الهدنة غير المعلنة كان الهدف منها إعطاء

الفرصة للفلاحين للحصد والدرس والتخزين لما تبقى من المزروعات التي كانت بعيدة عن أعين الفرنسيين.

وابتداء من شهر نوفمبر 1842 استأنف سي زغدود أعماله الثورية بحرق الغابات القريبة من مركز سكيكدة، وبنصب الكمائن ليلا ونهارا وأصبح التنقل بين قسنطينة وسكيكدة من المستحيلات وقد كبد الفرنسيين هذه الأعمال خسائر فادحة، وأفسد عليهم التنظيمات التي نظموا بها الأعراش القريبة من سكيكدة مثل بني مهنة السلفية إذ وضعوهم في الخط الأمامي لكن أغلب العشائر انقلبت ضدهم، وعم العصيان من جديد كل المنطقة، لقد أصبحت حملات الجنرال لافاسور في ربيع وصيف 1842 غير فعالة، ومن ثمّ قرروا في أعلى مستوى القضاء على ثورة سي زغدود بأي ثمن كان.

نهاية ثورة سي زغدود:

وفي الأخير قرر القائد الأعلى لقوات الاحتلال لعمالة قسنطينة الجنرال براقي ديلي (Baraquay Dhilieh) القضاء على ثورة السلطان زغدود فخطط لخروج أربع محلات كبرى في وقت واحد تضم أكثر من عشرة آلاف جندي فرنسي وأكثر من ألفين من القوميه الجزائريين من قسنطينة وسكيكدة وعنابة وقالمة وتلتقي كلها في مربع فليفلة القل شمالا وعزابة تاما لوست جنوبا. فخرجت القافلات يوم 13 أفريل 1843 في وقت واحد، وأكبر القافلات الأربع هي التي يقودها القائد الأعلى الجنرال براقي ديلي. فخرجت من قسنطينة في الوقت المحدد، وكانت تضم حوالي خمسة ألف جندي من مختلف الأسلحة وحوالي ألف قومي يقودهم الخليفة بن با أحمد وفي راس الحامة انقسمت القافلة إلى قافلتين واحدة اتجهت شمالا غرب الطريق الرابط بين قسنطينة وسكيكدة

مخترقة أعراش عرب الحامة وبني حمدان والعلمة معسلة وبني لبان وغيرهم والثانية اتجهت شرق الطريق السالف الذكر قسنطينة سكيكدة مخترقـــة أعـــراش أولاد دراج وأولاد جبار وأولاد عطية الشرقية وزردارة وغيرهم. كما خرجـــت في الوقت نفسه محلة من سكيكدة بقيادة الكولونيل بارتليمي (Barthélemy) تضُم حوالي ثلاثة ألف جندي وأكثر من مائة قومي تحت إشراف القائد بوروبي، وفي الوقت نفسه خرجت محلة من مدينة عنابة بقيادة الكولونيل سنيت تضم حوالي ألفين جندي مخترقة أعراش جبل إيدوغ كما خرجت محلة أخرى من قالمة بقيادة الكابتان تورفيل (Tourville) مخترقة سلسلة جبال طاية متجهـــة نحـــو منطقـــة سكيكدة. وحسب الاستنتاجات التي توصلت إليها فإن هذه المحلات الأربـــع تحركت بناء على معلومات مؤكدة بتمركز سي زغدود ومجاهديه الملازمين له في مربع القرفليفلة شمالا مجاز الدشيش عزابة جنوبا لأن المصادر الفرنسية الـــتي استطعت الاطلاع عليها لم تحدد المنطقة بالضبط التي عثر فيهـــا علـــى ســـي زغدود. فمن خلال اتجاه هذه المحلات استخلصت المنطقة التي كان بها ســـي زغدود لأن قائد سكيكدة بدأ الاتجاه نحو الغرب وعندما تأكد من عدم خروج سي زغدود من المنطقة المحدودة غَيّر الاتجاه نحو الشرق ابتداء من تامالويست، مما يعني أن سي زغدود صار محاصرا من جميع الجهات. وبعد عشرين يوما من الحصار والقمع والقتل والحرق وإتلاف الأرزاق ومصادرة الحيوانـــات، الـــتي شملت كل المنطقة الممتدة من القل إلى عنابة شمالا ومن قســـنطينة إلى قالمـــة جنوبا، خرج يوم 3 مارس 1843 ، الكاتب الخاص لسي زغدود ليخبر قائـــد منطقة سكيكدة بمخبأ رئيسه السلطان سي زغدود. وفي الحين بعث معه فرقـــة عسكرية من الرماة بقيادة الكابتان مونتكناك (Montagnac) ومجموعة من القومية

تحت إشراف القائد بوروبي واتجه الجميع نحو مخبأ السلطان سي زغدود فخرج هاربا عند ما شاهد الطابور العسكري متوجها نحوه، وكاد أن يفلت منهم لكن الرماة أطلقوا عليه النار فقتلوه وأخذوا جثته وعرضوها في سكيكدة وقسنطينة والحروش. وقد احتفل جيش الاحتلال والمعمرون بهذا الانتصار، وظنوا أن المنطقة خضعت لهم وأن ثرواتها الغابية وأراضيها الخصبة أصبحت في متناول المعمرين.

لم يعطنا شارل فيرو صاحب كتاب تاريخ مدينة سكيكدة ولابليس صاحب الحوليات عدد الضحايا من الجزائريين ولا حجم الأرزاق التي أتلفتها هذا الحملات العسكرية الضخمة بل اكتفوا بذكر ما خسروه في كل هجوم أو كمين قام به المجاهد والسلطان سي زغدود، وقد جمعتها لأن المصادر السالفة الذكر ذكرتها متفرقة، فكانت الخسائر أكثر من ستة مائة مابين قتيل وجريح من الفرنسيين منذ بداية الثورة إلى نهايتها، أما النتائج العامة لنهاية ثورة السلطان سي زغدود التي ركزت عليها المصادر الفرنسية السالفة الذكر فهي عودة الهدوء إلى جميع أعراش المنطقة وخضوعهم التام لجيش الاحتلال الذي قام بتعيين قياد وشيوخ جدد على الأعراش، هذا الهدوء لم يدم طويلا لأنه ظهر من جديد في المنطقة ثوار آخرون و لم يخيم الهدوء التام إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

الهوامش

1-جبل إيدوغ: جبل يشرف على مدينة عنابة من الناحية الغربية، وقد شيد الفرنسيون على قمته قرية سياحية كانت تسمى بيجو وبعد الاستقلال أطلق عليها اسم الشهيد سرابدي.

2- شارل فير من الضباط المترجمين في القيادة العسكرية لعمالة قسنطينة ما بين سنتين 1842-1860 وله اهتمامات كثيرة بالتاريخ الفرنسي بالجزائر واختص في تاريخ المدن وله كتب عديدة في هذا الميدان ومنها تواريخ مدن سكيكدة بجاية جيجل قسنطينة وبسكرة وغيرهم.

3- انعدام المصادرة لقد أطلعت أخيرا أثناء مطالعتي لمجلة المصادر في عددها الصادر في شهر مارس 2002 على إشاره هامشية لهذه الثورة في بحث للدكتور عميرواي أحميدة من جامعة قسنطينة تحت عنوان السياسة الإدارية الفرنسية في الشرق الجزائري من خلال مشروع لويس بلانكي وقد وردت تلك الإشارة هكذا: لمعرفة شيئ عن ثورة سي زغدود في شمال قسنطينة يراجع ما في كتابنا محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ومع الأسف لم تسمح الظروف للاطلاع على هذا الكتاب.

4- معاهدة التافنة: وادي معروف غرب مدينة وهران ينبع فرعه الأكبر من جنوب شرق المغرب، ويصب في البحر قرب مدينة بني صاف من الناحية الغربية، وقد سميت تلك المعاهدة باسمه لأنها عقدت على ضفافه يوم 30 ماي 1837 بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو وتحتوي على 15 مادة وهي المعاهدة الوحيدة المعترف بها رسميا من الحكومة الفرنسية.

5- تيير: رئيس وزراء لفرنسا مابين سنتي 1838-1840.

6- سولت: مارشال فرنسي عمل رئيس وزراء ما بين سنتي 1840-1842.

7- بيجو: ارتقى الى رتبة جنرال بعد انتصاره على الأمير عبد القادر في معركة وادي المساكاك سنة 1837 وقد رجع بعدها إلى فرنسا بعد عقده لمعاهدة التافنة السالفة الذكر.

وفي سنة 1841 أعيد إلى الجزائر كحاكم عام خلفا للجنرال فالي وقد استمر في المنصب إلى سنة 1847.

8- تاقدمت: قلعة قديمة تبعد بنحو تسعة كيلومترات عن مدينة تيارت غربا، ويقال إنه أسسها الإمام عبد الرحمن بن رستم سنة 144هـ. اتخذها الأمير عبد القادر مركزا للذخائر وصناعة السلاح وضرب بها سكته وقد خربها الجنرال بيجو

9- أحمد باي: آخر بايات مدينة قسنطينة إذ كان حاكمها ما بين سنتين 1826-1937.

10- للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: مذكرات أحمد باي، ترجمة وتحقيق الأستاذ محمد العربي طبع ونشر الشركة الوطنية للطبع والتوزيع الجزائر سنة 1973.

11- عائلة بن قانة مشهورة أيام العهد العثماني في نواحي بسكرة وكان عميدها في بداية الاحتلال الفرنسي مشهور بوعزيز بن قانة.

12- لوي فليب: ملك فرنسا مابين 1830-1848

13-الصبايحية: فرقة عسكرية من الجزائريين بقيادة ضباط فرنسيين وكلمة الصبايحية تعود إلى العهد العثماني وهي فرقة فرسان الكراغلة التي كان يقودها باش شاوش الذي يشبه قائد الأركان وقد حرفت في العهد الفرنسي إلى كلمة سبايس

14-أعراش وشاوي الخ: هي الأعراش التي تقع في المنطقة الساحليةغرب مدينة عنابة في المربع الممتدد ما بين سرايدي واشطايبي شمالا وبني برحال وبن عزوز جنوبا.

15- عرش بني محمد: يقع على شاطئ البحر في المنطقة الممتدة من شطايبي شرقا إلى رأس الحديد غربا ويمتد جنوبا إلى قرب بلدية بن عزوز.

16- اعراش الزرامنة الخ، تقع كلها في مثلث سكيكدة مصب الوادي الكبير شرق مدينة جيجل وديدوش مراد.

17- أولاد جابر الخ: تقع في المثلث قالمة عزابة الحروش .

18- سوق الثلاثاء: لعلّ هذه السوق هي ما يعرف اليوم بالزيتونة التي تقع جنوب غرب القل وتبعد عنها بحوالي عشرة كيلو مترات.

التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري و ردود فعل سكان الهوقار 1916

أ. أحمد مريوش

جامعة الجزائر

تعد المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية بصفة عامة و منطقة الهوقار بصفة خاصة إحدى الحلقات المضيئة في تاريخ الجزائر المعاصر،و لو أنها ما تزال بعد في أمس الحاجة إلى الدراسة و الإثراء ، وذلك لما يكتنفها من التشويه أحيانا ومن الغموض و اللبس حول دوافع و أهداف المقاومة الشعبية أحيانا أخرى ، ومن ثم فقد حان الأوان أكثر من أي وقت مضى لتسليط الضوء على المنطقة الصحراوية و الكشف عن بنيتها الاجتماعية والفكرية و الدينية و التي تجسدت في المقاومة الشعبية، وكذا الكشف عن مزايا سكان المنطقة ،واستخلاص بعض الميزات لما عرفت به شعوب الصحراء الجزائرية من مسيرة الاستماتة والوقوف في وجه المحتل الفرنسي .

وبرغم بعض الدراسات المستفيضة التي تناولت موضوع التوسع الفرنسي في الجنوب وردود الفعل الجزائرية ،كالتي قام بها الدكتور يحيى بوعزيز، و سعد الله، وإسماعيل العربي، و غيرهم ، إلا أن ذلك غير كاف من الوجهة التاريخية مقارنة بثقل التضحيات التي قدمها سكان الصحراء لتصديهم ومحاربتهم للتوسع الاستيطاني الفرنسي في الجنوب.

ولعل الدارس للمقاومة الشعبية في الجزائر لا يمكنه أن يبعد عنها الطابع الإقليمي، ولو أن ذلك لم تغير من بعدها الوطني ،و تقاربها من بعضها البعض في العديد من المرات، ولذلك فإن أحداث المقاومة الشعبية التي عايشتها منطقة الهقار مرتبطة أساسا بالأحداث التي وقعت بثلاث مناطق أساسية، هي منطقة الأيير بالنيجر ،ومنطقة أزفو بجانيت، ومنطقة فزان، وغات بالصحراء الليبية، هذا فضلا عن أحداث منطقة تيدكالت بعين صالح . وللوقوف مليا عند دراسة هذا الموضوع فإننا سوف نعالجه من خلال دراستنا للمحاور التالية :

أولا:دوافع وأسباب اهتمام الفرنسيين بالجنوب الجزائري .

ثانيا:مراحل التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية .

ثالثا :حملة كوتنيس واحتلال منطقة الهوقار .

رابعا:استقدام الأب دوفوكو واستقراره بالهوقار .

خامسا: ثورة الهقار 1916 ونتائجها .

أولا:أسباب اهتمام الفرنسيين بالجنوب الجزائري :

إ ن الدارس للعلاقات الدولية في أوروبا القرن الثامن عشر، يجد أن هناك قوى أساسية تريد الهيمنة وأن تسطر خريطة سياسية جديدة لتأمين مصالحها المستقبلية في المنطقة، و من جملة هذه العوامل نذكر ما يلي :

1-الجانب الإستراتيجي : لقد احتدم الصراع بين القوى العظمى لوضع خطط مستقبلها ومن بين الأطراف الفاعلة نجد بريطانيا وفرنسا ،هذه الأخيرة التي ظلت المنافس العنيد لنشاط الإنجليز وتوسعه الاستعماري خارج أوروبا و البحث عن المجال الحيوي لها وبالخصوص في قارتي إفريقيا و أسيا،كل ذلك جر بالفرنسيين هم أيضا إلى أسلوب الاستكشاف و المغامرة و البحث و النشاط ،لخدمة منظومتهم الاستعمارية ،وقد تجسد ذلك خصوصا بعد عملية إنجاح احتلال الجزائر ،وبالضبط بعد إنهاء مدة التريث و صدور المرسوم الملكي سنة 1834 الذي جعل من الجزائر قطعة فرنسية [1] بعد مجيء اللجنة الأفريقية إلى الجزائر وقناعة البرلمان الفرنسي بسياسة التوسع و الاستيطان .

و إذا كان الاستعمار الفرنسي قد اهتم بأقاليم الشمال و بسط نفوذه على المناطق الساحلية و توسع بناحية المناطق التلية برغم المقاومة الشعبية في منطقة الوسط و بلاد القبائل بزعامة لالا فاطمة نسو مر والغرب بزعامة الأمير عبد

القادر و الشرق بزعامة الحاج أحمد باي .[2] فإن ذلك لم يشف غليله من غريزة الهيمنة و التوسع .

و ظلت منطقة الصحراء خلال العهود الأولى من القرن التاسع عشر صعبة المنال بالنسبة للفرنسيين، و لكنها من اهتماماتهم ،وتجلى ذلك في سياسة نابليون الثالث إمبراطور فرنسا ،هذا الأخير الذي طلب من دوفـيري" Duveyrier" الذي كان متواجدا بمنطقة غدامس [3] أن يزوده بمعلومات كافية حول إقلـيم الصحراء باعتباره من المهتمين بالمنطقة و هو بصدد تأليف كتاب عن المنطقة في عهد الرومان .[4]

و الظاهر أن الانشغالات الفرنسية بالصحراء الجزائرية لم تكن وليدة مرحلة البعثات الاستكشافية ،بل كانت سابقة لها ،و تمثل ذلك في المحاولات الفرنسية الأولى بغرض استمالة أعيان الصحراء، و التعرف الجيد على البنية الاجتـماعية و الدينية و النفسية للصحراويين ،ففي سنة 1855 وجه الحاكم العام بـالجزائر دعوة لأحد الأعيان و المدعو الشيخ عثمان الذي كانت له صلة بالعديد مـن القبائل الترقية، و كانت الدعوة و الوساطة عن طريق قائد منطقة ورقلة سـي حمزة الذي زار الولاية العامة برفقة المترجم العسكري إسماعيل بوضربة .[5]

ولذلك لا غرابة أن نجد فيما بعد الشيخ عثمان يصبح هو دليل البعثـات الفرنسية في الصحراء ، بل مد يد العون و المساعدة إلى دوفـيري و خدمـه بالمعلومات عن حياة التوارق، و من ثم فقد استدعته السلطة الفرنسـية سـنة 1862 لزيارة باريس و النزول في ضيافة نابليون الثالث جزاء له عن الخدمة التي قدمها لها في الصحراء .[6]

و كانت الإدارة الفرنسية تسعى دوما لربط مراكز تواجدها في شمال إفريقيا بباقي مستعمراتها في إفريقيا جنوب الصحراء ،و أصبحت تبحث عن منـــاطق نفوذ في الأقاليم المتاخمة للحدود الجزائرية ،و بالخصوص بعد احتلالها لمناطق في غرب إفريقيا و حتى تأمن لنفسها في مناطق الأراضي الجزائرية أبرمت معاهدة مع بريطانيا في 5 أوت من سنة 1890 تضمن أن تكون أراضي الجنوب مناطق نفوذ فرنسية .(7)

و لتحقيق ذلك فقد أقدمت فرنسا على القيام بالعديـــد مـــن الـــرحلات الاستكشافية إلى المناطق الجنوبية منها رحـــلة فلاتَيرس" Flatters "سنة 1879 و كان هدفها ربط الجزائر منطقة النيجر عبر المسالك الصحراوية، و البحث عن السبل للتوسع في إفريقيا جنوب الصحراء .و قد أوضحت القيادات الفرنسية في الكثير من المرات عن الأهمية الاستراتيجية التي تكتسبها الصحراء الجزائريـــة في إنجاح مشروعها التوسعي، و لم تنج منطقة الصحراء من سياسة التجزئة الـــتي راهنت عليها فرنسا(8) ، و قد كشف عن ذلك الهدف فيما بعد الجنرال ديغول في مذكراته بقوله" :لقد كانت الجزائر تحتل في حياتنا القومية أهميـــة لا مجـــال للمقارنة بينها و بين بقية البلاد التي كانت تابعة لنا ، فقد سبق أن غزوناها بعد أحداث طويلة قائمة في عهد البرابرة ، و بفضل جهد عسكري ضخم بذل فيه كلا الخصمين كثيرا من الشجاعة تحمل كثيرا من الخسائر ، ثم تولينا بعد ذلك القضاء على عدة ثورات، و لذلك فقد غمرنا الفرح لأننا أصبحنا سادة أرض كلفتنا تضحيات كثيرة، و مع ذلك فقد تعزز موقعنا في إفريقيا و البحر المتوسط بفـــضل الجزائر، أقـــمنا فـــيها نقطة انـــطلاق لتســـللنا إلـــــــى تونـــس و المغرب و الصحراء .." (9)

و المتتبع لاهتمامات الفرنسيين بالصحراء يجدهم يزدادون انشغالا بها مع تطور الأحداث، برغم بسط نفوذهم على مناطق الشمال ،و اتضح ذلك في حاجة فرنسا الماسة لموقع الصحراء كنقطة إستراتيجية تفتح لها الآفاق على العالم الإفريقي و حتى الأوروبي. و قد أشار إلى ذلك ديغول في إحدى خطبه خلال زيارته للجزائر من يوم 8 ديسمبر من سنة 1958 بقوله : " إن الصحراء هي أرض المستقبل و شريط بين عالمين ، عالم البحر المتوسط و عالم إفريقيا ،و بين عالم المحيط الأطلسي و عالم النيل و البحر الأحمر " (10)

2- الجانب العلمي الاستكشافي و الاقتصادي :

قد يخطأ الكثير حينما يظن أن الظاهرة الاستعمارية هي احتلال عسكري صرف، بل هو عبارة عن مشروع متعدد الجوانب ومختلف الوسائل و محدد الأهداف ،و من ثم تعد مراحل الغزو و التوسع و الاستيطان بمثابة مراحل متأخرة من تطبيق المشروع الاستعماري ،لأن عمليات التجسس والكشوف و الاستطلاع و الدراسة كلها مراحل هامة في مجرى إنجاح عملية الاحتلال، و تحقيق رهانات النجاح.و من أمثلة ذلك الخطوات و الإجراءات التي أقدم عليها الجاسوس الفرنسي "بيتان" و حليفه قائد الحملة الفرنسية دوبورمون في التحضير لغزو الجزائر.

ولذلك فإن نزول جيش الغزاة في ميناء سيدي فرج في جوان 1830 لم يكن وليد الصدفة ، بل خططت له فرنسا عبر قرون عديدة ،و لم تكن العفوية و لا قضية المروحة هي سبب بلايا الجزائريين ،بل هناك صراع بين ضفتي المتوسط أملته الحرب العقائدية و البعد المستقبلي لكل طرف، وظهر ذلك في العلاقات الفرنسية العثمانية منذ عهد السلطان العثماني" سليمان القانوني"

و ملك فرنسا "فرنسوا الأول "، ولكن ثمار هذه العلاقات قد ربحتها فرنسا مع بداية القرن 19 بعدما أصبحت الدولة العثمانية على فراش الموت و ضعفت سلطة الخلافة الإسلامية، و لم تتمكن من نصرة الولايات التابعة لها و من بينها دار السلطان بالجزائر أيام الداي حسين [11] آخر دايات الحكم العثماني في الجزائر.

و إذا كانت فرنسا قد رصدت كل هذه الاهتمامات لمنطقة الشمال، و هي القريبة جغرافيا منها و المعروفة تاريخيا لديها ، فما بالك بمنطقة الجنوب البعيدة عنها في جوانبها المختلفة ،و لذلك فقد انصب انشغالها بالصحراء أكثر من اهتمامها بالشمال ،و قامت بالعديد من الدراسات الطبوغرافيا و المناخية و الاجتماعية للمناطق التي وصلها المستكشفون، و بالتالي حتى تتعرف على مسالك الصحراء و يسهل لها التوسع جنوبا و تعمل على تذليل الصعاب أمام المد التوسعي و فتح المعابر،و شق الطرقات ومد السكة الحديدية و فتح شهية الاستثمار في الزراعات الصحراوية و نحوها و التي تفتقر إليها فرنسا و الدول الأوروبية.

و كانت الرهانات الاقتصادية بادية على السياسة الفرنسية منذ الوهلة الأولى للاحتلال، و خصوصا بعد الهيمنة على المناطق التلية والمناطق المتاخمة للصحراء ،و يتضح ذلك في تقرير المارشال "سول" في وقت مبكر من عمر الاحتلال إلى الملك الفرنسي "لويس فيليب" و قد أوضح فيه أهداف التوسع جنوبا و التروح نحو المنطقة الصحراوية بقوله : "إن الصحراء الجزائرية أو بعبارة أخرى كل المناطق الواقعة جنوب التل الجزائري يجب أن تشكل نوعا ثالثا من المناطق الإدارية ، إذ لا يمكن توظيف الأوروبيين في هذه المناطق، و حتى الجيش

لا يدخلها إ لا بصعوبة متقاطعة إما لإقرار الأمن أو التهيئة للظروف التجارية التي ستفتح لنا طرقا هامة نحو إفريقيا السوداء .. " [12]

و لإنجاح المشروع الاقتصادي الفرنسي و استتراف موارد الصحراء، أسست الإدارة الفرنسية العديد من الجمعيات و الشركات الاحتكارية و البنوك التجارية، منها جمعية التجارة لإفريقيا الغربية و البنك التجاري الإفريقي و بنك إفريقيا الغربية و الشركة الصناعية التجارية الإفريقية ،كما أنشأت أيضا الشركة الفلاحية و الصناعية لصحراء الجزائر و التي هيمنت على حوالي 24000 نخلة .[13]

هكذا إذا كانت نظرة فرنسا للصحراء الجزائرية نظرة مخزون اقتصادي و أمني و إستراتيجي يؤمن مستقبلها في القارة السمراء ، و لإنجاح ذلك المسعى اهتمت فرنسا بمشروع مد السكة الحديدية بين أقاليم الشمال و الجنوب و من ذلك ما قام به كاباني "Kapany" الذي اقترح سنة 1853 مد خط حديدي يربط الجزائر العاصمة ببوسعادة ويمر على رقلة و عين صالح حتى يصل إلى مدينة تامنراست، وتتفرع عنه خطوط ثانوية تربط مدينة طرابلس وتمتد حتى مدينة تونس .

و بعدها بسنوات قليلة و في سنة 1858 قام المهندس الفرنسي أد ولف دوبونشيل" Adolf Doponchil"بدراسة للسكة الحديدية العابرة للصحراء بهدف ربط المستعمرات الفرنسية و نقل القوات بين الشمال و الجنوب ، و هو نفس الاهتمام الذي أبداه الضابط بربو "Barbo "الذي أكد على أهمية مد خط حديدي يربط الجزائر بدولة السنغال و بلاد السودان .[14]

و الواقع أن محاولة الاحتفاظ بالصحراء الجزائرية فرنسية تجلت أكثر غداة الحرب العالمية الثانية ،خصوصا بعد بروز التيار الوطني الجزائري بالمنطقة ، ووضع مخططو الاستعمار الفرنسي برنامجا لإقامة قواعد عسكرية و اقتصادية في إفريقيا ،تحمي ظهر أوروبا الغربية من ناحية الجنوب ،كما تمثل في الوقت نفسه مكانا مضمونا تعتمد عليه أروبا لتهريب نفاياتها ،و نقل بعض صناعاتها الحربية و تطويرها، و جعلها قاعدة لصد أي هجوم مرتقب ضدها من المعسكر الشيوعي. وكل ذلك دفع بالإدارة الفرنسية إلى تأسيس المكتب الإفريقي للدراسات و الأشغال الصناعية العسكرية،الذي وضع مركزا هاما له أطلق عليه اسم مناطق التنظيم الصناعي الإفريقي، و شمل المناطق التالية :منطقة كولمب بشار ومنطقة الكويف و جبل العنق بمنطقة تبسة ودولة مدغشقر وغينيا. [15]

3- استئصال المقاومة الشعبية و متابعة رجالاتها .

لقد عانى الاستعمار الفرنسي من ويلات المقاومة الشعبية في المناطق الشمالية و لم يتمكن من إخماد نيرانها إلا بصعوبة ،و كان يخشى أية حركة شعبية و خصوصا بعد نزوح العديد من قيادات الانتفاضات باتجاه مناطق الجنوب و المناطق المتاخمة للصحراء و البحث عن دعم آخر لتنظيم حركة الرفض.مثلما تجلى في مساندة الزوايا و رجال الطرق الدينية لحركة الجهاد المضادة للمد العسكري و التبشيري .[16]

و لعل من بين أهم هذه الثورات الشعبية التي قاومت سياسة التوسع الاستعمارية ثورة الزعاطشة سنة 1849 جنوب غرب مدينة بسكرة بزعامة الشيخ بوزيان وهو من المنتسبين واتباع الطريقة الرحمانية .[17] ويبدو أن دوافع هذه الانتفاضة تعود أساسا إلى رفع فرنسا قيمة الضرائب على بساتين النخيل

وقد استقبل بوزيان هذا الإجراء باستياء شديد و أخذ يشن عليه الدعاية الدينية و الوطنية ويحث سكان الواحة على العصيان ضد فرنسا ،وقد نجح في ذلك وانتفضت واحة الزعاطشة في 16جويلية 1849 وتوسعت الانتفاضة إلى مناطق عديدة منها الحضنة و الزيبان وحتى أطراف مترامية من الصحراء .

وقد استطاع بوزيان أن يضفي على الثورة الطابع الديني وأخذ بيده زمام الأمور.[18] بل استطاع أن يجند حوله العديد من رجال الدين بما فيهم المرابطون و المجاهدون من العديد من المناطق كمنطقة خنقة سيدي ناجي وأولاد جلال ومسعد ،ولعل من أشهر هؤلاء الثائرين الذين ناصروه نذكر منهم على سبيل المثال لا على سبيل الحسر عبد الحفيظ الحنفي من سيدي ناجي و الصادق بن الحاج من الأوراس ،و المختار الجيلالي من أولاد جلال ،ومحمد شبيرة و غيرهم من المجاهدين .[19]

و بالرغم أن الاستعمار الفرنسي قد تمكن من إطفاء لهيب المقاومة، وقتل زعيمها بوزيان مع ابنه برفقة الحاج موسى الدرقاوي بعد أن ذبحهم وعلق رؤوسهم أمام العامة لبث الذعر في نفوس الجزائريين، إلا أن الثورة استمرت عدة شهور أخرى .[20] وكادت أن تضعف من معنويات الفرنسيين لو لا قوة عددهم .

وخلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر شهدت مناطق صحراوية عديدة ميلاد انتفاضات شعبية ، كالتي عرفتها منطقة ورقلة سنة 1851 بزعامة محمد عبد الله شريف ورقلة الذي تأثر إلى حد كبير بمبادئ وأفكار الشيخ محمد بن علي السنوسي الذي التقى معه في موسم الحج ،بل وأخذ عليه الشيء الكثير ورافقه خلال رحلة رجوع إلى طرابلس بليبيا ،و منها دخل الجزائر وطاب له

المقام في بلدته ورقلة، وأصبح من أعيانها بعد تزكيته من طرف شيخ الطريقة الشاذلية .[21]

ويذكر الدكتور سعد الله أن الشيخ محمد عبد الله كانت له سمعة دينية طيبة إذ استطاع أن يجلب إلى حركته الثورية الجهادية العديد من الطرق الصوفية أهمها الحركات السنوسية و الرحمانية وحتى الدرقاوية [22] وكون بذلك شبه ما يعرف بالحلف الوطني ضد الفرنسيين الطامعين في الصحراء .

وبرغم تمكن فرنسا من القبض على محمد بن عبد الله سنة 1861 وإبعاده إلى فرنسا فإن إطلاق سراحه جعله يشارك مجددا في ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1864 ، وثورة المقراني و الحداد سنة 1871، واستقر به المقام داخل التراب التونسي حتى توفي بها سنة 1895.[23]

أما مدينة الأغواط فقد عرفت هي بدورها انتفاضة هامة بزعامة ابن ناصر بن شهرة أحد فرسان الأمير عبد القادر، وقد طال عمر هذه المقاومة إلى أكثر من أربع وعشرين سنة أي ما بين (1851-1875)، وكان ابن شهرة بن مريدي الطريقة القادرية ،وقد عارض تكوينه الديني التوسع الفرنسي في المنطقة ولذلك فقد اتصل بزعيم ثورة ورقلة السالف الذكر، واتفق معه على إعلان الجهاد ضد الفرنسيين الكفرة .

وقد وسع ابن شهرة من حركته الجهادية باتجاه الجنوب الغربي من تونس و عزز من اتصالاته بإخوانه في الجهاد أمثال بوطيبة بن عمران السوفي و محمد بوعلاق التونسي و كلهم من دعاة الجهاد ضد المحتلين الكفرة [24] كما متن بن شهرة علاقاته ووسع دائرة الجهادية و اتصل الشيخ محمد بن عزوز البرجي الجزائري مقدم الزاوية الرحمانية بالجريد التونسي .[25] و ذلك بهدف تأمين

حدوده الشرقية و بقاء مقاومته التي أثرت بالإيجاب مع المقاومات المعاصرة لها، و لذلك فقد دعم بن شهـــرة ثورة أولاد سيد الشيخ ســـنة 1869 و ثـــورة المقراني سنة 1871 ،كما استفادت ثورة بوعمامة سنة1881 هي الأخرى مـــن صدى ثورة بن شهرة التي ذاع صيتها في الصحراء .[26]

و خلال هذه الفترة المضطربة برزت قيادات أخرى رجع إليهـــا الفضـــل في استكمال المقاومة في الصحراء ،و من بين هذه الزعامات أحمد التـــومي بـــن إبراهيم المدعو بوشوشة و المنتمي إلى الطريقة السنوسية[27] وأعلن ثورته هـــو الآخر سنة 1869و قاوم الفرنسيين و أمد يد العون لابن شهرة و محمد بن عبد الله ،و بذلك اتسع نطاق العمليات الجهادية ،و خلال وقت قصير جدا أصـــبح بوشوشة زعيما مقاوما ، بل و حاكم الصحراء واتسعت دائرة مقاومته مـــن وسط الصحراء الجزائرية، من مـــدينة ورقلـــة إلى منـــطقة نفطة التونسية[28] و أصبح بوشوشة زعيما بدون منازع لتتوغل حركته إلى جنوب غرب مدينـــة عين صالح ،و تعد آخر محطة في مقاومته بعد أن تمكنت فرنسا من إلقاء القبض عليه سنة 1874و أعدم بعدها بسنة واحدة [29]

و برغم اتساع نطاق الانتفاضات الشعبية ،إلا أن الإدارة الاستعمارية كانت دوما بالمرصاد لها لما تملكه من العدة و العدد ،هذا فضلا علـــى تمكنـــها مـــن الحصول على العديد من المعطيات الكفيلة أمامها بفتح الطريق أمام جنـــدها في تخوم الصحراء و استمالة بعض المتواطئين من الجزائريين الذين زودوها بالسبل الكفيلة لمعرفة خبايا الصحراء و نوعية تضاريسها و مناخها و.طبيعة شـــعوبها وذلك ما سهل من مهمة الجيش الفرنسي الذي طوق المقاومة و قضى علـــى الحركات الجهادية في الأقاليم المختلفة من الصحراء .[30]

و مما سبق ذكره نجد أن دوافع التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية عديدة و مختلفة و مع مرور الزمن أضحت عملية ضم منطقة الصحراء للشمال ضرورية بالنسبة لفرنسا التي تأكدت مصالحها بها ،و قد أوضح ذلك وزير الحربية الفرنسي في رسالة له مؤرخة في فبراير من سنة 1901 بعث بها إلى أحد الضباط الفرنسيين بالجزائر يخبره فيها أنه حان الأوان لإفراغ الصحراء من سكانها، لتسهيل مهمة الاحتلال و الاستثمار.و قد أشار إلى ذلك بقوله: "إمكانية إقامة جماعة أوروبية في الصحراء ،و نعمل على إفراغ الواحات من أهلها، و لا نترك إلا زعماء الأهالي إلى غاية الانتهاء من إنجاز السكة الحديدية الشيء الذي يسمح لنا باحتلال المنطقة في ظروف أقل تكلفة للميزانية لحل المشكل التكتيكي و التمويني ." (31)

ثانيا / مراحل التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري :

بعدما استكملت القوات الفرنسية عملية إجهاض الانتفاضة الشعبية في شمال الصحراء ،جاء دور تنفيذ واستكمال مشاريعها الكبرى من أجل تسهيل عملية التوغل في قلب الصحراء واحتواء سكانها ،و تحقيق مشروع الجزائر فرنسية الذي طالما حلمت به حكومة باريس منذ 1834.

وقد سخرت لذلك لجنة حكومية على المستوى العالي ،وأرسلت على أثر توجيهاتها ثلاث بعثات استكشافية استعمارية لمعرفة قلب الصحراء ومن بين البعثات التي تم اعتمادها رسميا في ديسمبر 1879 البعثة التي كان على رأسها الضابط العسكري برتبة كولونيل و المدعو" فلاتيرس " وتضم عشرة أعضاء هم فلاترس " Flatters"عقيد المشاة و القائد الأعلى للأغواط وموسون "Mousson"نقيب أركان الحرب ،و برا نجر "pernger" مهندس الجسور

والطرقات وروش"roche"مهندس المناجم ،وبر نار" Bernard "النقيب في سلاح المدفعيــــة وغيــــا رد "guiard" الطبيــــب ولوشــــاتوليه"le chatelier" وبروسلار"Brosselard" ملازمي المشاة و كابايو " cabaillot " ورابودرن " Ra Bourdin" مسيري الجسور و الطرقات .(32) و قد خلصت هذه اللجنة إلى وضع مشروع يفتح منافذ جديدة للتوغل في قلب الصحراء، ويتمثل ذلــك في مد خط سكة حديد يربط بين قسنطينة و ورقلة ومنه إلى أقصى الجنوب أيــن تقيم قبائل الطوارق .وانطلقت البعثة من ورقلة بتاريخ 21ماي 1880نحومنطقة وادي ميزاب، ونزلت في بلدة العاطف ،واتخذت من وادي ميزاب دليل سيرها إلى أن وصلت إلى بني يزقن بغرداية التي قدمت لها الضيافة عن طريقة رئــيس الجماعة الحاج يوسف .(33)

و إذا كان أهالي غرداية قد تعايشوا مع الفرنسيين الذين أمضــوا معهــم معاهدة الحماية سنة 1853 ، فهذا لا يعني من جهة أخرى أنهم قبلوا بالاحتلال وقد عبر عن ذلك الشيخ إبراهيم أطفيش (1914/1818) وهو من أعمدة وادي ميزاب و صرح أمام القيادة الفرنــسية بقوله :الإسلام يسيطر و لا يسيطر عليه و ظلت هذه الكلمة مشهورة لدى بني يزقن ،كما عارض أطفيش سياسة فرنسا في المنطقة و اعتبر ذلك خرقا للاتفاقية المبرمة معها، و التي تنص علــى عــدم التدخل في شؤون ميزاب ،كما وجه أطــفيش سنة1888 رسالة إلى الحــاكم العام" تيرمان" أخبره فيها عن موقفه الرافض لسياسة الجنرال "بوازا" التعســفية تجاه الأهالي .كما طالب أيــضا بتــخفيض الضرائب المفروضة على السكان، و التوقف عن مصادرة أراضي الميزابيين غير المشروعة .(34)

والظاهر أن رحلة فلاترس غلب عليها الطابع الاستكشافي العلمي و السلمي دون أن تكشف عن أبعادها الحقيقية ،إذ تجول أفراد البعثة في العديد من أحياء غرداية ،وسجلوا المعلومات الكافية عن المدينة و نمطها العمراني و الاجتماعي و الديني ، وفي 20 ماي أخلوا المدينة باتجاه بلدة بريان التي مكثوا بها إلى 30 من نفس الشهر ،ثم توجهوا نحو مدينة الأغواط التي و صلوها يوم 3 جوان. وكان في استقبالهم القائد الأعلى بالمنطقة بولا"pelin " (35)

وبعد أن جمع فلاترس المعلومات الكافية حول خفايا الصحراء رجع إلى باريس لوضع الترتيبات الجديدة مع مصلحة الطريق الصحراوي التي زودته بما يحتاجه من الوسائل لمتابعة مهمته ،وفي سنة 1880اجتمعت البعثة في بسكرة لتقييم الرحلة، وكانت متكونة من ضابطين برتبة نقيب وآخرين برتبة ملازم ثان و طبيب ومهندسين ومندوبين عن وزارة الأشغال .(36)

وكان فلاترس على رأس هذه الوفادة ،والظاهر أن هذه البعثة لم تأمن على نفسها من خطر الجزائريين، ولذلك فقد شكلت من أهالي المنطقة عون من الذين لهم دراية كبيرة عن أحوال البلاد و العباد،و كانت الفرقة لحراسة البعثة، بعد أن اختارت معظم أفرادها من قبيلة الشعانبة الذين كانت علاقاتهم سيئة، و أحيانا متوترة مع جماعة الطوارق الذين عرفوا بالإقدام و الشجاعة إذ وصفهم الرحالة العربي بن حوقل بقوله :« فيهم البسالة و الجرأة و الفروسية على الإبل و الجري و الشدة "إلى أن يقول" بأن فيهم من الجد و القوة ما ليس لغيرهم..."وبعد أن استكملت البعثة شروطها الأمنية ،اتجهت جنوب مدينة يتماسنين أين توجد زاوية سيدي موسى .ويقال أن فلاتيرس وجماعته حاولت الاتصال بادئ ذي بدء القائد الطوارق و المدعو أمنوكال أهيتاغل آق محمد

بسكة (أمين العقال) غير أن محاولة البعثة باءت بالفشل، ورجعت الحملة من حيث أتت أي إلى ورقلة بخيبة أمل ،و لم تحقق ما كانت ترجوه في شوطها الأول .

ويقال إن السياسة الفرنسية كانت مهتمة بالتوغل في أطراف الهقار برغم الفشل الذي منيت به البعثة الأولى ، فقد جدد فلاتير الرحلة و قام بمحاولة ثانية في ديسمبر 1880،و غادر ورقلة برفقة إحدى عشر فرنسيا و تسعة و أربعين جنديا من الأهالي و اثنين وثلاثين سائق بعير، و ثمانية من رجال الشعانبة وأربعة توارق.(37)

ووصل فلاتيرس و جماعته إلى منطقة أمقيد في 12جانفي 1881.(38) وبعدما تابع فلاتيرس رحلته إلى أن وصل إلى منطقة تماسينت التي استقر بها بين 12و13فيفري وتعامل بها مع العديد من التوارق .

وإذا كانت فرنسا قد صممت على التوسع ،فإن قائد التوارق أمنوكال كان على يقين بتحركات فلاتيرس ، ونصب له كمينا بعدما عزز جواسيسه وأرسل جماعة من فرسانه لإظهار النية الحسنة للتعاون مع البعثة الفرنسية، وتقديم لها الإرشادات الوفية ، لكن خطة أمنوكال كانت في حقيقتها تندرج في المراهنة على إنجاح الكمين الذي نصبه لها قرب بئر الغرامة بتاريخ 18فيفري 1881 أين نصبت خيام البعثة، وفوجئ فلاتيرس وجماعته وأتباعه بهجوم فرسان التوارق المدججين بالأسلحة .

أما فلاتيرس فقد بادر بإطلاق النار على التوارق، واشتبك الجمعان في معركة وطيسة بواد أنها ون قرب قرية تين تما رابين وأسفرت نهايتها عن مقتل 36 مسلحا من رجال البعثة بما فيهم قائدها برتبة عقيد (39) وفر من تبقى من

البعثة قاصدا ورقلة ،وكل ذلك عمق من فشل القادة الفرنسيين ولازمتهم خيبة الأمل طوال قربة العشرين عاما ، نتيجة حرب العصابات التي عرف بها سكان الصحراء .[40] وكانت هاجسا قويا في نفوس الفرنسيين خلال توغلهم باتجاه أعماق الصحراء .

و برغم ذلك فقد تابعت الإدارة الفرنسية اهتماماتها بالكشف عن الصحراء الجزائرية و حاول الملازم "مرسال بـــلات" Marcel Palat اكتشـــاف قصـــور تديكالت، لكنه قتل سنة 1886 بالقرب من عين صالح ،و خلال هذه الفتـــرة ازداد الاهتمام بالتعرف على مجرى نهر النيجر خصوصا بعد رحلـــة النقيـــب مونتاي "Manteil سنة 1890 من سان لويسي غربا إلى طرابلس شرقا ،إضـــافة إلى البعثتين الفرنسيتين المكونتين من توتيه Tuteé و هورست Heurst هذا إضافة إلى اكتشاف بحيرة تشاد من قبل بعثة فور لامي فـــورو Foureau ولامـــي Lamisالتي انطلقت من ورقلة في أكتوبر 1898 لتقطع حوالي ألفين كيلومتر إلى تشاد.[41]

وهكذا وضع الفرنسيون صوب أعينهم احتلال الصحراء الجزائرية ففي 28 نوفمبر 1899 انطلقت بعثة فلامون "Flamand " من ورقلة صوب عين صـــالح بتوجيه من وزارة المعارف و المستعمرات، التي نسقت جهودها مع الحاكم العام في الجزائر إدوارد جوليان لافريـــار1898–1900" Edouard Julien la ferrière " بعد أن وفرت الإمكانيات المادية و المعنوية للبعثة ،و تمثل ذلك في مجهـــودات قائد المكتب العربي بور قلة بان "Pein" ومقدم الطريقـــة القادريـــة و الفرقـــة الصبايحية الصحراوية [42]

وكان العديد من رواد البعثات العلمية الاستكشافية الفرنسية يستعملون نفوذهم المادي والمعنوي و السياسي، و يستخدمون الجزائريين ليكونوا لهم أدلاء ومساعدين لتحقيق أغراضهم ،وقد اعترف دوفيرييه بالفضل الكبير للشيخ محمد العيد شيخ زاوية تماسين التجانية، و كذلك الشيخ عثمان الترقي ،كما اعترف أطارنو سنة 1824 بالفضل للشيخ محمد العروسي شيخ و مقدم زاوية قمار التيجانية في إنجاح مهمته في الهقار، وقال إنه لا يحتاج إلى برهان عن إخلاص الشيخ العروسي لفرنسا،وكان الشيخ العروسي قد استضاف الوفد الترقي المتوجه إلى الولاية العامة بالجزائر سنة1892 برئاسة عبد النبي حفيد الشيخ عثمان و مقدم التجانية في الازجر و قبيلة ايفوغاس .

كما أشاد موتيلاسنكي أيضا بدور الشيخ العروسي في تسهيل مهمته في وادي سوف والهقار و غدامس ما بين 1903-1905.[43]

وقد وصلت البعثة إلىضواحي عين صالح في ديسمبر ،و قد تفطن أهالي عين صالح لمكيدة البعثة،و استعدوا للمقاومة و في 28 من نفس الشهر هاجم الحاج المهدي باجودا البعثة على رأس قوة قدرت بحوالي 1300 مجاهد .[44]

وكانت المعركة غير متكافئة خاصة في العدة التي كانت لصالح الفرنسيين و استشهد باجودا و ضعف صف المجاهدين ،وتمكن النقيب "بان" المدعم بالفرقة الصبايحية بقيادة النقيب "جرمان" من إفشال مقاومة أهالي عين صالح .

و الظاهر أن سكان المنطقة لم يهضموا الهزيمة ،و جددوا المقاومة في منطقة الدغامشة يوم 5 جانفي 1900 ،لكن الحاكم العام لافريار أمر بإرسال

قوة جديدة من مدينة المنيعة بقيادة بومقرتان "Poumgarten " لتدعيم الجيش الفرنسي الذي وصل إلى القصر في 18جانفي من نفس السنة .

ثالثا / حملة الضابط كوتنيس و احتلال الهوقار :

مما لا شك فيه أن الإدارة الفرنسية قد وضعت في حسباها جميع الاحتمالات التي سوف تنجر عن توسعها في أقاليم الصحراء ،و ذلك بعدما تمكنت من السيطرة على مناطق عديدة ما بين 1900و 1903 مثل تيدكلت وقورارة وإقليم توات ،كما عينت الإدارة الاستعمارية الضابط" لابرين "على رأس القيادة العسكرية التي استحدثت لحكم الجنوب سنة1902،وهي فترة الحاكم العام في الجزائر المدعو "جونار" الذي عرف بسياسة الاسترخاء .(45) ومحاولة تذليل الصعاب أمام نفر من الجزائريين خصوصا بعد بروز ملامح النهضة الجزائرية الحديثة .

وقد جعل القائد لابرين من منطقة عين صالح قاعدة لقيادته العسكرية،بل لم يكتف بذلك واستقدم الأب الروحي دوفوكو الذي كان متواجدا في بني عباس حتى يعاونه في استمالة السكان، ونشر المسيحية بينهم وإخضاع قبائل التوارق ،في نفس السياق كلفت الإدارة العسكرية الضابط كوتنيس للقيام بحملة تصب في مسعى الهيمنة على ما تبقى من أراضي الجنوب الجزائري .

و حسب ما ذكرته المصادر التاريخية فإن حملة كوتنيس توجهت من منطقة أمقيد باتجاه إدلس شمال شرق منطقة الهوقار ،و استعمل فيها الجيش الفرنسي سياسة الأرض المحروقة التي طبقها الجنرال بيجو في منطقة الشمال بعد الاحتلال مباشرة ،و كان هدف القائد كوتنيس هو إبادة كل كائن حي

يتعرض لطريقه بالمنطقة ،و إدخال الرعب في نفسية سكان الواحات و القبائل الرحل و تهجيرهم إلى خارج الحدود الجزائرية.

وتمكن كوتنيس من التوغل داخل الصحراء و استطاع الاستيلاء على منطقة تازروك و منها توجه صوب منطقة تين تارابين ،و هناك اصطدم بالمقاومة الترقية التي كانت تقودها قبيلة آيت لوين ،لكن عمر المقاومة لم يدم طويلا و تمكن الجيش الفرنسي من دحر المقاومة الترقية للاختلاف في العدة و العدد بين الطرفين .و هكذا توسعت الآفاق أمام الجيش الفرنسي ووسع من نفوذه ووصل إلى منطقة واي تيت، و ذلك خلال سنة 1902 ،لكن الجيش الفرنسي وجد صعوبة أمامه مرة أخرى بعد أن تصدى له فرسان التوارق في موقعة قارة تين آسا. (46) و قد أبدى سكان الهوقار مقاومة باسلة و استطاعوا قتل قائد الحملة الفرنسي كوتنيس ،إلا أنهم لم يتمكنوا من الصمود أمام الغزاة و منوا هزيمة، و تمت السيطرة الفرنسية على إقليم الهوقار .

و الظاهر أن هزيمة التوارق تعود أساسا إلى ضعف في القيادة غير الموحدة لقبائل المنطقة ،كما أنها لم ترسم لنفسها خطا دفاعيا مرتقبا ، و بالخصوص بعد نهاية حكم القائد الأمنوكال أهيتاقل الذي وافته المنية سنة 1900 قبيل احتلال منطقة الهوقار. و كل ذلك سهل مهمة العيون الفرنسية التي اخترقت صف سكان الهوقار و استطاعت أن تستميل بعض الأعيان من المنطقة لتوظيفهم عند الحاجة ،و لعل ذلك ما فعلته مع خليفة الأمنوكال المدعو "موسى أق أمستان" الذي تولى قيادة التوارق، و الملاحظ أن القائد الجديد لم يصل في الحنكة السياسية لما وصلها سلفه، و من ثم ركن إلى أسلوب السلم و الهدنة و الحوار بدل فعل المقاومة ،و بعد أن اتفق مع الأعيان ،أمضى وثيقة الاستسلام مع

الفرنسيين سنة 1904 شريطة أن لا تتدخل فرنسا في القضايا الداخلية للتوارق و هي أشبه ما تكون بمعاهدة 5 جويلية 1830 التي أبرمت بين الداي حسين و قائد الحملة الفرنسية على الجزائر الكونت دوبورمون ،و كأن التاريخ يعيد نفسه دون أن يعتبر به الطرف الجزائري .

رابعا/ استقدام الأب دوفوكو و استقراره بالهوقار :

مما لا شك فيه أن مهمة الأب دوفوكوخلال تواجده في الجزائر هي استمرارية مشروع الكاردينال لا فيجري التبشيري الذي بدأه خلال منتصف القرن التاسع عشر بالجزائر،ولعل ما يوضح ذلك مضمون الرسالة الشهيرة التي بعث بها إلى رهبان الجزائر و التي يقول فيها : "إنني سميت لتحقيق الفتح معكم و لجعل الأرض الجزائرية مهدا لأمة عظيمة سخية مسيحية فرنسا أخرى ،و في كلمة واحدة : نشر من حولنا الأنوار الحقيقية يكون فيها الإنجيل المنبع و القانون ،و حمل هذه الأنوار إلى ما وراء الصحراء إلى قلب هذه القارة الكبرى السابحة في الوحشية ،ذلك هو المصير الذي اختاره لنا الإله .." (47)

و قد كان لتوقيع معاهدة الاستسلام أثرها الواضح على نشاط الفرنسيين و زادت من قناعة قائد المنطقة الصحراوية "لابرين " بضرورة الانتشار و التوسع في الإقليم ،وذلك ما دفعه سنة 1905 إلى توجيه الدعوة إلى زميله دوفوكو للاستقرار في الهوقار .و لعل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو :لماذا طلب لابرين من الآب دوفوكو ترك منطقة بني عباس و السفر إلى الهوقار؟و ما هو سر قبول دوفوكو للدعوة ؟

يبدو أن العلاقة المسبقة التي كانت تجمع بين الشخصين خلال مرحلتي الزمالة و التمدرس لم تكن هي الوحيدة وراء هذا التقارب ، بل هناك أمور

أخرى أهم من ذلك و تتمثل في خدمة كل منها للظاهرة الاستعمارية و تمكين فرنسا ما وراء البحار،و نشر المسيحية .و إذا كان لابرين يعرف فنون القتال فإن زميله دوفوكو هو الآخر من خريجي كلية سان سير العسكرية، و عالم أنثروبولوجي يعرف فنون اللإستيلاب و التمسيح و المسخ ،وله من المعلومات الدقيقة حول البنية الدينية و الاجتماعية و الثقافية لسكان الصحراء ،و هو يحمل في نفسه شعلة متأججة من الإيمان الروحاني و الدنيوي ،بل وصفه أحد الباحثين بأنه كان يجد اللذة في المتاعب و التضحية بالراحة و متع الحياة خصوصا إذا علمنا و أن حياة الرجل كلها أسفار و متاعب ومخاطر ، إذ بدأها برحلة إلى المغرب الأقصى سنة 1883 و 1884 و خلال هذه الفترة استطاع أن يجمع معلومات كافية جعلت من رحلته هذه دليلا قيما و مرجعية أساسية أفاد بها قواد الجيش الفرنسي بعد نصف قرن من عمليات التهدئة التي كانت تقوم بها فرنسا في منطقة جنوب المغرب الأقصى تمهيدا لفرض حمايتها على المنطقة [48]

كما قام دوفوكو برحلة إلى الصحراء الجزائرية تحت غطاء الاستكشاف و نزل في ضيافة العديد من سكان الواحات ،و تعرف على قرب ووقف عند أسرار و خبايا المنطقة الصحراوية من جوانبها الطبيعية و البشرية ،و تعرف على العادات و التقاليد و الميول و الأفكار،و ربط صلته بسكان منطقة الأغواط ثم منطقة غرداية ،و منها توجه إلى مدينة المنيعة ثم ورقلة و توقرت .[49] و هي المدن الهامة التي كانت محط أنظار التوسع الفرنسي وقتئذ .

و يقال أن دوفوكو ظل يهتدي بمعالم الاستكشاف التي وضعها سلفه" دوفيري" الذي كان على اتصال به فيما يبدو خلال تواجده ببني عباس التي طاب له العيش فيها ،و قد نشر بها دعوته التبشيرية و الاستعمارية إلى أن

أقنعه زميله "لابرين "بتركها و التنقل إلى منطقة الهوقار و الدعوة بها للمد الاستعماري و تمكينه ،و التوسع باتجاه صوب دول إفريقيا الوسطى و الاستوائية بل و حتى نحو الأراضي الليبية التي كان دوفوكو دوما يراهن عليها بانتظام،ويقف على سير الأحداث بنفسه على التخوم الجزائرية الليبية و ذاك ما بين 1915 و 1916 لكي يطلع عليها صديقه لابرين ،ففي خلال سنتين أرسل دوفوكو إلى صديقه حوالي 41 رسالة يخبره فيها بأحداث الصحراء .[50]

هكذا إذن نجد أن رحلة المتاعب التي عرف بها هذا الأب هي التي زكته إلى ريادة الزعامة الدينية وقتئذ ،هذه الزعامة تعد الحلقة المفقودة التي كان يبحث عنها الرجل ، ولكنها زعامة التنظير لا زعامة الهدير .إذ أنه منذ دخوله الهقار سنة 1905 بدأ في بناء كنيسة بمنطقة الإسكرم شمال تامنراست، وهي تقع على ارتفاع 2700م على مستوى سطح البحر وجعلها نواة لنشر مبادئه المسيحية .

والظاهر أن دوفوكو لم يجد الصعوبات القاسية التي كانت منتظرة في تعامله واندماجه مع الهقارين ،عكس ما اصطدم به القادة العسكريون .و لعل من بين العوامل التي سهلت مهلة هذا المبشر الخطير هو تكوينه العسكري الذي أهله للعمل في قضايا الاستخبارات العسكرية أولا ، ثم نشأته التبشيرية ثانيا .بعد معرفته للجوانب العديدة التي تخص الطبيعة الصحراوية، و بالخصوص دراسته اللهجات المحلية و معاشرته نمط عادات و تقاليد سكان الهقار عن قرب ، بل إنه قلدهم في لباسهم وأكلهم وحتى في سمرهم ، واستطاع أن ينجز قاموسا في أربعة مجلدات في اللهجات الترقية .[51]

كما أن دوفوكو استغل في عمله التبشيري التمركز بين فصائل القبائل الترقية، و كسب الأطفال وتحبيب في نفوسهم مبادئ المسيحية، واستغل في

ذلك سذاجتهم وبراءتهم ،وكان يقدم لهم بعض الهدايا و الحلوى ، ومن خلال هذه المرحلة كان يتوغل تدريجيا في الوسط الترقي، ويتقرب أكثر من الأعيان و الوجهاء ، وقد كتب دوفوكو حول طريقة عمله في التبشير إذ يقول :« كنت أحاول أثناء جولاتي دائما أن أقترب من المخيمات السكانية وإن أدخل في علاقة مع الأطفال الصغار ، وذلك بأن أقدم لهم السكر، لكنني لم أسجل نجاحا في هذا المسعى ،فقد كان مر آي عندهم أشبه شيء بمرآي الشيطان نفسه ،حيث كانوا يطلقون سيقانهم هاربين قبل أن يختفوا في الخيمة.قد يبدو من الغريب أن ألح على موقف أطفال صغار لا تتجاوز أعمارهم ما بين الخامسة و الثانية عشر، لكن يمكننا بواسطة الأطفال أن ندخل إلى نفوس الآباء و نهدئ من روعهم، إنها لفرصة لتقريب المترددين منا و فرصة للدخول في اتصال مع المتطرفين الذين يبغضوننا .."(52)

و مما لا شك فيه أن دوفوكو قد وجد صعوبة كبيرة في استقطاب التوارق إلى دائرته التبشيرية ،و لذلك نجده يعترف بذلك الفشل لكنه لم ييأس من عمله المضني، و قد أشار إلى ذلك بقوله : "إنه لمن الصعب على رئيس سياسي أو ضابط أن يخطو الخطوة الأولى نحو الأهالي الساخطين و الذين يلازمون موقف العزلة ،و لا يبدون سوى مظاهر اللياقة ،و على العكس من ذلك فإنه لمن المسلي و مما لا يحيط من قطرنا أو نحاول بث الثقة فينا في نفوس الأطفال و نوجه إليهم أسئلة و تقدم إليهم هدايا بسيطة ، ولما تتحطم الحواجز التي تفصل بيننا و بين الأهالي .." (53)

و كان دوفوكو يراهن في عمله على الناشئة ، بحيث أنه يجعل منها الذرع الواقي و الصامد و المدافع عن المصلحة الفرنسية ،و ذلك بعدما يلقنها الديانة

المسيحية و التربية وفق المنظومة الاستعمارية ،أي بمعنى يكوّن جيلا جديدا أقل ما يقال عنه أنه ميال لكل ما هو فرنسي ،كم أوضح دوفوكو ذلك بقوله : "الطفل هو المستقبل و القرية التي يحبو فيها الأطفال الضباط و يعتبروهم آباء يدللوهم ،تشعر بسعادة عندما يخيم الجيش في أرضها ، و بعد عشرة سنوات سيكبر أطفال القبيلة و ينمو معهم الولاء لأفكارنا .." (54) هكذا إذا اعتمد الآب دوفوكو على التنشئة الاجتماعية في إنجاح مشروعه التبشيري .

خامسا / ثورة الهوقار1916 و نتائجها :

خلال الحرب العالمية الأولى تمكن السنويون من طرد الإيطاليين من إقليم فزان الليبي المجاور للصحراء الجزائرية و بلاد تواجد التوارق ، و كان لهذا الانتصار نشوته لدى الهوقاريين الذين تعاونوا مع الحركة الجهادية السنوسية لمقاومة الاستعمار الفرنسي بالمنطقة، و بانتهاء سنة 1915 و بداية سنة 1916 اتسع نطاق الحركات التمردية في منطقة آزقر موطن التوارق الشماليين، و ذلك على غرار ما عرفته منطقة فزان و طرابلس بليبيا من حركات تحريرية مماثلة ،و قد آلت هذه النشاطات الرافضة للوجود الاستعماري إلى تكوين شبه تنظيم عسكري، أو محلة عسكرية دعا إليها الشيخ أحمد سلطان الجاني، و الشيخ عبد السلام الشرداق، و السي العابد السنوسي حفيد و خليفة شيخ الطريقة السنوسية بفزان ،و جعلت هذه الجماعة من إقليم الغات بالقرب من الحدود الجزائرية مقرا للتشاور و التحضير و مباغتة العدو .كما قامت هذه الجماعة بعملية التسليح ،و توزيع ما جمعته من الأسلحة الحديثة على أثر مطاردها للإيطاليين ، كما أنه لا يمكن أن نستثني هنا جل المعونات التي

قدمها الباب العالي للمجاهدين بإيعاز من السلطان العثماني وقتئـذ ،و ذلـك لخدمة الخلافة الإسلامية و محاربة الكفار في العالم الإسلامي مشرقه و مغربه .

و حسب ما تشير إليه التقارير السرية الفرنسية فإن الإدارة لم تكن غافلة عن النشاط الوحدوي الذي أراد به أصحابه خدمة الجامعة الإسلامية ،و قد اتضح ذلك الاهتمام الفرنسي بضرورة إحباط كل محاولة وحدوية من خـلال مـا تضمنته مراسلة الحاكم العام في الجزائر إلى مدير الشؤون الأهلية و المؤرخة في 25 أبريل 1921 و مما جاء في الرسالة قوله : "إن هناك علاقات وطيـدة بـين الوطنيين المسلمين الجزائريين و التونسيين ،و أن هناك حركة ميزابيـة بزعامـة محمد بن باكير مدير جريدة الصديق ،و كذلك مامي إسماعيل بن علاوة الذي تخرج من جامع الزيتونة و محرر في الجريدة ،و استطاعوا أن يكسبوا جمـاهير عديدة في العالم الإسلامي ،و خاصة مع السنوسي و سليمان الباروني بطرابلس و كذلك مع حركة الشباب التونسي ."(55)

و لعل من بين العوامل المساعدة أيضا على انتفاضة التوارق صـدور قانون التجنيد الإجباري سنة 1912 ،و الذي عمق من ردود الفعل الجزائريـة وقتئذ ،بل ظهرت هناك العديد من الانتفاضات المعارضة للقـانون ، كثـورة الأوراس سنة 1916 التي تركت بصماتها على الحياة النفسية للجزائريين .(56) وخرج صداها إلى خارج الأوراس بل وصل إلى منطقة الصحراء . و كل ذلك زاد من قناعة الهوقاريين في مواجهة الاستعمار.

و في 24 مارس من سنة 1916 باغت فرسانهم الحمية الفرنسية المرابطة في منطقة جانت والتي كان يقودها الضابط "لوران لابيير" هذا في الوقت الذي كان فيه توارق آزقر الشماليين يخوضون معارك ضد الفرنسيين ،و من ثم وصل

صدى المقاومة الترقية إلى جميع أنحاء منطقة الهوقار ،رغم الهدنة التي أبرمتها سلفا فرنسا مع الزعيم الترقي الجديد موسى آق أمستان [57] و ذلك بغرض ربح الوقت و التحضير الجيد لعملية التوسع و الاحتلال، و تذكر المصادر التاريخية أن السي العابد السنوسي كان دوما يحرض على عملية الجهاد ضد الفرنسيين، و لذلك فقد أوكل لضابطه "كاوسن " بتنظيم المقاومة و الإشراف عليها في إقليم الإيير جنوب الهوقار ،و كان غرضه توحيد أجنحة المقاومة الترقية بمنطقة الصحراء انطلاقا من ألآزقر إلى الإيير مرورا بالهوقار ،و لتحقيق هذا الهدف بعث القائد كاوسن بمراسلة إلى الزعيم الترقي موسى آق آمستان ،يطلب فيها منه الانضمام إلى المقاومة الشعبية، و بناء حلف دفاعي أمني و التخلي عن ولائه للفرنسيين و ترجيح المصلحة الوطنية على المصلحة الذاتية .[58]

و الظاهر أن موسى آق آمستان رفض طلب السنوسي ،وتمادى في ولائه للفرنسيين وكل ذلك دفع بالضابط كاوسن إلى البحث عن وسيلة لبث الشكوك لدى الفرنسيين اتجاه حليفهم أمستان ،وخطط لقتل الأب دوفوكو .[59] الزعيم الروحي وقتئذ، ولما كانت له من المكانة لدى الدولة الفرنسية لأنها كانت تعول عليه في بسط نفوذها في الهقار .

وقد أسند كاوسن مهمة الاغتيال إلى بعض من رجاله ممن يثق فيهم ، وكلف أباه كرزو لقيادة كوكبة من المجاهدين ، وتوجهوا صوب قلعة دوفوكو بتمنراست واستعانوا في خطتهم بصاحب بريده الذي سهل لهم المهمة ، بعد أن فتح لهم الباب ، ومكنهم من اغتياله في ديره في 1 ديسمبر 1916 بعيارات نارية و غنموا ما عنده من سلاح .

ومن دون شك ، فإن مقتل الأب دوفوكو قد ترك الأثر العميق في نفوس رجال السياسة الفرنسية ، واتضح ذلك جليا في نفسية القائد العسكري لابرين الذي أرسل تعليمة بتاريخ 16 أبريل 1917 إلى القيادة العسكرية بتمنراست، على إثر سماعه باغتيال زميله دوفوكو و مما جاء في تعليماته قوله :"أما بخصوص مقتل الأب دوفوكو فإن العقوبة يجب أن تمتد لا إلى الجماعة التي أقبلت إلى تمنراست فقط (يقصد الذين اغتالوا دوفوكو) و لكن إلى المنجرين و المتواطئين يجب الوصول دون مراعاة للزمن إلى وضع القائمة الكاملة للمسؤولين على هذه الجريمة و محو أسماء الذين سوف يقتلون الواحد تلو الآخر .[60]

و إذا كان اغتيال الأب دوفوكو قد أوقع الحسرة في نفوس الفرنسيين و بعض أذناهم من المتواطئين الجزائريين، فإن ذلك كان بردا و سلاما على الحركة الجهادية التي تزعمها سكان الهقار ،بل لقد ترك خبر الاغتيال العديد من العائلات و القبائل تخرج عن طاعة موسى أق أمستان، و لعل من بين هذه القبائل قبيلة أنابا و سوغى أق شيخات صهره ،و المودن ولد أكلسو،و أحمد ولد الشريف و غيرهم من الأسماء ذات الصيت وسط القبائل الترقية .

كما نجد أن هؤلاء الذين انسحبوا من حلف أمستان العميل مع فرنسا حاولوا من جهة أخرى عزله عن قيادة التوارق بالتعاون مع كاوس وشنوا هجوما عليه في حصنه بتغهو هاوت البعيدة عن العاصمة الهوقار بـ 50كلم جنوبا،و نتج عن ذلك وقوع مشادات عنيفة أهمها معركة إلمان بتاريخ 5 أبريل 1917، و قد أسفرت عن انتصار المجاهدين و قتل ما يربو عن 13 صبايحيا من بينهم فرنسيون،و كذلك معركة أنكر شمال مدينة تمنراست في 1 جوان 1917

أين باغت المجاهدون فيها محمية أو قافلة فرنسية و قتل من بينها 5 أشخاص و جرح البعض الآخر.(61)

و هكذا لم تتوقف ردود فعل سكان الهوقار من التواجد الفرنسي و استمرت على شكل حرب العصابات ضد القوافل التموين الفرنسية بالمنطقة إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ،و حينها أخذت المقاومة تضعف تدريجيا ، بعدما استطاعت فرنسا أن تضمن لنفسها في شمال الوطن مرحلة التهدئة و فتح المجال للعمل السياسي الذي أخذ به الجزائريون ،و بذلك ركزت أكثر من أي وقت مضى على طروحاتها العسكرية في الجنوب و خصوصا بعد القضاء على المعارضة الترقية.

ولعل من العوامل الأخرى التي كانت سببا في إفشال المقاومة الجهادية بالمنطقة توقف الدعم العثماني الألماني للعثمانيين خصوصا بعد بوادر أفق رسم الخريطة العالمية الجديدة التي أفرزها مؤتمر الصلح 1919 و تمكين فرنسا من جديد و تكسير شوكة الألمان و حلفائه من معالم الخريطة المسطرة .

كما أن للحركة السنوسية و ما أصابها من انشقاق بين مناصر العثمانيين و الألمان و مؤيد للإنجليز أثره في تعميق هوة الفراغ ،بل في إضعاف المقاومة في الصحراء و كل ذلك جعل من الضابط كاوسن يتراجع نحو الأراضي الليبية بعد انسحابه من منطقة الآيير و تفرق عنه أنصاره ووقع في قبضة الجناح المعارض من السنوسيين و أعدم في ليبيا سنة 1919.(62)

هذا و قد تركت ردود فعل سكان الهقار 1916 نتائج هامة يمكن إدراجها في النقاط التالية :

1/إضفاء الطابع الوطني على انتفاضة التوارق و تلاحم القبائل مع بعضها البعض لمقاومة التوسع الفرنسي الهادف لاستكمال احتلال الجزائر شمالا و جنوبا.
2/ تعميق التلاحم الوطني في إقليم الجنوب الكبير و التصدي لمشروع التقطيع الإقليمي الذي راهنت عليه الإدارة الاستعمارية.
3/ الرفض القاطع لسياسة الإلحاق الثقافي و الديني الذي راهن عليه دوفوكو بعد استقراره في تمنراست ، و قد لقي جزاءه بالاغتيال الشنيع.
4/ تعلق الجنوب الكبير بمبادئ الجامعة الإسلامية وتعاون الطوارق مع الحركة السنوسية التي رفضت الهيمنة الاستعمارية سواء في الأراضي الليبية أو الجزائرية .
5/ تثبيت التوارق للحدود الجزائرية عبر الجنوب الكبير وتمسكهم بأرضهم واستقرارهم بها ، وكل ذلك ساعد فيما بعد على ترسيم الحدود الإقليمية مع البلدان المجاورة .

وخلاصة القول فإن منطقة الهوقار برغم بعديها الجغرافي و الزمني عن مجريات الأحداث التي شهدها الشمال الجزائري منذ الاحتلال إلى بداية القرن العشرين فإن سكان المنطقة لم يكونوا بمعزل عن تلك الأحداث ، بل كانوا طرفا في العديد منها خاصة التي جرت في المناطق الصحراوية . وكل ذلك هيأ الهوقاريين بالتعاون مع حركة الجهاد الإسلامي الذي قادته الحركة السنوسية للإعلان عن ثورة 1916 ضد الفرنسيين .

كما أن منطقة الهوقار قد عاصرت بداية التحولات التي عرفتها الجزائر منذ بداية القرن ، ولو أن الهوقاريين قد خسروا المعركة ضد الغزاة لاختلاف القوى بين الطرفين لكنهم من جهة أخرى لم يخسروا الحرب ، وكشفوا عن تماسكهم عبر أقاليم الجنوب الكبير زمن المحن رغم بعض التخاذل الذي أبداه بعض

الوجهاء في تعاملهم مع الفرنسيين، وهناك ملاحظة أخرى تتضح في عمليـــة التأثير و التأثر للصحراويين تعدت الحدود الإقليمية للجزائر ، إلى الأقاليم الليبية وحتى إلى الصحراء الشمالية للنيجر ، رغم قساوة الظروف الطبيعية و ضـــعف إمكانيات التعاون مقارنة بما كان متوفر لدى الفرنسيين وقتئذ

و الظاهر أنه لـــو لا المستجدات الدولية التي أفرزتها الحرب العالمية الأولى و التي انعكست سلبا على إضعاف الدعم المادي و المعنوي للمقاومة في الهوقار وبالخصوص بعد إحباط عزيمة الألمان بعد معاهدة فرساي سنة 1919 وانكماش الخلافة العثمانية بعد معاهدة سيفر سنة 1920 ،كل ذلـــك أفشـــل القواســـم المشتركة للحركة الجهادية وكسر فلول المقاومة السنوسية بعد تعزيز الإمدادات العسكرية الفرنسية من وسط الصحراء و شمالها ،وبرغم ذلك كله ، فإن شعب الهوقار لم يركع للفرنسيين، كما كانوا يعتقدون في ذلك ، بل سجلت مقاومته صفحات مشرقة في سجل التاريخ الجزائري المعاصر .

الإحالات المعتمد عليها

(1)- أبو القاسم سعد الله ، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال ، ط 2 ، (الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1982) ص 35

(2) سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1900/1830 ، ج 1 ، ط 1 ، (دار الغرب الإسلامي 1992) ص 138.

(3) منطقة غدامس إحدى الواحات الصحراوية المتواجدة على الحدود الجزائرية الليبية لعبت دورا هاما في المجال الثقافي و التجاري خلال العصر الإسلامي و العصر الحديث .

(4) إسماعيل العربي ، تاريخ الرحلة و الاستكشاف في البر و البحر ،(المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986) ص311 .

(5) Henri Lhote, Le Hoggar espace et temps , Collection Civilisation, Paris 1984, P 92 .

(6) Henri , op , cit. , P 93

(7) إبراهيم مياسي ، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1912/1881 ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1996 ، ص 77 .

(8) اتضحت سياسة التجزئة و التقسيم في مشروع هرسان الذي اقترحته كتلة النواب في البرلمان الفرنسي يوم 1957/02/28 و الذي ينص على تأسيس مقاطعة فرنسية تحتوي على الجزائر العاصمة و وهران أما قسنطينة و تلمسان فلكل منهما الحكم الذاتي ، أما الصحراء فتكون إقليما مستقلا عن الشمال .و عملت الإدارة الفرنسية على تأسيس عمالتي الساورة و الواحات في الجنوب الجزائري بمرسوم 7 أوت 1957 كما أصدرت مرسوما وزاريا خاصا بالصحراء بتاريخ 30 نوفمبر 1957 يتضمن إلحاق الصحراء مباشرة بفرنسا . للمزيد انظر ،بن يوسف بن خدة ، اتفاقيات إفيان ، (ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1987 ص 41 .

(9) الجنرال ديغول ، مذكرات الأمل ،1962/1958 ، ج 4 ، ترجمة سموحي ، ط 1 ، (طلاس للدراسات و الترجمة و النشر دمشق 1984) ص 56 .

(10) ديغول ، نفس المصدر ، ص 49 .

(11) الداي حسين هو آخر دايات الحكم العثماني في الجزائر و في عهده تم احتلال فرنسا للجزائر عرفت فترته اضطرابات كثيرة ،كتب حوله الكثير، و لكنه لا يزال شخصية مبهمة عند العديد من المهتمين

بالوجود العثماني في الجزائر.وللمزيد انظر :أحمد توفيق المدني ، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1974) ص 141 .

(12) عبد الله شريط ، مختصر تاريخ الجزائر (المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985) ص 262 .

(13) الأستاذ الصادق دهاش ، الدوافع الحقيقية للاحتلال الفرنسي للصحراء ،مداخلة في الملتقى الوطني حول فصل الصحراء ، و رقلة في 24 /1997/12 .

(14) يحي بوعزيز ، طرق القوافل و الأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما أوجدها الأوروبيون خلال القرن 19 ، مجلة الثقافة ، عدد 59 ،عام 1980 ، ص 15 .

(15) محمد الميلي ، المغرب العربي بين حسابات الدول و مطامح الشعوب ، ط1 ،(دار الكلمة للنشر بيروت 1981) ص67 .

(16) لقد ربط أحد الباحثين التونسيين حركة الاستعمار الفرنسي بالجزائر بالتبشير و اعتبر أن هدفهما واحد و كتب يقول : "قد اتسمت علاقات حركات التبشير بالنظام الاستعماري في بلاد المغرب العربي بطابع التعاون الوطيد ،و رأت في احتلال الجزائر عسكريا فتحا مبينا مسيحيا و بداية إعادة أمجاد الماضي و تحقيق الحلم القديم حلم إفريقيا المسيحية ، و من الأعمال التي قامت بها الكنيسة بعد انتصارها تحت حماية الجيش الفرنسي فوق أرض الجزائر العربية المسلمة محاولة كتابة تاريخ الكنيسة الإفريقية و العودة إلى العهدين الروماني و البيزنطي لتعطي لرسالتها التبشيرية الجديدة اسما تاريخيا تعود إلى قرون بعيدة و ترى الفتح الإسلامي و انتشار الإسلام في أرض المغرب العربي غلطة لا تغتفر جعلت الدور التبشيري الجديد تفصله عن الكنيسة الرومانية قرون طويلة من الصعب طمسها بسهولة .."للمزيد انظر : الحبيب الجنحاني حركة التبشير و السياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن 19 ، مجلة الأصالة ، عدد 16 ، سبتمبر أكتوبر1973 ، ص 27 .

(17) سعد الله ، الحركة الوطنية ،ج 1 ، ص397 .

(18) Charles Robert, Ageron , Histoire de L'Algérie contemporaine, Paris 1964 p384.

(19) سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج 1 ، ص 350 .

(20) منصف يونس ، دور الطرق الصوفية في مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر ما بين 1830و1871 ،رسالة لنيل ما بعد التدرج المتخصص في التاريخ ،بإشراف أحمد مريوش بالمدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية بوزريعة .

(21) سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج 1 ، ص 371 .

(22) سعد الله ، نفس المرجع ، ص 373 .

(23) يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين ، ط 1 ، (دار البعث قسنطينة 1980) ص 128 .

(24) عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج 4 ، ط 4 ، (دار الثقافة بيروت 1980 ،) ص 328 .

(25) لقد انتشرت الطريقة الرحمانية على يده في المناطق الجنوبية من الصحراء ،وواصل أحفاده نشر مبادئها خارج الجزائر ،إذ يذكر الشيخ الحفناوي أنه قلما يوجد في القطر الجزائري الشرقي و التونسي و طرابلس الغرب و بن غازي من ليس منتسبا لطريقته بواسطة أو وسائط ،و كانت الرحمانية تسمى أيضا بالطريقة العزوزية .و قد أقلق ذلك السلطة الفرنسية و عززت من عيونها للحد من نشاط المكي بن عزوز المقيم في تونس و بعض بقايا عائلته الذين مكثوا في الجزائر و خاصة منهم من كان مقيما في قسنطينة إذ كانت له اتصالات مع علماء تونس، و اتضح ذلك في مراسلة الحاكم العام في الجزائر إلى المقيم العام في تونس و المؤرخة في 31 جانفي 1908 .انظر :أرشيف ما وراء البحار بآكس آن بروفانس رقم 3H16

(26) بوعزيز ، ثورات ، ص 180 .

(27) يونسي ، دور الطرق الصوفية ، 44 .

(28) عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ،1871/1816 ، ط 1 ، (الدار التونسية للنشر تونس 1972) ص 113 .

(29) بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 191 .

(30)يحي بوعزيز ، اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر و الصحراء ، مجلة الثقافة ، العدد 57 ، وزارة الثقافة الجزائر 1980 ، ص 18 .

(31) Pierre Denis , L Armée Française au Sahara , Paris 1992 ,P 78

(32) latters ,Les deux missions du colonel Flatters en Afrique ,Paris 1884 ,P 1.

(33) مياسي إبراهيم ،محاضرة حول فصل الصحراء بملتقى ورقلة ما بين 22و 23 ديسمبر 1997 .

(34) Pierre Guperly, Mohammed Atfayyas et Sa Risaala , In . Ibla, No 130 ; Anneé 1972 , P45.

وكذلك : أرشيف ما وراء البحار بآكس آن بروفانس بفرنسا وقم : 15H 22

(35). Flatters ,Les deux missions ,P 181

(36) إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى و شواطؤها ، ط 1 ، (المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983) ص 103 .

(37) Grammont ,Le colonel Flatters ,Revue Africaine No 26 ;1882 ;P 78 .

(38) بوعزيز ، اهتمامات الفرنسيين ،ص 23 .

(39) Djilali Sari , Insurrection de 1881/1882 S.N.E.D, Alger, 1981 p 50

و كذلك : بن بلال محمد ، صور من المقاومة الشعبية في أقصى الجنوب ، مجلة الجيش ، عدد 407 الموافق ل:جوان 1997 ص 21 .

(40) محمد بجاوي ، الثورة الجزائرية و القانون ، ترجمة علي الخش ط 1 (دار اليقظة العربية ، دمشق 1965) ص 63.

(41) Louis Moulleseaux et Pierre Boyer , Histoire de L'Algérie , Paris 1962 , P359 .

(42) مياسي ، المرجع السابق .

(43) سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء السادس ، ط 1 ، (دار الغرب الإسلامي بيروت 1998) ص 102 .

(44) مقابلة مع الشيخ ابن الدين عبد الرحمان هول بعين صالح، بتاريخ 24 ديسمبر 1997 .

(45) سعد الله تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1900 - 1930 ، ج 2 ، ط 2 ، (الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1983) ص 294 .

(46) منطقة تقع غرب مدينة تمنراست على بعد 50 كلم .

(47) الجنحاني ، حركة التبشير ، ص 30 .

(48) Michel Mourre , Dictionnaire Encyclopédique d' Histoire C , D , Bordas, Paris 1978 ,P405 .

(49) لاتزال مدينة المنيعة إحدى دوائر غرداية تحتفظ بمتحف هام يحتوي على العديد من المخطوطات و بقايا الآثار الهامة ، و الغريب في الأمر أن المتحف لايزال تحت تصرف الكنيسة إلى وقتنا هذا و أن المسؤول عليه أحد الفرنسيين المستشرقين وله دراية كافية حول منطقة الصحراء، و يملك وثائق هامة حول نشاط دوفوكو بالمنطقة ، و قد حاولت شخصيا في شتاء 1997 الاستفادة من المتحف لكن المشرف عليه لم يسهل المهمة .

(50) علي مراد ، شارل ديفوكو في نظر الإسلام ، ترجمة علي مقلد ، (المنشورات العربية 1980) ص 93 .

(51) وظف الأستاذ حباسي في دراسة له مصطلح اللغة الترقية بدلا من اللهجة الترقية ، ونحن نتساءل عن فحوى مكونات هذه اللغة التي أسماها في اصطلاحه ، وللمزيد أنظر : شاوش حباسي ، من مظاهر الروح الصليبية في الاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830-1962 ، مجلة الدراسات التاريخية ، عدد 10 ، جامعة الجزائر 1997 ، ص 99 .

(52) إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص 14 .

(53) إسماعيل العربي ، نفس المرجع .

(54) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص14 .

(55) أرشيف ما وراء البحار ، آكس آن بروفانس : رقم 16 H 5 .

(56) Henri Alleg ,La Guerre D'Algérie Ed. Messidor , Paris, 1981, P164 . (57)

عبد الحميد زوزو ، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900 (المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984) ص 143 .

(58) يحي بو عزيز ، انتفاضة الطوارق بآجر و الهوقار 1916-1919 ، مجلة الثقافة ، عدد 93 الجزائر 1986 ، ص 179 .

(59) حباسي ، من مظاهر الروح الصليبية ، ص 99.

(60) Claude Blanguernon , Le Hoggar 1 Ed . Arthned , Paris 1955 P 40

(61) حسب رواية الشيخ دنقير بمنطقة تمنراست بتاريخ 16 مارس 1994.

(62) نفس المرجع السابق .

مفهوم الديمقراطية
في أدبيات الحركة الوطنية الجزائرية قبل 1954.

أ. ابراهيم لونيسي.
جامعة سيدي بلعباس

إن أسئلة كثيرة تتبادر إلى ذهن الدارس للمسألة الديمقراطية في الجزائر قبل 1954، ومفهومها في أدبيات الحركة الوطنية الجزائرية، فهل مارس الإنسان الجزائري الفعل الديمقراطي خلال الفترة الاستعمارية، أو على الأقل بعد 1919؟ هل كانت الجزائر تعيش خلال هذه الفترة جوا ديمقراطيا واضح المعالم؟ وكيف نظرت الحركة الوطنية الجزائرية للمسألة الديمقراطية في ظل القوانين الفرنسية الاستعمارية؟ وهل تمكنت الحركة الوطنية الجزائرية بمختلف اتجاهاتها من وضع تصور خاص بها لكيفية ممارسة الفعل الديمقراطي؟

الديمقراطية قبل 1954 بين الوجود الفعلي والممارسة الشكلية:

لقد عملت الحركة الوطنية الجزائرية على توظيف العمل الديمقراطي، والأسس التي يقوم عليها من أجل إزالة النظام الاستعماري، فبيان فبراير 1943 الذي يعد منعرجا حاسما في تاريخ تطور الحركة الوطنية ينص على أنه لا حل لمشكلة الجزائر مادامت لا تمتلك حكومة مستمدة من الشعب وتعمل لفائدته، ويكون ذلك بوضع دستور جزائري على يد مجلس منتخب من كل سكان الجزائر، ويكون هذا الدستور مصدرا للقوانين التي تسير عليها البلاد، وأن يمنح لكل سكان الجزائر دون تمييز عرقي أوديني نفس الحقوق والواجبات، ويكون ضامنا للحريات المختلفة — العبادة، والصحافة، وتكوين الجمعيات وغيرها- لأن هذا هو روح كل ديمقراطية حقيقية[1].

والدارس لهذا البيان الذي صاغه فرحات عباس بمشاركة كل التيارات السياسية الجزائرية التي كانت متواجدة على الساحة باستثناء الحزب الشيوعي الجزائري، سيجده يشكل همزة وصل ثابتة بين طموحات مختلف التيارات

الوطنية في الجزائر[2] ، كما أن هذا البيان يجسد بحق أهم المبادىء الديمقراطية التي كانت سائدة في فرنسا خلال تلك الفترة.

ونجد أيضا مجموعة أخرى من الشباب[3] المنتمين إلى حزب الشعب الجزائري قد عبرت أيضا بكل وضوح عن ضرورة استعمال الديمقراطية كوسيلة أساسية لمحاربة الاستعمار في الجزائر، حيث أصدرت في جويلية 1949 وثيقة مذهبية بعنوان (الجزائر الحرة ستحيا)[4] ، واعتبروا فيها أن الديمقراطية مبدأ أساسي وبارز في توجيه نضالهم اليومي ضد الاستعمار ، كما أنه هو الذي سيوجه عملهم غدا من أجل النهوض بالأمة، والديمقراطية التي يقصدها هؤلاء الشباب هي الديمقراطية السياسية التي تهدف إلى إشراك الشعب في تسيير شؤونه، مشاركة غير محدودة محليا ومركزيا، والديمقراطية الاجتماعية التي تسعى إلى إقامة نظام خال من استغلال الإنسان للإنسان، والديمقراطية الثقافية مهمتها تمكين شخصية الشعب من النمو وتطوير الأفكار والذهنيات.

عمد هؤلاء الشباب إلى جعل الوطنية الثورية والديمقراطية كل متكامل وهو دليل عمل في كل حالة من حالات النضال العادي والطارىء لأنها نابعة من الواقع نفسه، وحسب اعتقادهم فإن التنظيم الديمقراطي هو القادر على عكس آراء الجميع، والوصول إلى التماسك الاجتماعي الضروري وإتاحة فرص التعبير عن الرأي والرأي الآخر مما يضمن تحسين مناهج وطرق العمل السياسي والإداري.

ولكن لا ينبغي علينا هنا أن نستنتج من قيام الحركة الوطنية باتخاذ العمل الديمقراطي كوسيلة لمحاربة الوجود الاستعماري بالجزائر، إنه كان يوجد بها إبان هذه الفترة ممارسات ديمقراطية حقيقية وفعلية، وهذا رغم وجود حياة حزبية واضحة المعالم في أوساط الجزائريين، وكذا وجود بعض الجزائريين الذين كانت تهزهم نشوة الحرية من خلال النشاطات الضيقة جدا والمحدودة التي كانت الإدارة الاستعمارية تسمح بها، ويعيد محمود بوزوزو [5] سبب هذه النشوة إلى الصحافة الحرة والخطابة الحرة والانتخابات الحرة والاجتماعات الحرة، والتنقلات الحرة، إلا أن كل هذا في حقيقته ما هو إلا سراب بفعل المادة 80 من قانون العقوبات الفرنسي، والتي كانت تتناقض صراحة مع الدستور الفرنسي ذاته الذي ينص على حرية التعبير والتفكير، وحماية حقوق الإنسان، وتنص هذه المادة على أن كل فرنسي أو أجنبي شرع بأي وسيلة في المس بوحدة التراب الفرنسي، أوفي العمل من أجل التخلص من السيطرة الفرنسية سيتعرض لأقصى العقوبات[6].

ويعلق محمود بوزوزو على هذه المادة بأنها تسقط على رؤوس الجزائريين المؤمنين بالديمقراطية الفرنسية دون مس أقلامهم، أو أن تسقطها من أيديهم ودون أن تنال من حبهم الشديد للديمقراطية الفرنسية التي سكنت قلوبهم[7].

وهناك العديد من الأدلة المؤكدة لغياب الفعل الديمقراطي الصحيح في الجزائر خلال هذه الفترة، وأن الممارسات التي كانت سائدة ماهي إلا ممارسات شكلية وصورية. وانتقائية أيضا، و التي يمكن لنا ذكر بعضها في النقاط التالية:

1/ وجود مجلسين الأول خاص بالأوربيين يحظى بالأغلبية والثاني جزائري نصيبه الأقلية، الشيء الذي يجعله صوري وبالتالي فكل معارضة إيجابية وفعالة غير قادرة على التعبير عن نفسها ولا حظ لها في الظهور.

2/تزييف وتزوير الانتخابات كدليل على عدم احترام اللعبة الديمقراطية، وهو ما يؤدي دوما إلى ترجيح كفة الأعيان و العملاء، بل والأكثر من ذلك، كانت فرنسا تستعمل الانتخابات كوسيلة لإلهاء الجزائريين واشغالهم على قضايا أهم من الانتخابات، والتي تصبح مادة للجلسات والمناقشات على حد تعبير مالك بن نبي الذي كتب يقول:" وبدلا من أن تكون البلاد ورشة للعمل المثمر والقيام بالواجبات الباعثة للحياة، فإنها أصبحت سوقا للانتخابات وصارت كل منضدة في المقاهي منبرا تلقى منه الخطب الانتخابية. وهكذا تحول الشعب إلى جماعة من المستمعين يصفقون لكل خطيب، أوقطيع انتخابي..." (8)

3/ حرمان الإنسان الجزائري من حق المواطنة واعتباره في المقابل مجرد رعية فرنسية والملاحظ أن التيار الإصلاحي السياسي المتشبث بالديمقراطية الفرنسية كان يدرك ذلك تمام الإدراك فمثلا نجد الحزب الشيوعي الجزائري يشير إلى هذه النقطة في تقريره المرفوع إلى لجنة الإصلاحات الإسلامية المشكلة من الجنرال ديغول في 19 أفريل 1943 حيث جاء في هذا التقرير المرفوع بتاريخ 23 ديسمبر1943 (9) من ممثل الحزب وأمينه العام عمار أوزقان بأن الإحراز على الحقوق السياسية وخاصة-المواطنة الفرنسية- لايمكن أن يكون فقط من حظ النخبة أي رجال الأعمال والنواب وكذا الضباط وضباط الصف وحتى الجنود المتطوعين "مع ملاحظة أن هؤلاء الآخرين أكثريتهم أميون.ولكن تمكن

الإجابة بأن ذلك بفضل التحامهم مع رفاقهم الفرنسية وبسبب المحاضرات التي قدمت لهم، والتي أدخلت في أذهانهم الإحساس "بالديمقراطية ومحبة فرنسا"! ويطالب التقرير بأن تكون هذه المواطنة أيضا من حق طبقات اجتماعية أخرى كانت قد برهنت على اتجاه سياسي حسن وهم الموظفون والمستخدمون والعمال وكل الذين لعبوا دورا هاما في الاقتصاد الوطني، ولكن الغريب في كل هذا أن الحزب الشيوعي يستدرك في التقرير نفسه ويؤكد أن المواطنة الفرنسية لا يمكن أن تعطى بسهولة لجميع المسلمين[10].

4/ قول فرحات عباس في تقريره المرفوع إلى لجنة الإصلاحات الإسلامية من أن الديمقراطية لم تخلق في أوربا حتى تكون في خدمة الشعوب الأوربية فحسب، بل هي فكرة نشأت في كل الكرة الأرضية لذا يجب أن تكون في خدمة كل الشعوب لهذا يرى بأنه من غير المعقول الإبقاء على نظام اللاعدالة، وعدم المساواة بين الناس الذي تطبقه فرنسا بالجزائر، لذا يجب استبداله بنظام آخر يبقي على شرف فرنسا الجديدة، وأن يكون مبنيا على مبدأين أساسيين وهما:

أ/كل الناس يولدون ويعيشون أحرارا متساوين في الحقوق.

ب/كل شعب له حق اختيار وتقرير مصيره بنفسه[11].

إلا أن الغياب الفعلي والحضور الشكلي للممارسات الديمقراطية في هذه الفترة لم يمنع التيارات السياسية المختلفة من طرح بعض أفكارها بشأن الديمقراطية ومفهومها لها وكيف يجب أن تمارس، وغيرها من القضايا المتعلقة بالفعل الديمقراطي.

مفهوم الديمقراطية عند الاتجاه الاستقلالي:

إن فهم الاتجاه الاستقلالي، للفكرة الديمقراطية لم يكن منفصلا أبدا عن مطلبه الأساسي الذي ظل يناضل من أجله منذ 1927، وهو الاستقلال، وهذا ما نستنتجه من الوثيقة التي أصدرتها الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية خلال شهر ديسمبر 1951 تحت عنوان "المبادئ الموجهة لنضال الحركة الوطنية"[12]، وفيها تربط إدارة الحزب ربطا وثيقا بين مفهوم الوطنية، ومفهوم الحرية، إذ بعد أن تتساءل الوثيقة عن من هو الوطني؟ تجيب بأنه "هو من يخوض غمار الكفاح داخل بلاده في سبيل حل المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية بطريقة تكفل للشعب وللوطنيين في البلد أكبر قدر من الحرية والرقي الروحي والأخلاقي ومن التنمية الثقافية والرخاء المادي".

وقامت الوثيقة من خلال تعريفها للوطني بطرح مفهوم الوطنية التحريرية التي هي وطنية حزب الشعب والحركات الوطنية التحريرية في معظم البلدان المستعمرة، ومفهوم التحرر عند حزب الشعب – الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية– هو تحقيق الحرية وانعتاق القيم الوطنية انعتاقا كاملا.

وتحدد الوثيقة مظاهر الوطنية التحريرية في النقاط التالية:

1–المحتوى الديمقراطي.

2–الهدف الثوري ومعناه العمل من أجل انعتاق الأمة انطلاقا من معطيات سليمة وتطلعات مشروعة مثل:

– أن يمارس الشعب سيادته كاملة.

– أن يتحدث لغته بكل حرية.

- أن يتمتع بحرية العقيدة.

وتعتبر الوثيقة، الديمقراطية هو المبدأ الثاني الذي يوجه مسيرة الحركة الوطنية بعد المبدأ الأول المتمثل في الوطنية التي سبق توضيحها، والديمقراطية معناها:

" حكم الشعب بالشعب وإلى الشعب" وتصور هذه الوثيقة أن الديمقراطية لدى الشعب الجزائري هي هدف ومشروع في الوقت ذاته، فالشعب الجزائري في مرحلة الكفاح ضد الاستعمار يتطلع إلى الديمقراطية التي هي شرط للحرية.

وعملت هذه الوثيقة على الجمع بين الديمقراطية السياسية والاجتماعية، واعتبرتهما كلا متكاملا، فالديمقراطية السياسية الهدف منها مشاركة الشعب في حكم بلاده، وفي تسيير شؤونه الوطنية، وفي ممارسته مراقبة دائمة لفرض احترام الحريات الأساسية، أما الديمقراطية الاجتماعية فهي تهدف إلى بناء نظام عادل، وتنمية الشخصية الوطنية وإبراز عبقرية الشعب وإثراء معارفه في مختلف الميادين.

وكانت مجهودات الاتجاه الاستقلالي منصبة كلها على العمل لإيجاد ديموقراطية حقيقية في الجزائر بعيدة كل البعد عن الديمقراطية الشكلية التي عملت الإدارة الاستعمارية على ترسيخها في الجزائر، ويتضح ذلك من حرص نجم شمال إفريقيا على ضرورة إحقاق الديمقراطية الفعلية من خلال المطالب التي تقدم بها إلى مؤتمر بروكسل المنعقد في فبراير 1927 ، والتي احتوت على عدة مبادئ وأسس تقوم عليها هذه الديمقراطية مثل حرية الصحافة والاجتماع، والتجمع ومنح الحقوق السياسية والنقابية كتلك الممنوحة للفرنسيين بالجزائر، وإيجاد مجلس وطني جزائري منتخب بطريقة التصويت العام[13].

وكان مصالي الحاج قبل تأسيس الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية حريصا على أن يشيع جوا ديموقراطيا داخل حركته السياسية- النجم ومن بعده حزب الشعب- وذلك عندما حاول إعادة تنظيم النجم وهيكلته من الداخل سنة 1933 بهدف جعله منسجما، وكذا اعتماد طريقة لمناقشة الرامية إلى التوجيه والتنفيذ. والدارس للقانون الأساسي الذي وضع سنة 1933 سيجده يعكس إمكانية وجود الأغلبية والأقلية داخل الحزب[14]

ونشير هنا إلى أن القانون الأساسي للحزب الصادر سنة 1927 يحتوي أيضا على مادة تتحدث عن إمكانية وجود أغلبية وأقلية داخل الحزب هي المادة 28 التي تمنع على أي عضو في الجمعية مخالفة القرارات فالأقلية والأغلبية يجب أن تتقيد بتنفيذها، ويحق للأغلبية والأقلية أن تعبر عن أفكارها، وشرحها كما تريد خلال انعقاد المؤتمر[15].

ولكن الدور الموكل للرئيس من جهة، وطريقة انتخاب اللجنة المركزية من جهة أخرى –وفق قانون 1933- لم تكن هي الطريقة الأحسن التي توفر للنجم حياة سياسية داخلية ديموقراطية، فالمادة التاسعة من القانون الأساسي تنص على أن صوت الرئيس هو الراجح عند انقسام الأصوات داخل اللجنة المديرة-أي ما يعرف بالمكتب السياسي- أما انتخاب اللجنة المركزية فيتم بقائمة وحيدة من طرف المؤتمر[16] وهو الشيء الذي يحرم أعضاء المؤتمر من حرية الاختيار أثناء عملية الانتخاب على أعضاء اللجنة المركزية، كما أن هذا الأسلوب يعطي لرئيس الحزب صلاحيات واسعة جدا وسلطة أقوى داخل الحزب إذ أن يجب أن يكون موجودا في الصورة عند اتخاذ أي قرار جوهري وحاسم.

ويدل هذا على أن مصالي الحاج كان خلال هذه الفترة على أقل من مؤيدي تعددية الرأي والاختلاف حوله، داخل الحزب الواحد، إذ كان يقول "في رأيي فإن الحزب الذي له توجه واحد فقط هو حزب دكتاتوري "[17].

ولقد تمكن التيار الاستقلالي من وضع تصورات خاصة في شأن الممارسة الديمقراطية وتتمثل في حكومة مسؤولة أمام برلمان منتخب عن طريق الاقتراع العام وليس من طرف بيروقراطيين مجهولين وغير مسؤولين تتحكم فيهم الاوليغارشيات المالية والعقارية وطالب بإنشاء مجلس جزائري منتخب من الجميع دون مراعاة لعنصر الدين واللغة[18]. وتعد المطالبة بمجلس تأسيسي للجزائر من أبرز المطالب التي كان يطالب بها هذا الاتجاه منذ سنة 1933 حيث جاء في برنامجه المعلن في ماي 1933 تحت عنوان "الحكومة الوطنية الثورية" ما يلي:

-إنشاء جمعية تأسيسية تنتخب بالاقتراع العام.

-حق الاقتراع العام بجميع أنواعه ودرجاته، وحق الترشيح لكل الجمعيات العامة لجميع سكان الجزائر[19].

ومنذ هذا التاريخ أصبح هذا المطلب يتكرر باستمرار في برامج النجم، وحزب الشعب من بعده، ثم مع حركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية، وهذا الإلحاح هو الذي أخاف الإدارة الاستعمارية من مشاركة هذا الاتجاه في الانتخابات. لهذا مارست بكل الأساليب والوسائل عملية عرقلة المشاركة القوية والفعالة لهذه الحركة في الانتخابات وذلك عن طريق التزوير، وملاحقة المنتخبين وإرغامهم على عدم التصويت لمرشحي الحركة الذين لا هم لهم سوى

العمل على تحويل الجمعية الجزائرية التي ظهرت بمقتضى قانون 20 سبتمبر 1947 إلى مجلس تأسيسي يرسي قواعد الدولة الجزائرية المستقلة[20].

فالهدف الأساسي والسياسي لهذه الحركة لم يكن المشاركة في أشغال الجمعية الجزائرية التي كان يدرك جيدا أنها لن تكون سوى أداة طيعة في خدمة مصالح المعمرين بل يتمثل في أن يقوم منتخبوها بتحويل جلسات الجمعيـــة إلى مناسبات للتذكير بإرادة الشعب الجزائري في مواصلة النضال ضـــمن إطـــار الحركة الوطنية من أجل استرجاع السيادة الوطنية المغتصبة، وإقامة الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ببرلمانها وحكومتها وألوانها الوطنية.[21]

ويذكر مصالي الحاج أن الحريات الديمقراطية التي يكافح من أجلها كل الجمهوريين ستترجم في الجزائر بالاقتراع العام في كل المجالس الجزائرية، وعليه سيكون أساس السلطة هو المجالس المنتخبة، وسيكون الحكم جمهوريا وتتمثـــل مبادؤه في الحرية والمساواة والأخوة[22]. ولقد أشار إلى بعض هذه الأفكار في خطابه الذي ألقاه في الملعب البلدي للجزائر في 2 أوت 1936 بمناسبة رجـــوع وفد المؤتمر الإسلامي من باريس حيث جاء فيه"... نقف مع إنشـــاء برلمـــان جزائري منتخب عن طريق الاقتراع العام بدون تمييز بالعنصر أو بالدين إن هذا البرلمان الوطني الجزائري الذي يتكون في عين المكان سيعمل تحت مراقبة الشعب مباشرة ومن أجل الشعب". [23]

كما أن هذا الاتجاه وضع في تصوره مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية كما طالب بالإقرار بكل الحريات الديمقراطيـــة مثل حرية الصحافة، وإنشاء الجمعيات المختلفة وحرية العمل النقابي والاجتماع وحرية التفكير. [24]كما ناضل هذا الاتجاه أيضا من أجل تحقيق مبدأ المواطنـــة

على أساس الجنسية الجزائرية وبضرورة الاعتراف بها وهذا قبل أن يرد ذكرها في بيان فبراير 1943 ، وذلك عندما كان يطالب باستقلال الجزائر استقلالا كاملا عن فرنسا، كما ورد في برنامجه لسنة 1933، ويعتبر مصالي الحاج الاعتراف بالمواطنة للإنسان الجزائري على أساس جنسيته الجزائرية هي التي تضمن احترام لغته ودينه وحقوقه السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تقوده إلى الانعتاق، ويرى أيضا بأنه ليس من المعقول تهميش ثمانية ملايين جزائري وإبعادهم عن تدبير وتسيير شؤون وطنهم من أقلية ضئيلة جدا تمتلك كل الإمكانيات والسلطات بيدها، ويعتبر هذا العمل تجاهلا صارخا وواضحا لمبادئ " الديمقراطية التي لا بد أن تكون اليوم أو غدا هي المصدر الوحيد لكل المجتمعات البشرية". [25]

وانطلاقا من رأيه هذا فانه كان دوما يطالب بديمقراطية "جميع المجالس الجزائرية المختلفة وبتحويل المجلس المالي إلى برلمان جزائري ينتخب بالتصويت العام الموحد بدون تفريق في الجنسية والدين" وفي "هذا البرلمان يجد كل واحد مكانه على قدم المساواة سواء كان عربيا أو أوربيا أو إسرائيليا وفي حضن الأخوة الكاملة يعملون كل في اختصاصه من أجل جزائر حرة سعيدة.

كل ينظر إلى المستقبل وهو يفكر بعقل جديد تاركا وراءه في الوقت نفسه جميع الطبائع القديمة الأنانية والحقد اللذين ابتلي بهما وطننا الجميل بكل جفاء وقسوة" [26]

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل انعكس تمسك أصحاب هذا الاتجاه بالعمل الديمقراطي على أفعالهم ونشاطاتهم، إننا نجد ذلك في أكثر من مناسبة منها على سبيل المثال ما حدث خلال الندوة الوطنية التي عقدتها إطارات

حزب الشعب خلال أكتوبر 1946 وناقشوا فيها قضية دخول الحزب في المعركة الانتخابية المنظمة من السلطات الاستعمارية من عدمها [27] والتي أثارت نقاشا طويلا وحادا بين مؤيد للمساهمة في الحياة الانتخابية الفرنسية بزعامة مصالي الحاج ومعارض لها بقيادة حسين لحول الذي لم يستسغ عملية تحول القيادة بين عشية وضحاها من الدعوة إلى المقاطعة -- بل والأكثر من ذلك رفعها لشعار من انتخب كفر- إلى الدعوة للمشاركة، ودخل الطرفان في نقاش سياسي عنيف، فمصالي الحاج كان يرى أن المشاركة في الانتخابات تعد وسيلة هامة من وسائل المقاومة السياسية، وأن المجالس النيابية تعد أداة لإشهار مطالب الشعب الجزائري ونشر فكرة الحزب، وبالتالي، كسب عطف وتأييد جزء من الرأي العام الفرنسي وخاصة أوساط اليسار واليمين المعتدل وأن المشاركة في الانتخابات تعد وسيلة هامة لنشر الوعي السياسي بشكل واسع على مستوى الوطني وخاصة في أوساط الطلبة والمثقفين، أما الطرف الرافض والمعارض للمشاركة فإنه كان يرى بأنها ستكون على حساب الإعداد للمعركة الفاصلة، كما أنها قد تجعل من الرجال المنتخب عليهم يستمرؤون المقاومة السياسية في إطار قوانين استعمارية وضعت ضدنا ولفائدة غيرنا ومن الممكن أن يؤدي ذلك بسياسة الحزب إلى الانحدار نحو السياسة الإصلاحية والتي كانت مرفوضة لدى أصحاب هذا الحزب في السابق رفضا تاما.

وقد لعب مصالي الحاج دورا بارزا لإقناع الطرف المعارض بضرورة المشاركة وتمكن في آخر جلسة من تحقيق شبه إجماع على تقدم مرشحين لتمثيل حزب الشعب الجزائري في البرلمان الفرنسي ونسجل هنا أنه بقدر ما كان الصراع شديدا بين دعاة المشاركة من جهة، ودعاة المعارضة من جهة

أخرى، كان التفاف جميع الأطراف قويا حول قرار الندوة وذلك طبقا لمبدأ المركزية الديمقراطية وحفاظا على وحدة الحزب وليس أدل على قوة انضباط الإطارات القيادية من قيام حسين لحول بالعمل على إقناع القواعد المناضلة بسلامة القرار بينما كان هو الوحيد الذي ظل متمسكا بموقفه الرافض والمناهض لفكرة المشاركة باعتبارها تراجعا خطيرا في سياسة حزب الشعب الجزائري[28].

ونشير هنا إلى أنه رغم وجود معارضين لقرار المشاركة فإنهم لم يعمدوا إلى التمرد على زعيم الحزب، ولا على التنظيم الحزبي فإنهم حاولوا معارضة هذا القرار بطرق نظامية وسلمية أقل ما يمكن قوله عنها أنها كانت ديمقراطية، فمارسوا ضغوطات على مصالي الحاج، كما ظهرت إطارات شابة مثقفة وواعية أعلنت عن رفضها إتباع الزعيم وهي مغمضة العينين وقامت بتشكيل لجنة انقاذ و يقظة توكل إليها مهمة تعبئة القواعد المناضلة ضد التوجه الجديد الذي لم يشارك أحد منهم في تحديده وإقراره[29].

ولكن الملاحظ أن كل هؤلاء لم يعمدوا إلى الانشقاق عن الحزب والانفصال عنه والسعي إلى تشكيل حزب جديد لأنهم كانوا يدركون أن القيام بهذا العمل ما هو إلا تهور، وبأنه لن يكون سوى في خدمة المصالح الاستعمارية، لهذا حاولوا تجاوز الأزمة بطرق ديمقراطية دون أن يؤدي إلى تمزيق الحزب وتشتيته[30].

إلا أنه يجب علينا التساؤل هنا هل كانت هذه الممارسة فعلا حقيقية ومتأصلة داخل الحركة أم أنها كانت عبارة عن ممارسة سطحية سرعان ما تنكشف حقيقتها القشرية وتؤدي إلى انفجار الحزب.

وبشكل عام فإن الاتجاه الاستقلالي قد ذهب بعيدا في طرحه الديمقراطي حيث قام في مؤتمره الثاني المنعقد في أفريل 1953 برسم صورة للجزائر المستقلة وكيف يجب أن تكون في اللائحة العامة التي أصدرها حيث قرر أن تسير الدولة على الأسس التالية [31]

1-المنهج الديمقراطي وفق مبدأ "من الشعب وإلى الشعب" باعتباره منبع السيادة.

2-اتباع النظام الجمهوري في الحكم.

3-العمل على تحقيق الرخاء الاقتصادي والعدالة الاجتماعية وأن يتم إنجاز ذلك على النحو التالي:

أ/ في الميدان الاقتصادي، بإعادة تنظيم الفلاحة لفائدة الجزائريين، بواسطة الإصلاح الزراعي خاصة، وبإقامة صناعة تعتمد على الإمكانيات الطبيعية للجزائر، وبتأميم وسائل الإنتاج الكبرى، والاتجاه نحو تحقيق تكامل اقتصاديات الجزائر والمغرب وتونس من أجل سوق مشتركة للإنتاج والاستهلاك.

ب/ في الميدان الاجتماعي، بالتوزيع العادل للدخل الوطني بغية تحقيق العدالة الاجتماعية.

إن هذا التصور يجعلنا نؤكد أن هذا الاتجاه قد أصبح جاهزا إيديولوجيا لخوض معركة التحرير واسترجاع السيادة الوطنية بعد نضاله الطويل الذي دام حوالي ربع قرن من الزمن، والذي ركز فيه بشكل واضح على مبدأين أساسين، الوطنية والديمقراطية.

مفهوم الديمقراطية عند الاتجاه الإصلاحي السياسي:

يتكون هذا الاتجاه أساسا من خريجي المدارس الفرنسية والمتأثرين بالفكر العلماني، وبأفكار الثورة الفرنسية عموما، فرنسا "الحرية والمساواة والأخوة"، فرنسا الديمقراطية أي أنه يتشكل من "حملة الشهادات" لذا نجد كل مجهودهم السياسي مرتكزا على السعي نحو تحقيق رقي اجتماعي، والحصول على نفس المركز الاجتماعي والسياسي الذي كان يحتله المعمرون، وذلك عن طريق الحصول على المواطنة الفرنسية[32].

ومما شجعهم على ذلك أكثر كونهم منتخبين، ونواب عن المسلمين في المجالس المنتخبة التي كانت متواجدة بالجزائر خلال تلك الفترة، فجل نشاطاتهم جرت في هذا الإطار المحدود، وكانوا يعيشون وضعية متناقضة فمن جهة كانت طموحاتهم الشخصية تتمثل في دخول المجتمع الفرنسي كأعضاء كاملي الحقوق، ومن جهة أخرى حددت هذه الطموحات بوضعهم كمنتخبين يمثلون من يرفض ذلك، وهو ما جعلهم يتحركون في مساحة ضيقة جدا وهي الواقعة بين السلطة الفرنسية من جهة وواقع المجتمع الجزائري من جهة أخرى[33].

ولقد كان أصحاب هذا الاتجاه قبل الحرب العالمية الثانية يؤكدون على الطابع الفرنسي النهائي للجزائر مما جعلهم بعيدين كل البعد عن الفكرة الوطنية أو التفكير في استقلال الجزائر[34] وهو ما جعلهم يضعون أنفسهم بحق خارج الجماهير الجزائرية، إلى غاية تسرب أفكار النجم بشكل قوي وبارز مع ذلك التجمع الذي عقده وفد المؤتمر الإسلامي بعد رجوعه من باريس، والذي حضره مصالي الحاج في 2 أوت 1936، وكذا ثبوت فشل مشروع بلوم فيوليت الذي كانت المطالبة بتطبيقه شغلهم الشاغل، فكل هذه العوامل جعلتهم

يدركون أهمية دور الجماهير وخاصة فرحات عباس الذي يعتبر أبرز عناصر هذا الاتجاه، فبدأ يفكر منذ 1937 في إنشاء حزب سياسي جماهيري يتجاوز من خلاله شكل النضال القديم وتغير أسلوب العمل، ولكن كل هذا ليس يهدف طرح إيديولوجية أو برنامج جديد [35].

وأسس فرحات عباس حزبه هذا فعلا في أواخر جويلية 1938 تحت اسم "اتحاد الشعب الجزائري" وكان شعاره "من الشعب وإلى الشعب"[36].

ولكن مهما يكن من أمر هذا الحزب فإن هذا العمل يعد البداية لإدخال هذه العناصر المشكلة للاتجاه الإصلاحي السياسي إلى داخل الجماهير الجزائرية، فلقد شكل هذا الحزب نقطة تحول مهمة في تفكير فرحات عباس وجزءا هاما من أصحاب الاتجاه الإصلاحي السياسي، حيث دعا فرحات عباس إلى ضرورة حصول الجزائر على دستور ديمقراطي إنساني ثم صرح: " نحن نريد أن نربط الجزائر بالديمقراطية الفرنسية، لكن عليها أن تحتفظ بمعالم شخصيتها الخاصة بلغتها وتقاليدها وعاداتها فالالتحاق بفرنسا لا يعني الامتزاج".[37]

نظر فرحات عباس إلى الديمقراطية بمنظار مبادئ الثورة الفرنسية وتقاليدها ويكفي كدليل على ذلك أنه تطوع عند اندلاع الحرب العالمية الثانية دفاعا في نظره عن الديمقراطية والحرية معتقدا أن فرنسا رمز لها، وهذا ما نستنتجه من رسالته الموجهة لمنتخبيه غداة اندلاع الحرب العالمية الثانية، والتي نشرها في جريدة "التفاهم " في 4 ديسمبر 1939: " يتوقف حزبنا عن كل نشاط سياسي ليتفرغ كليا لسلامة الأمة التي يرتبط بها مستقبلنا لأنه لو تضعف فرنسا الديمقراطية مثالنا للحرية سيدفن إلى الأبد"[38]، حتى وإن كان يؤكد أن الديمقراطية ليست حكرا على أوربا، بل هي قضية تخص كل شعوب العالم،

ويعتبرها بذلك هي الفيصل بين الحق والباطل بغض النظر عن انتماءات المؤمنين بها والعاملين من أجل تحقيقها وتجسيدها على أرض الواقع، فعلى أساس الإيمان بها والدفاع عنها يتم التمييز بين الإنسان الديمقراطي وغير الديموقراطي"فالشعوب في نظرنا كيفما كانت ديانتها لا تخلو من الديمقراطيين والمستعمرين المتسلطين، فالأولون أصدقاؤنا ولو كانوا مسيحيين، والآخرون أعداؤنا ولو كانوا مسلمين".[39]

قام هذا الاتجاه بعد التطور الحاصل فيه بعد الحرب العالمية الثانية بطرح تصوره الخاص بكيفية ممارسة العمل الديمقراطي في مشروع دستور الجمهورية الجزائرية الذي قدمه الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري للمجلس التأسيسي الفرنسي في 19 أوت 1946، وعلى البرلمان الفرنسي على شكل قانون في 21 مارس 1947 [40] أثناء عملية التحضير"لقانون الجزائر الأساسي ". وينص هذا المشروع على إقامة جمهورية جزائرية تمتلك سيادة كاملة وتامة على كل إقليمها فيما يخص كل الشؤون الداخلية، وتتجسد هذه السيادة في الأمة الجزائرية، والتي يمارسها النواب الذين تنتخبهم الأمة، وهم يشكلون البرلمان الجزائري.

وينص هذا المشروع أيضا على السلطة التشريعية يمارسها مجلس واحد هو البرلمان الجزائري، وينتخب هذا البرلمان عن طريق الاقتراع العام المباشر السري من طرف كل المواطنين الجزائريين، وهو يشرع في حدود السيادة الجزائرية، ولا يفوض هذا الحق إلى أي كان، جزئيا أو كليا، وكل نائب له الحق في اقتراح القوانين كالوزراء.

ونشير هنا إلى أن المطالبة ببرلمان جزائري أصبح مطلبا أساسيا عند فرحات عباس، وحركته السياسية بعد الحرب العالمية الثانية، ولقد تصور هذا

البرلمان في بيان أصدره في شهر جوان 1946 على أنه سيحتوي بداخله ممثلين لجميع سكان الجزائر الأصليين والأوربيين، ويوضح هذا بقوله "إنه لم يكن أصلا في نيتنا إنشاء دولة إسلامية بل نحن نتابع دائما تكوين دولة جزائرية بحقوق مدنية متساوية للجميع بدون تفريق لا في الدين ولا في الجنس" ونجده يطالب بضرورة تغيير النظام الانتخابي، وذلك بطرحه لفكرة" الانتخاب الموحد في مجمع انتخابي مختلط وموحد" وأن هذا العمل هو الذي سيحقق بحق المساواة[41].

إن فرحات عباس في فكرته الأخيرة هذه يلتقي مع حزب الشعب الجزائري الذي سبقه إلى طرحها في جوان 1939 في جريدته "البرلمان الجزائري" قبل مصادرتها حيث كتبت تقول" إن التصويت الموحد يمكن الشعب الجزائري من الإعراب عن إرادته ويجعل حدا لمجازفات كل المنتهزين لاستغلال شقائه"[42].

أما بالنسبة للسلطة التنفيذية فإن ذلك المشروع ينص على أنها ستمارس من حكومة جزائرية مكونة من رئيس الدولة، وهو رئيس الجمهورية، ومن مجلس الوزراء وتكون مكلفة بتنفيذ القوانين وقرارات البرلمان الجزائري، وأن ينتخب رئيس من طرف مؤتمر يضم النواب والمستشارين العامين لكامل الإقليم لمدة ست سنوات، وينعقد المؤتمر بدعوة من رئيس البرلمان الذي يتولى مهام رئيس الجمهورية في حالة وفاته، في انتظار انتخاب رئيس جديد، ويمارس رئيس الجمهورية مهام تمثيل الجمهورية، ورئاسة مجلس الوزراء وإصدار القوانين والتعيين في كافة الوظائف وله حق العفو، لكن يجب أن تكون قراراته موقعة أيضا من طرف عضوين على الأقل من مجلس الوزراء، ومجلس الوزراء يكون

مسؤولا مسؤولية ضمنية أمام البرلمان مما يستتبع استقالته في حالة سحب الثقة منه.

إن هذا التصور مستمد في جزئه الأكبر من بيان فبراير 1943 الـــذي طالب بتزويد الجزائر بدستور خاص بها يضمن:

الحرية والمساواة المطلقة بين سائر سكان الجزائر، دون تمييز عرقي أو ديني.

حرية الصحافة وحق إنشاء الجمعيات.

مجانية التعليم إجباريته لجميع الأطفال من الجنسين.

ونشير هنا إلى أن فرحات عباس ورفاقه النواب قد أحدثوا مفاجـــأة كبرى بهذا المشروع خاصة، وأن الرأي العام الفرنسي قد تعود علـــى سمـــاع المعتدلين الجزائريين يدعون إلى تحقيق المساواة، وتوفير بعض الحقوق الاجتماعية والسياسية [43] ولكن لأول مرة يسمعون منهم هذه الطروحات الجديدة التي لم يتعودوا سماعها إلا من أصحاب الاتجـــاه الاســـتقلالي، وإن لم تكـــن هـــذه الطروحات بنفس حدة طروحات هذا الاتجاه.

مفهوم الديمقراطية عند التيار الإصلاحي الديني:

رغم ادعاء أصحاب هذا التيار بأنهم بعيدون كل البعد عن الاشـــتغال بالأمور السياسية، إلا أننا وجدناهم يخوضون فيها أكثر من مرة، وإن كان ذلك يبدو للوهلة الأولى أنه يتم بشكل فردي، ولكنه في حقيقة أمره يعبر بشكل عام وواضح عن أفكار أصحاب هذا التيار، وسنحاول هنا التوقف عند بعض هذه الأفكار بشأن المسألة الديمقراطية.

فلقد قام مثلا الشيخ عبد الحميد بن باديس باستخلاص مجموعة مـــن القواعد التي يجب أن يقوم عليها الحكم الديمقراطي، وتمارس وفقهـــا العمليـــة

الديمقراطية بشكل مضبوط من الخطبة التي ألقاها أبو بكر الصديق عند توليه الخلافة. وأطلق الشيخ ابن باديس على هذه القواعد" أصول الولاية في الإسلام" (44) والملاحظ على هذه الأصول أنها لا تختلف كثيرا عن القواعد والأسس التي تقوم عليها الديمقراطية في المفهوم الغربي وتتمثل في:

1-أن السيادة للأمة وهي مصدر كل سلطة في الدولة.

2-أن يكون من يتولى شؤون الأمة هو أكفؤهم وليس بالضرورة خيرها في السلوك .

3-المسؤولية في الدولة تكليف ولا تخول لمن يتولاها أية أفضلية على غيره، فلا تكون مصدر أي تمييز أمام القانون.

4-حق الأمة في مناقشة رجال الدولة ومحاسبتهم على أعمالهم وحملهم على ما تراه هي لا ما يرونه هم.

5-يخضع كل موظف في الدولة إلى مبدأ المسؤولية في أعماله أمام الأمة التي تراقبه وتحاسبه وتعزله عند الحاجة.

6-أن لا تحكم الدولة إلا بالقانون الذي رضيته الأمة لنفسها، إذ أن الدولة ليست إلا إرادة تنفيذ لإرادة الأمة التي تطيع القانون لأنه قانونها، لا لأن سلطة الدولة هي التي فرضته على الأمة كائنا ما كانت تلك الدولة، أي خضوع الأمة للقانون الذي رضيته لنفسها يجعلها تشع بأنها حرة في تصرفاتها وأنها تسير نفسها، وأنها ليست ملكا لغيرها من الناس لا الأفراد ولا الجماعات ولا الأمم.

7-الناس سواسية أمام القانون يطبق على القوي دون رهبة لقوته، وعلى الضعيف دون رقة لضعفه.

8–حفظ التوازن داخل الأمة، بأخذ الحق من القوي دون أن يقصد كسره، ويعطي للضعيف حقه دون أن يقصد تذليله.

9–تعويد الحاكم والمحكوم معا على الشعور بأنهما مشتركان في الحكم وأن كل واحد منهما له دور يمثله في مسرح الحكم.

10–ينفذ المسؤولون إرادة الأمة وهم يقومون بعملهم بعد مصادقة الأمة على برامج عملهم فتكون على علم مسبق بما سيعملون.

ويرى الشيخ عبد الحميد بن باديس أن الحاكم المسلم يجب أن يعتمد في حكمه على رأي أهل الحل والعقد و الاّ يستكين فقط إلى رأيه، وهؤلاء هم الأمراء من المسلمين الذين لا يمثلونه هو بل يمثلون الخلافة أو الإمامة، وهم أيضا العلماء أي أصحاب الرأي والخبرة والكفاءة، فالعلماء يحددون أمر الله وشرعه، والأمراء يقومون بتنفيذه، والمستنتج من هذا هو دعوة صريحة إلى الفصل بين السلطات، فالعلماء يمثلون السلطة التشريعية، والأمراء يمثلون السلطة التنفيذية، ومن هنا يمكن لنا تحديد مبادئ ابن باديس في النقاط التالية:

1/ الأمة هي مصدر كل سلطة.

2/ الأمة تعين وتعزل الحكام وتحاسبهم.

3/ الأمة تحكم نفسها بنفسها، والحاكم ما هو إلا مجرد منفذ لإرادة الأمة.

4/ تراقب الأمة الحاكم وتسائله عند الحاجة وتستطيع عزله.

5/ الأمة هي التي تضع القانون عن طريق أهل الحل والعقد والحاكم يتولى أمر تنفيذه.

ونشير هنا إلى أن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي طالب بضرورة الاعتراف بالمواطنة للجزائريين على أساس الجنسية الجزائرية، وكذلك بإيجاد حكومة جزائرية تكون مسؤولة أمام برلمان جزائري، وذلك في تقريره الذي رفعه إلى لجنة الإصلاحات الإسلامية في 3 جانفي 1944 (45)، حيث يقول بشأن الجنسية: "إن الشعب الجزائري يرى أن اعتناقه جنسية غير جنسيته طريق إلى الاندماج في حين أنه لا يرضى بفقد شخصيته بأي ثمن كان، فما بالك إذا كان هذا مقابل لا شيء". وانطلاقا من هنا فهو يطالب بـ" إحداث الجنسية الجزائرية بصفة يستفيد منها كل السكان في هذا الوطن بغير تفريق، لا في الجنس، ولا في الدين مع المساواة في الواجبات والحقوق " وحتى يتمكن الإنسان الجزائري من ممارسة مواطنته على أساسها الصحيح يجب إنشاء حكومة جزائرية مسؤولة أمام برلمان جزائري".

مفهوم الديمقراطية عند الاتجاه الشيوعي:

إن الحزب الشيوعي الجزائري ظل تابعا للحزب الشيوعي الفرنسي رغم استقلاله عنه رسميا سنة 1936، إذ بقي يردد أفكار الحزب الشيوعي الفرنسي طروحاته، إلا أن الملاحظ على هذا الحزب هو شروعه في تغيير بعض مواقفه شيئا فشيئا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث وجد نفسه في موقف حرج جدا بعد هذه الحرب باعتباره الحزب الوحيد الذي بقي على الساحة الجزائرية يعارض الاستقلال مهما كان شكله معتبرا ذلك" مشروعا برجوازيا " ومن هذا المنطلق عارض البيان الجزائري بشدة واستنكر انتفاضة ماي 1945 واعتبرها حركة من تدبير الفاشية، بل والأكثر من كل هذا، فإن الكثير من مسؤوليه شاركوا إلى جانب الإدارة الفرنسية في قمعها مما أدى به في نهاية الأمر إلى تخلي

أعداد كبيرة من المناضلين المسلمين عنه، وكذا فشله الذريع في انتخابات الجمعية التأسيسية الفرنسية التي جرت في 2 جوان 1946، وكل هذا أدى بالحزب إلى التفكير الجدي في تغيير سياسته[46].

وبداية شروعه في عملية التغيير جاءت بعد شهر واحد فقط من تاريخ هذه الانتخابات عندما وجهت لجنته المركزية نداء في جويلية 1946 حددت فيه برنامجا جديدا يؤدي تدريجيا إلى إنشاء "جمهورية جزائرية ديمقراطية لها دستورها وبرلمانها وحكومتها لتسيير كافة الشؤون الجزائرية وتكون في علاقة فدرالية مع فرنسا"[47]. واتبع الحزب هذا النداء بمشروع القانون الأساسي للجزائر في 13 مارس 1947 والذي طرح فيه تصوراته للعملية الديمقراطية في الجزائر وكيفية تسييرها[48].

إن أهم ما احتوى عليه هذا المشروع هو المطالبة بمنح الجزائر استقلال ذاتي إداري ومالي واعتبارها إقليما مشاركا في الاتحاد الفرنسي، وتكون ممثلة في مجلسه أي أن الجزائر لا تعد جزءا من الجمهورية الفرنسية وفي الوقت ذاته ليست دولة، بل هي إقليم مشارك وفيما يخص الحقوق والحريات يطبق في الجزائر كل ما جاءت به التشريعات الفرنسية بما فيها الدستور، وكل فرنسي مواطن في الجزائر، وكل جزائري مواطن في فرنسا، وهذا المشروع لا يتحدث إطلاقا على السلطة التشريعية ولا التنفيذية ولا القضائية، وهذا انطلاقا من أنها ستبقى سلطات تحت المسؤولية الفرنسية، ومن هنا فالبرلمان الذي يطالب به هذا الاتجاه يكون مكلفا باختصاصات محددة جدا مثل النظر في كيفية تطبيق القوانين الصادرة من البرلمان الفرنسي في الجزائر.

وينتخب المجلس الجزائري من هيئتين انتخابيتين بالتساوي في انتظار تكوين الأمة الجزائرية، أي امتزاج الأوربيين والجزائريين، والملاحظ أن المشروع لا يشير إلى أن النواب يمثلون الأمة الجزائرية، لأن الحزب لم يكن يؤمن بوجود أمة جزائرية، بل كان يؤمن بأمة جزائرية في طور التكوين.

ويقوم المجلس الجزائري بانتخاب رئيس مجلس الوزراء الذي يختاره بدوره وزراءه، وتكلف الحكومة بتنفيذ القوانين سواء الصادرة عن البرلمان الفرنسي أو المجلس الجزائري، وتضمن الأمن الداخلي فقط، وكل الوزراء مسؤولون جماعيا أمام المجلس الجزائري عن السياسة العامة، وفرديا عن تصرفاتهم الشخصية علما أن نصفهم من الأوربيين، ويعين رئيس مجلس الوزراء في كافة الوظائف المدنية مع ضرورة توقيع الوزير المعني معه، كما يكلف بإرسال القوانين الصادرة عن المجلس إلى رئيس الاتحاد الفرنسي لإصدارها.

وبعد مرور أقل من سنتين من وضع الحزب الشيوعي لهذا التصور الذي لم نجد فيه أي ذكر للجمهورية الجزائرية ولا للبرلمان الجزائري نجده يغير من مواقفه ابتداء من انعقاد المؤتمر الخامس للحزب سنة 1949 حيث جاء في النداء الذي أصدره هذا المؤتمر في 29 ماي 1949 مطالبة صريحة بإنشاء جمهورية جزائرية لها دستورها وحكومتها وبرلمانها المنتخب ديموقراطيا، ويمثل فعلا سكان الجزائر(49).

ونسجل هنا أن الحديث عن التمثيل الفعلي الوارد في هذا النداء يبدو للوهلة الأولى أن المقصود منه كل الشعب الجزائري بكل فئاته وشرائحه الاجتماعية إلا أنه في الحقيقة هو تعبير لا شعوري عن النفور الماركسي من الديمقراطية الليبرالية واعتبارها ديمقراطية مزيفة لا تخدم مصالح البروليتاريا، وهي

المقصود أساسا بالتمثيل الفعلي، وما لجوء الحزب إلى الاعتماد على المفهوم الليبرالي للديمقراطية سوى عمل تكتيكي ناتج أساسا من اعتماد الحزب على مبدأ التدرج في أسلوب العمل، فالحزب الشيوعي الجزائري لا يؤمن بالمبدأ القائل "كل شيء أو لا شيء" والذي يعتبره مبدأ عديم الفعالية، ويرى في المقابل أن أهداف الحزب يجب أن تحقق تدريجيا ، وأبرزها "تحرير شعبنا من السيطرة الامبريالية والإقطاعية والرأسمالية وتجسيد نظام السوفيات"(50).

والملاحظ أن إطارات الحزب الشيوعي الجزائري يعملون جاهدين على تبرير موقف حزبهم المتخاذل من نضال الحركة الوطنية، ومن ثورة نوفمبر 1954 باللجوء إلى اللوائح التي صادقت عليها اللجنة المركزية للحزب في مختلف دوراتها بعد 1949، حيث كانت تقدم مطالب لإقامة جبهة وطنية ديمقراطية وكذا الدعوة إلى النضال في سبيل الاستقلال والتحرير وتطالب بمجلس وحكومة لتسيير شؤون الجزائريين، وتدعو إلى أن ينتخب المجلس الجزائري بكيفية ديمقراطية، وأن تنتخب الحكومة من المجلس وأن تكون مسؤولة أمامه(51).

ويذكر محمد العربي الزبيري أن الحزب الشيوعي الجزائري يهدف من وراء رفعه لشعار الديمقراطية إلى إقامة الجمهورية الجزائرية الديمقراطية في إطار الانتساب لفرنسا المتحررة من الاستعمار والإمبريالية والتابعة للاتحاد السوفياتي في سياستها الخارجية، ويرى أن مفهوم الديمقراطية عند هذا الحزب لا يتعدى حدود الاعتراف بتعايش الأجناس في الجزائر(52).

الخاتمة:

إن أبرز ما يمكن للدارس الخروج به من خلال تحليليه لمسألة الديمقراطية في بعض أدبيات الحركة الوطنية، أن جل هذه الأدبيات تشترك في العديد من النقاط أبرزها:

1/ مبدأ سيادة الأمة باعتبارها مصدر كل سلطة في الدولة.

2/ العملية الديمقراطية هي عبارة عن حكم الشعب بالشعب وللشعب، وهو ما أدى إلى ظهور شعار "من الشعب وإلى الشعب" الذي سيصبح شعارا أساسيا في الجزائر ما بعد الاستقلال.

3/ الاعتماد على المجالس الشعبية المنتخبة على كافة المستويات لتسيير الشؤون العامة.

4/ الفصل بين السلطات وإعطاء أولوية وأهمية خاصة للبرلمان باعتباره المعبر الأساسي عن إرادة الأمة وممارسا للسيادة الوطنية.

5/ الأخذ بمفهوم الطابع الاجتماعي للجمهورية.

6/ الإقرار بالحقوق الفردية والحريات العامة لحركة الصحافة والتعبير وإنشاء الجمعيات السياسية وغيرها.

7/ تركيزها الشديد على مبدأ المواطنة على أساس الاعتراف بالجنسية الجزائرية، والتي برزت بشكل واضح في بيان فبراير 1943 عند مطالبته بوضع دستور للبلاد مبني على أساس المواطنة الكاملة لسكان الجزائر، والمشاركة الحقيقية والضرورية للمسلمين الجزائريين في حكومة بلادهم. وهذه المطالبة والتركيز عليها التي دفعت الحركات السياسية الجزائرية إلى رفض مرسوم 7 مارس 1944 الذي أصدره الجنرال ديغول [(53)] والذي اعتبره فرحات عباس مجرد إعادة بعث

مشروع بلوم-فيوليت الذي تجاوزه الزمن [54] وكرد فعل منه أيضا على هـــذا المرسوم ألف منظمة سماها أحباب البيان والحرية" والتي قامت بتعليق لافتـــات بالعربية في أهم المدن الجزائرية تعلن "لا للجنسية الفرنســـية، نعـــم للجنســـية الجزائرية"، و "تسقط الجنسية الفرنسية وتعيش الجنسية الجزائرية للجميع"[55].

الإحالات

(1) Cland Collot, Jean Robert Henry, Le Mouvement national Algérien Textes 1912-1954 , O.P.U; Alger, 1978 P.P155-165.

(2) محمد العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر. (من منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق1999)ج1، ص36.

(3) هؤلاء الشباب هم مبروك بلحسين، ويحي حنين طالبان بكلية الحقوق وعضوان في لجنة تحرير صحيفة "المغرب العربي" والصادق هجرس طالب في كلية الطب، وكان إصدار هذه الوثيقة بدافع شعور الطلبة الثلاثة ومناضلين آخرين من صفهم بنوع من التميز الشباب جعلهم ينظرون لأنفسهم كحركة تجديدية داخل الحزب، أنظر، محمد عباس: نداء الحق (دار هومة، الجزائر 2001) ص 152.

(4) أنظر ملخص عنها من المرجع نفسه، ص 152، 156.

(5) محمود بوزوزو: "حول المادة 80 سيف دامكليس" (مجلة المنار- الجزائرية) س 2 / ع 16/ 23 جانفي 1953.

(6) أنظر "تصريح ضد المادة 80" في مصدر نفسه ع27/18 فيفري 1953، ص 2.

(7) بوزوز: المرجع السابق.

(8) مالك بن نبي: شروط النهضة. تر/ عبد الصبور، وعمر كامل مسقاوي (دار الفكر دمشق 1979) ص.ص 34، 36.

(9) أنظر التقرير كاملا في Collot, Henry, p.p.171.175

(10) نلاحظ هنا كيف أن الحزب الشيوعي الجزائري مازال يحلم بالمواطنة الفرنسية في الوقت الذي تجاوزتها كل تشكيلات الحركة الوطنية في بيان فبراير 1943، الذي طالبت فيه بجنسية جزائرية محلية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم تمكن الحزب الشيوعي الجزائري من التخلص من طروحات الحزب الشيوعي الفرنسي رغم انفصاله عنه خلال سنة 1936.

(11) انظر التقرير الذي رفعه فرحات عباس بتاريخ 13 جانفي 1944 كاملا في:

Collot , Henry, P.P.175-177

(12) انظر الوثيقة كاملة في المصدر نفسه، ص.ص 300. 304.

(13) ابو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1930.1900 (دار الغرب الإسلامي-بيروت 1992) ط4، ج2، ص 378-379.

(14) بنيامين سطورا: مصالي الحاج رائد الحركة الوطنية الجزائرية، تر/ صادق عماري، مصطفى ماضي (دار القصبة للنشر. الجزائر 1999) ص 97.

(15) أحمد الخطيب: حزب الشعب الجزائري (م، و، ك. الجزائر 1986) ج1 ص 146.

(16) سطورا: ص97.

(17) Kaddache, Mahfoud, Histoire du nationalisme algérien, 1919-1951 E.N.A.L, Alger, 2 ème édition.t2.P908

(18) Ibid. P.882

(19) الخطيب: ص 159 ، سعد الله: الحركة الوطنية ج2 ص 438.

(20) الزبيري: تاريخ ج 2 ص 163.

(21) المرجع نفسه ج2 ص 164.

(22) محمد قنانش، محفوظ قداش: حزب الشعب الجزائري.مجموعة وثائق (د، م، ج، الجزائر 1985) ص 28.27.

(23) سعد الله: الحركة الوطنية. 265/3.

(24) قنانش، قداش: مرجع سابق ص 35.

(25) هذه الأفكار وردت في التقرير الذي رفعه بتاريخ 1944/01/15 إلى لجنة الإصلاحات الإسلامية التي شكلها ديغول بتاريخ 19 أفريل1943، انظره كاملا في: Collot,Henry , 183.185

(26) Ibid

(27) الانتخابات المقصودة هنا هي الانتخابات التشريعية المزمع إجراؤها في 10 نوفمبر 1946.

(28) الزبيري تاريخ الجزائر 150.149/1

(29) المرجع نفسه 152/1.

(30) ولقد حاولت بعض تيارات الحزب في سنتين 1953-1954 حل الأزمة التي وقع فيها الحزب بطرق ديمقراطية لولا تهور مصالي الحاج ومناصريه.

(31) انظر شهادة "عبد الرحمان كيوان" في " محمد عباس" رواد الوطنية (دحلب، الجزائر 1992 ص 118 وانظر اللائحة كاملة في Collot, Henry, pp. 312.318 .

(32) – Shikh Slimane, L'Algérie en armes ou le temps des incertitudes, Casbah Editions, Alger,1998, pp.40-41

(33) Ibid

(34) جيلالي صاري، محفوظ قداش: الجزائر في التاريخ، المقاومة السياسية 1900-1954. تر/ عبد القادر حراث (م.و.ك. الجزائر. 1987) ج5 ، ص22.

(35) Claude, Collot,"L'U.P.A pour la conquête des droits de l'homme et du citoyen, 1937. 1939"(R .A.S.J.E.P, volume 9, n° 4 décembre 1974).

(36) Baghloul, La libération nationale par la voie populaire, L'appel au pays reél (R.A.S.J.E.v9.n°4, décembre 1974, P.222.

(37) Collot, L'U.P.A, oP cit, P988.

(38) يحي بوعزيز: الاتجاه اليمني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه 1912-1948 (د. م. ج. الجزائر 1991) ص 56، 57.

(39) يحي بوعزيز: الايديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية من خلال ثلاث وثائق جزائرية (د.م.ج. الجزائر 1986) ص 60

(40) انظر محتويات المشروع كاملة في Collot, Henry, P.P. 247.260

(41) انظر محتويات البيان في: عبد الرحمان بن إبراهيم بن العقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر. الفترة الثانية 1936-1945 (م، و، ك، الجزائر 1984) ج2 / 399-403.

(42) المرجع نفسه 2/226-227.

(43) الزبيري: تاريخ الجزائر.. 1/ 110.

(44) مجلة الشهاب عدد جانفي 1938، وانظر ذلك أيضا في: عبد الله شريط: مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الايديولوجي في الجزائر (م، و، ك، الجزائر 1986) ص 119، 120.

(45) انظر تقرير الشيخ الإبراهيمي كاملا في Collot, Henry, pp.183.187

(46) Chikh, pp 51. 53

(47) أنظر النداء كاملا في Collot, Henry, pp 228. 234

(48) أنظر المشروع كاملا في المصدر نفسه ص. ص 235. 247، وأيضا، بوعزيز: الايديولوجيات ص23، 43.

(49) انظر النداء كاملا في Collot, Henry : p, 279. 282

(50) انــــظر بيان الـــمؤتمر التأســــيسي للحزب المنـــعقد في 17 - 18 أكــــتوبر 1936 في
Collot, Henry, pp.85.91

(51) الزبيري: تاريخ الجزائر.. 1/ 241.

(52) المرجع نفسه 139/1

(53) عن محتويات هذا المرسوم انظر سعد الله: الحركة الوطنية ج3/ 221.219 .

(54) Collot, Henry, P.P 175.177

(55)سعد الله: الحركة الوطنية 222/3 —وانظر عن هذه الحركة أيضا: الزبيري: تاريخ الجزائر. 64-63/1.

الحركة الوطنية الجزائرية بين النضال القيادي والنضال الجماهيري

أ. أحمد مسعود
جامعة محمد بوضياف

لقد شكلت الوطنية الجزائرية للجزائريين دينا جديدا، وبُعدًا حياتيا غمر هؤلاء، فمع بداية القرن العشرين كانت الجزائر واقعة في مفترق الطرق ، فالأسئلة التي كانت مطروحة هي من نحن ؟ وأي سبيل نتبع ؟ دالة دلالة واضحة على حالة التيه التي كانت عليها !

ذلك أن الجماهير الشعبية التي كان قد فتك بها الفقر والجهل ،كانت خاضعة فكريا وروحيا لأسياد ! يعتبرون كل خطاب عقلاني كفرا وإلحادًا فالحكايات التي كانت تمجد عهد البطولات الإسلامية و الغزوات الكبرى ، ظلت تغذي الأمل في نفوسهم ، وكانت النبؤات العديدة تقنعهم بأن الله لا يخذل عباده أبدا، فالهروب إلى عالم الخيال و الماورائيات كان جوابا قاسيا من دون شك على *إهانات الزمن ونكباته!*.

ويبدو أن الاستعمار قد نجح من دون شك في عزل الإسلام وتفريغه من محتواه الاقتصادية (بعد أن الحق نظام الأوقاف وممتلكاتها بإدارة الاحتلال)وبالتالي أعاق مشاركة المدينة في النهضة الإسلامية والكفاح لأجل استرجاع السيادة المغتصبة ، ولعل ذلك هو الذي دفع بجمعية العلماء المسلمين إلى أن تركز في عملها على التراث العربي الإسلامي لتستنهض به الهمم و تسعى لإيجاد منارات ثقافية داخل المدن تعيد لها وجهها الحقيقي .

لقد عاش الجزائريون المأساة في حواشي المدن وظلوا عرضة لجميع الآفات فلا الإطار التقليدي* للمدينة آواهم بعد أن غدت الثقافة الإسلامية التي احتوتها الطرق الصوفية لا تشكل سوى طقوس أقل ما يقال عنها أنها كرست مظاهر التخلف و الجمود ، ولاهم استوعبوا الثقافة الفرنسية بعد أن قدمت لهم

في قالب أفرغ من جميع مضامينه ، فساروا بذلك نحو الجهل و الأمية مثلما تقاذفتهم الأوضاع الاقتصادية برمتها !.

وهكذا فإن الجماهير الشعبية المسحوقة ظلت ولأسباب ثقافية تتعرف على نفسها في صفوف الأولياء والأعيان الذين كانوا يحثونها على الخنوع، ويبدو أن هذا التصور الشعبي انبنى على أن الأولياء والأعيان لم يكونوا يقلدون الأوربيين خلافا للنخبة الجزائرية المستنيرة المتخرجة من المدارس الفرنسية.

ومع انتشار وسائل الاتصال السريعة والأفكار الجديدة (عبر الصحف،المجلات، الكتب النوادي الجمعيات) والحركية الاجتماعية بفعل (الخدمة العسكرية وحركة الهجرة) مع انتشارها، بدأت سلطة الأشراف والأعيان تتلاشى ،وأخذ إشعاعها يخفت ودعائم تواجدهم تتهافت ، تلك الدعائم التي كانت قائمة على الثروة ، الولاء والعنف أما ثروتهم فإنها لم تعد قادرة على تعهد جيش من الموالين بعد أن عجزوا في الاندماج ضمن الاقتصاد الكولونيالي القائم على التبادل النقدي و الربح المالي، وتمكن المعمرين من السيطرة على التجارة ، الصناعات، و المهن الحرة ، فكان من الطبيعي أن تقلص الثروة يلحقه دائما تقلص النفوذ[1].

كما أن التطور الثقافي الذي واكب الحرب العالمية الأولى تمخض عنه ظهور نخب جديدة حملت معها أفكارا مغايرة تماما لعهد الجزائر القرن التاسع عشر، جعل من الوجهاء والأعيان يمثلون قوة سياسية بالية، بعد أن أضحت إدارة الاحتلال ذاتها تتخلى عن التعامل معهم ورأت أنهم عجزوا عن استيعاب الجماهير الشعبية التي أخذت تتطلع إلى التعبير عن نفسها ضمن أطر جديدة تمكنها من تجسيد مطالبها في الميدان [2].

كما أن زوال سلطة الأشراف والأولياء جاء نتيجة تقلص ثروتهم ودائرة الموالين إليهم فإن عنفوانهم سرعان ما أفل في نفوس الجماهير الشعبية بعد أن واجهته الفصائل الصدامية التي أوجدها حزب الشعب الجزائري (1937-1939) و التي كانت تجوب القرى و المداشر وتواجه عملاء الأعيان، فحررت بذلك النفوس وانتقل بذلك الرعب المسلط على الشعب إلى الأعيان أنفسهم .

وعليه فإنه خلال عقد من الزمن (1926-1937) تغيرت العلاقات ما بين مختلف الجماعات النخبوية، تلك النخبة التي ظلت إلى تلك الحين لا تعبر على كل القطاعات الاجتماعية، بل كانت تشكل عصبا مرتبطة بجماعات ضيقة زعمت امتلاك المعرفة (الدراية بشؤون الدين و الدنيا) والتمثيل ، فمن رحم المأساة التي عاشها الجزائريون، ومن حالة الاستلاب التي عمل الاستعمار لأجل تكريسها بغية جعلهم رعايا مطيعين، من هذه الأوضاع انبعثت الجزائر الفتاة بانبعاث الوطنية الجزائرية من جديد في شكل عقيدة جديدة اعتنقها الجزائريون للتخلص من نير الاستعمار، التي أذهلت المتتبعين لأوضاع الجزائر على عهد الاحتلال أن هذه الاستفاقة ظهرت في المدن وعلى حواشيها ، ذلك أن حروب الإبادة التي شهدها الريف الجزائري و القوانين الزجرية التي انجرت عنها دفعت هم نحو هجرة مزدوجة سواء إلى الداخل و الخارج، وغني عن التعريف لما لدور الهجرة من أثر بالغ الأهمية في انتعاش الحركة الوطنية الجزائرية وحينئذ بدأت عملية استرداد المدينة أو تعريبها [3] أو ماعرف بالغزو المسالم للأهالي للبلد [4] فمع تنامي حركة الوعي الوطني بظهور الأحزاب السياسية بعد ح.ع.1 أنساق الجزائريون مع حركة النجم الشمال الإفريقي (1926-1937) ثم مع حزب الشعب الجزائري (1937-1939) وأثناء ح.ع.2 مع حركة

أحباب البيان (مارس 1944، ماي 1945) انساقوا لخوض حرب الاستقلال ضمن استراتيجية جديدة تركزت على أساليب وطرق نضالية جديدة لم تعهدها الجزائر من قبل بعد أن غدت المدن مؤهلة للعب دور فعال في معركة لاستقلال، وهي بذلك أصبحت ميدان بكر لنشاط تيارات الحركة الوطنية وشكل جمهور الجزائريين الذين كانوا على الحواشي نبعا لا ينفد تستعين به للتأكيد على مطالبها عبر تعبئتهم وتجنيدهم في صفوف خلايا حزب الشعب الجزائري ؛ وأصبح بذلك مفهوم الحزب يعوض لدى الجزائريين مفهوم القبيلة ومفهوم المظاهرات والاعتصام يعوض مفهوم الجهاد ،وهي بذلك أي الحركة الوطنية الجزائرية كانت تبطل فكرة الاستكانة للوجود الفرنسي بالجزائر التي ظل رواد مدرسة التاريخ الفرنسية يرجونها لها بغية إضفاء الشرعية على ما قامت به إدارة لاحتلال، ولئن وردت هذه الفكرة فإنها لم تشمل جميع الجزائريين باستثناء جنوح ثلة منهم، آثرت المذلة و الخضوع للاستعمار ، وانسلخت بذلك عن كيانها خدمت لمشروع التعايش – المزعوم – الفرنسي الجزائري ،وبناء على ذلك قامت مدرسة التاريخ الفرنسية بالتأسيس لهذه الفكرة واعتبرت أن الجماهير الشعبية كانت تحمل القابلية للاستكانة (4) ، ومنه خلصت إلى أن تاريخ النضال الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي لم يكن البتة نضالا جماهيريا لأجل استرجاع السيادة الوطنية ، بل كان عبارة عن حركة عصيان و تمرد قادها زعامات قبلية مثلما كان الحال بالنسبة للمقاومات الكبرى التي شهدها الجزائر طيلت القرن 19 م، أو حركة تمردية ورطت فيها الجماهير جراء حالة الانسداد السياسي التي كانت تمر عليها الجزائر خلال فترة بين الحربين العالميتين وبعد ح.ع.II ، بعد أن تأثر قادها بأفكار الشيوعية العالمية وأفكار القومية

العربية ، وهو ما ينطبق على حد تعبير رواد مدرسة التاريخ –الفرنسية. على مظاهرات الثامن ماي 1945 ثم أثناء وخلال الثورة التحريرية، وهي بذلك أي المقاومات وحركة الاحتجاجات و الثورات ... لم تكن تحمل مشرعا سياسيا هادفا .

ومن هذا المنطلق حاول المؤرخون الفرنسيون تقويض أسس نضال الحركة الوطنية الجزائرية تارة بالتقزيم من حجم استيعابها للجماهير الشعبية ، ومحاولة حصرها في مجموعة من بعض الزعامات الطرقية التي ظلت تحن إلى عهد البطولات و الغزوات الإسلامية الكبرى – مثلما كان الأمر بالنسبة لمقاومة الأمير عبد القادر – أو زعامات قبلية فقدت مركزها الاجتماعي بفعل سلسلة القوانين الخاصة التي تفرضها إدارة الاحتلال – وهو ينطبق على ثورة الحاج المقراني (5) وتارة أخرى بالتشكيك في أساليب نضالها وأهدافها و تضليل الرأي العام عن طريق محاولة إثبات أنها تستلهم أفكارها من قوى معادية لمبادئ الحرية تأثرت بثقافة عسكرية كانت وليدة تلك الفترة – إشارة إلى انتشار مبادئ الفاشية و النازية خلال فترة ما بين الحربين – وهو التفسير الذي يقع على تلك المنظمات الشبه عسكرية التي أنشأها حزب الشعب الجزائري قبيل اندلاع ح.ع.2 منها اللجنة الخضراء 1938 واللجنة الثورية لشمال إفريقيا ثم منظمة الشباب و الجيش الثامن سنة 1939 (6).

و الظاهر أنه بالرغم ما قامت به إدارة الاحتلال طيلت قرن وربع قرن من حركة طاحنة سعت لتفكيك المجتمع الجزائري لصنع الجزائر فرنسية والحفاظ عليها فإن مؤرخي فترة ما بعد الاحتلال سعوا لأجل استلاب الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري و تقزيم نضال أجيال برمته، لكن المتتبع لوقائع تاريخ الجزائر،

ستستوقفه محطات في نضال الحركة الوطنية الجزائرية ، هذه المحطات كانت حصيلة لتجارب مقاومات عسكرية كبرى انتهت بالفشل مع نهاية القرن 19 م لكنها توجت بنضال سياسي بدأت بوادره تظهر مع مطلع قرن 20 في شكل عرائض ، جمعيات ونوادي نضال كان أكثر فاعلية تمكن من تأ طير الجماهير الشعبية في أطر نضالية جديدة - الاحتجاجات المظاهرات- هذه الأطر أعطت للحركة الوطنية الجزائرية فاعلية وديناميكية جديدتين كانتا كفيلتين لتبلور مفهوم الوطنية في شكلها الحديث ، فالمظاهرات كأسلوب سياسي لم تعد تقتصر على الوجهاء و الأعيان مثلما كان الحال في بداية لاحتلال بل أخذت بُعْدا جماهيريا تشكل مع مر الزمن حاملا معه كل المآسي التي عاشتها الجماهير المسحوقة ، فذكرى الاحتلال و المجازر التي ارتكبها جيش الاحتلال وأعمال النهب و السلب التي طالت الممتلكات والمساس بالمقدسات قد أصابته في أعماقه، ليضاف إلى ذلك مزيد من الإذلال بمأساة كان وقعها شديداً على نفوس الجزائريين إثر الاحتفالات بالذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي سنة 1930 لقد أحيت فيه من جديد جراحه وجعلته يعيش تارة أخرى وقع الإهانة، فكانت بذلك حالة التوترات الاجتماعية والاضطرابات التي شهدها الجزائر خلال فترة ما بين الحربين عبر حركة الاحتجاجات التي اجتاحت مدن قسنطينة و العاصمة ووهران سنة 1934، رد فعل طبيعي ضد سياسة القمع الاستعماري التي كانت إدارة الاحتلال تمارسه، وما تجربة المؤتمر الإسلامي سنة 1936 إلا محاولة توحيدية لنضال الحركة الوطنية الجزائرية ، لتثمن ضمن تجربة ثانية كانت أكثر وقعا في إطار حركة أحباب البيان و الحرية (مارس 1944)، انتهت بمظاهرات كبرى في 8 ماي 1945 كادت أن تقوض أسس الغطرسة الاستعمارية وأرهبت

عتاة المعمرين وجعلت من رواد الفكر الاستعماري يقفون حيارى حيال حركة الزخم الكبير التي اجتاحت مدن الجزائرإذاك.

ويبدو للملاحظ المنصف أن حركة الثامن من ماي 1945 انطلقت منذ شهر أفريل عمليا في شكل حركة احتجاجية ثم مظاهرات لتنتهي في الأخير بانتفاضة عارمة شكلت حركة من السيل الجارف أساسه الجماهير الشعبية ضمن إطار واحد، أي حركة أحباب البيان ونحو هدف واضح وهو استرجاع السيادة الوطنية المغتصبة حينها علل رواد مدرسة التاريخ الاستعمارية حركة الزخم الكبير هذه بأنها مغامرة ورطت فيها الجماهير الشعبية من طرف قادة الأحزاب المنحلة بفعل حالة الانسداد السياسي التي آلت إليها أوضاع الجزائر بعد رفض ديغول لبيان فيفري 1943 [7].

وسيتواصل هذا التضليل و التزييف لتاريخ الجزائر لاحقا، فإضراب الثمانية أيام الذي دعت إليه ج.ت.و في فيفري 1957، و الذي انتهى بمعركة الجزائر، اعتبر أيضا دلالة عن حالة اليأس التي وصل إليها قادة الثورة —التي ألقت بالجماهير العزّل لمواجهة الجيش، و هو نفس الموقف الذي سجلناه إثر مظاهرات الحادي عشر ديسمبر 1960التي جاءت لتفند كل هذه الأباطيل وتؤكد أن حركة الزخمَ الكبير التي كانت تجتاح بين الفينة والأخرى مدن الجزائر كانت حصيلة لمسار مشترك من المعاناة ، عبرت بدورها عن غضب جامح بغية وضع حد لمأساة جارحة .

الهوامش

1-اندري نوشي : دور المدن الجزائرية في العقد الثامن من ق 19 بحوث الندوة الأولى تاريخ الحركة الوطنية التونسية ماي 1981.

2-محمد حربي : الثورة الجزائرية وسنوات المخاض ت.ترجمة عيسى حنفي

•-مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة و المجتمع : ط م.و.ك الجزائر 1983 ص.76.

3-M[ed] Harbi : le .FLN, mirage et réalité, des origines à la prise du pouvoir 1945-1962, Alger, 1993 P.26.

4- جيلالي صاري : ظاهرة التزييف قبل الثورة الجزائرية .مجلة الثقافة عدد 83 الجزائر 1984.

5-M[ed] Harbi, le FLN, mirage et réalité, op.cit. p 274.

6-Charles Robert Ageron : les Algériens musulmans en France 1971-1919 Ed, Presses de la cité, Paris 1968. T:I.p225.

7- محمد العربي الزبيري : الحركة الوطنية الجزائرية في مرحلة النضج، مجلة الرؤية ط.المركز الوطني للدراسات والبحث في ح.و.ج.وثورة أول نوفمبر 1954.

-Philippe Trépier, Autopsie de la guerre d'Algérie, Ed , France Empire, Paris 1972

الممارسة الانتخابية أثناء الحقبة الاستعمارية

1830 –1962

معزوز هدى
إطار ة من المركز

مدخل

إن اهتمام المجتمع الدولي بحقوق الإنسان التي تعبر عن مجموع القواعد والمبادئ الدولية التي قبلت بموجبها الدول الالتزام القانوني والأخلاقي، بالعمل على تعزيز وحماية حقوق الإنسان والشعوب وحرياتها الأساسية قد بدأ بمكافحة المتاجرة بالرقيق (مؤتمر 1885). وقد كان من نتيجة الثورة الفرنسية، الإعلان عن تلك الوثيقة(وثيقة حقوق الإنسان) التي تشمل على مقدمة و 17 مادة، ومن ضمن ما تضمنته: " أن القانون هو الإعراب عن إرادة المجتمع، ولكل المواطنين الحق في أن يشتركوا بأنفسهم أو بواسطة نوابهم في وضع القوانين".

ومن ثمة أصبح للمواطن حق المشاركة في إدارة الشؤون العامة لبلاده إما مباشرة أو بواسطة ممثلين يختارون في حرية. هذا بالإضافة إلى حقه في تقلد وظائف عامة في بلاده. فالقانون يضمن للكل المساواة دون تمييز على أساس الجنس (رجال، نساء) أو اللون والأصل، مع إمكانية استغلال الحقوق السياسية: كحق المشاركة في الانتخابات بالتصويت أو الترشيح.

للشعوب الحق في تقرير مصيرها، ولها استنادا إلى هذا الحق في أن تقرر بحرية كيانها، وأن تواصل في نفس السياق نموها الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي، لأن إرادتها هي مناط سلطة الحكم، والتي يجب أن تتجلى من خلال انتخابات نزيهة، تجرى دوريا بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة كما سبق أن ذكرنا.

إن الممارسة الانتخابية تنمو في البلدان التي تتمتع بحريتها واستقلالها ومن خلالها تتوطد دعائم الدولة وتستقر عبر مشاركة الجميع بواسطة

الانتخابات والاستفتاءات التي تصل بين الحاكم والمحكوم؛ كما تكون التعبير عن التآزر لإرساء أسس العدالة والديمقراطية.

هذا ما لم تعرفه الجزائر في ظل النظام الاستعماري الفرنسي الذي اغتصب السلطة بالقوة، وشرد أفراد الشعب الجزائري وحرمهم من حقهم في تسيير شؤون بلادهم حسبما تقتضيه المصلحة العليا للوطن، بيد أن الشعب الجزائري لم يقف مكتوف الأيدي إذ عبر عن رفضه من خلال الثورات والانتفاضات الشعبية واللوائح والعرائض.

وفي مواجهة هذه المقاومة التي لا نظير لها في التاريخ، لجأت القوات الغازية إلى شتى أنواع الخدع والحيل لتوهم الشعب الجزائري بأنه في ظل نظام ديمقراطي عن طريق انتخاب ممثليه في المجالس التي أحدثها الاستعمار للتضليل من جهة، ولكسب أعوان وأنصار له من الجزائريين من جهة ثانية؛ خاصة بعد أن أعيته الحيل في سياسات الاندماج والتجنيس، حيث سن قوانين تنص على تجنيس بعض الجزائريين وحقهم في انتخاب نواهم على أن يكونوا في الدرجة الثانية. وبعد اشتداد الحركة الوطنية، عملت فرنسا على ضم الجزائر واعتبارها مقاطعة فرنسية وسكانها فرنسيون مسلمون.

ومع ذلك فإن الانتخابات التي جرت في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي عرفت كل أنواع التدليس والتزوير- وانتخابات "نجلان" مشهورة في هذا الصدد- الأمر الذي عجل باندلاع ثورة أول نوفمبر المباركة.

و هذه الدراسة المتواضعة، محاولة لرصد حركة الانتخابات في الجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية ولكنه بوثائق ونصوص تشريعية نادرة .

التقسيم الإداري للجزائر:

بدأت السياسة الفرنسية للإدماج الإداري للجزائر منذ سنة 1845، وذلك بعد إدخال مصاريف وميزانية الدولة سنة 1844.

وقد قسمت الجزائر بموجب الأمر المؤرخ في 18 أفريل 1845 إلى ثلاث (3) عمالات: الجزائر، قسنطينة، ووهران؛ وهي تضم أقاليم مدنية خاضعة لنفس النظام أي الفرنسي. كما اعتبر مرسوم 4 مارس 1848 الجزائر جزءا لا يتجزأ من الأقاليم الفرنسية، ولذا اتخذت مختلف الإجراءات للقيام بالدمج الإداري للبلد الأم بالجزائر كليا.

أما بالنسبة لدستور04 نوفمبر 1948 فقد أنشأ 3 عمالات مع مجالس عامة وبلدية، وهي منتخبة من قبل الأوروبيين بالإضافة إلى مكاتب عربية لها نفس صلاحيات المكاتب العربية العسكرية. [1]

قانون سيناتوس كونسولت المؤرخ في 22 أفريل 1863، اعترف للعروش بملكية الأقاليم التي ينتفعون بها، حيث اتخذت التدابير اللازمة لتسهيل الملكية الفردية وحددت 3 عمليات.

-تحديد الأقاليم بالنسبة للعروش.

-تقسيم أو توزيع الأراضي بين مختلف الدواوير مع الاحتفاظ بالأراضي التي تكتسي طابع الأملاك العمومية.

-وأخيرا، وضع الدوار المحدد إقليميا والذي سيصبح فيما بعد قاعدة للبلدية وللتنظيم البلدي الجزائري ولكن مع صدور المرسوم المؤرخ في 20 ماي 1865، قسم كل التراب إلى بلديات، والإقليم العسكري إلى بلديات مختلطة (التي يقطن بها الأوروبيون والمسلمون)-وكذا إلى بلديات فرعية لجمع القبائل والدواوير.

"القانون المشيخي" (sénatus consulte) المؤرخ في 14 جويلية1865:

اعتبر هذا التشريع الجزائريين رعايا فرنسيين، يخضعون لأحكام الشريعة الإسلامية، فإن طلب أحدهم الجنسية الجزائرية، فإنه يحصل عليها، ولكنه في هذه الحالة يصبح خاضعا للقانون الفرنسي، وبهذا أصبح الجزائريون فرنسيين من ناحية، ورعايا فرنسيين من ناحية أخرى. وقد أوضح قرار 1865، أن الجنسية الفرنسية غير متناسبة مع وضعية المسلم الجزائري ما دام أنه يعيش بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية.

حقوق الجزائريين السياسية:

انطلاقا من المادة الأولى من قانون سيناتوس كون سولت المؤرخ في 14 جويلية 1865، تقرر المبدأ الذي أصبح الجزائريون بموجبه رعايا فرنسيين وليسوا مواطنين فرنسيين، مع أنه وردت استثناءات على هذا المبدأ، إذ أمكن للجزائريين شغل عدد معين من الوظائف والأعمال المدنية (ماعدا وظائف السلطة) مع التقييد ببعض الالتزامات للانضمام في الجيش، وبالتالي احتلال بعض الرتب[2]

وقد نصت المادة الأولى على أنه:" يعتبر الأهالي المسلمون فرنسيين، ولكن تسري عليهم أحكام الشريعة الإسلامية، ويمكن استدعاؤهم للانضمام لصفوف الجيش أو إلى وظائف مدنية بالجزائر، كما يمكنهم التمتع بنفس حقوق المواطن الفرنسي وفي هذه الحالة تطبق عليهم القوانين المدنية والسياسية لفرنسا".

يعتبر هذا النص أساسا لسياسة الإخضاع المعتمدة من طرف النظام السياسي والإداري الجزائري إلى غاية صدور قانون 7 ماي 1946.[3]

ولكي يتمكن من اكتساب نفس الحقوق السياسية التي كان يتمتع بها الفرنسيون كانت هناك وسيلة واحدة وهي: التجنيس .

ومع ذلك كان عدد الجزائريين المتجنسين ضئيلا نوعا ما، كون المتجنس يخضع بعد ذلك للقانون الفرنسي وليس للشريعة الإسلامية. ولهذا السبب اعتبر كل متجنس مرتدا-تمرير الشيخ ابن باديس فتوى تندد بعملية اكتساب جنسية غير مسلمة- جانفي 1938 -إلاّ أن بعض الموظفين والمعلمين طالبوا بالتجنس للتمتع فقط بنفس الحقوق والفوائد المادية التي كان يتمتع بها الفرنسيون آنذاك.

فسياسيا كان للعمالات الجزائرية تمثيلا برلمانيا شكليا وقد خوّل لها المرسوم المؤرخ في فيفري 1871 الحق في التمثيل بنائبين اثنين (1)، كما منحها القانون العضوي المؤرخ في 30 نوفمبر 1875، نائبا في كل عمالة ثم نائبين(2) اثنين في جويلية 1881[4]

أما القانون الدستوري المؤرخ في 1875/02/24 وقانون 1884/12/09، فقد منحا لها ممثلا واحدا في مجلس الشيوخ، وفي كل عمالة من عمالات الجزائر .

أنواع المجالس بالجزائر:

-المجلس البلدي:

كان المجلس البلدي يضم فئتين هما: المستشارون الفرنسيون والأهالي المستشارون.

لقد كان للجزائر الحق في 36 مستشارا فرنسيا و12 ممثلا من الأهالي يمثلون الأقلية ضمن المجلس ولا يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها المستشارون

الأوروبيون، والأهالي المستشارون. قبل سنة 1919، لم يكن بإمكانهم انتخاب رئيس بلدية[5]

أما سنة 1914، فقد كان للجزائريين الحق في انتخـــاب أعضـــاء في المجالس البلدية؛ ويقدر عددهم بأربعة (4)، في حالة ما تراوح عدد السكان من 100 إلى 1000 شخص؛ وممثل واحد(1) إذا قدر فـــائض ســـكاني ب 1000 جزائري(لكن دون تجاوز ثلثي عدد المجلس)، والذي كان يقدر آنذاك بأربعين (40) ممثلا منتخبا.

المجلس العام :

أنشئت العمالات الجزائرية تحت ظل الجمهورية الثانيـــة، و لم يكـــن للمجالس العامة آنذاك وجودا إلا ابتداء من سنة 1858، إذ كانت تسير عـــن طريق المبادئ المحددة في قوانين: 10 أوت 1871 و 31 جويلية 1872 للمجالس العامة بفرنسا. ويضم المجلس العام لعمالة الجزائر واحدا وثلاثين(31) عضوا من طرف الحاكم العام، في حين كان يقدر عدد المستشارين العامين " الأهالي" سنة 1919، بعشرة (10) من مجموع 31 أي ما يمثل الربع من العدد الإجمال

ومع ذلك فقد استثني الجزائريون من المشاركة في انتخابـــات مجلـــس الشيوخ بالرغم من المساواة في الحقوق والرتب بـــين المستشـــارين العـــامين الفرنسيين والأهالي.[6]

المفوضية المالية(délégation financière) :

أنشئت بموجب مراسيم، ويتمثل دورها في تقديم اقتراحات في المسائل المتعلقة بالضرائب والرسوم وكذا في بعض المسائل ذات الطابع الاقتصادي.

ويتم انتخاب المفوضين الأوروبيين مباشرة عن طريق الاقتراع الفردي، أما بالنسبة للمفوضين المسلمين الواحد والعشرين(21)، فينتخب خمسة عشر (15) ويعين الستة (6) الآخرون من طرف الحاكم العام. إلاّ أن مرسوم سنة 1927 رفع عدد المفوضين الأهالي إلى أربعة وعشرين (24)، منهم سبعة عشر (17) مفوضا عربيا، وسبعة (7) مفوضين من منطقة القبائل.

وينتخب المفوضون لمدة ست (6) سنوات قابلة للتجديد كل ثلاث(3) سنوات [7].

و من مهام المفوضية المالية المحافظة على الاستقلالية المالية والاقتصادية للجزائر، و تمثل المكلفين الجزائريين، وتنقسم إلى ثلاث فئات:

- المعمرين
- الأوروبيين
- الأهالي

تنتخب الوفود المالية عن طريق التصويت الفردي في حين كان المفوضون الأهالي لا ينتخبون إلا جزئيا عن طريق هذا الإجراء.

ولكن ابتداء من سنة 1946 وبالاشتراك مع الحاكم العام، فوضت الاستقلالية المالية للجمعية المكلفة بتسيير المصالح الخاصة بالجزائر[8].

أهم التشريعات الخاصة بالانتخابات:

قانون 04 فيفري 1919:

هو القانون الأكثر أهمية بالنسبة للتشريع الجزائر قبل صدور القانون الأساسي للجزائر سنة 1947، وقد منح هذا القانون للأهالي الذين لم يؤدوا

الخدمة العسكرية بعض التسهيلات للحصول على المواطنة الفرنسية ولكن بشرط التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية.

وبهذا رفعت الهيئة الانتخابية العدد إلى 421000 ناخب بعدما كان عددها يقدر ب 5000 ناخب قبل الحرب[9].

وقد حاول أزولاي ((Azoulay)في أطروحته المتناولة للوضعية السياسية للأهالي وتحليل نقدي لقانون 4 فيفري 1919، استخراج نتائج توضح بعض الخاصيات في النص.

فالخطأ الأكبر كان بالنسبة لنا(كما أردف قائلا) في محاولة "إدماج" وفي نص واحد، إجراءات ذات طبيعة مختلفة: اللجوء إلى صفة المواطنة الفرنسية من جهة والتمثيل الانتخابي من جهة أخرى[10]

السنة	1914	1919
الناخبون	719	917
مستشارون في البلدية	6	12
مستشارون عامون في المحافظة	6	10

يبين هذا الجدول ارتفاع عدد المنتخبين والناخبين الأهالي.

إن قانون 4 فيفري 1919 لم يلق تجاوبا من طرف فرنسيي الجزائر وقد عبرت عنه جريدة" Echo d'Alger[11]: بأنه حادث طارئ وضربة غادرة."

وقد تقبل المجلس العام بالجزائر المبادرة التي تقدم بها إميل مورينو (Emile Morinaud) رئيس المجلس الأعلى بقسنطينة- والتي يطلب فيها

مراجعة قانون 4 فيفري 1919؛ والذي خوّل للجزائري غير المتجنس فقط الانتخاب وتعيين ممثلين له بعد ما كان يقتصر هذا الحق على المتجنسين فقط بموجب القانون المشيخي.

فقليل هم الأوروبيون الذين دافعوا عن القانون السابق، فمثلا مدير جريدة " الأخبار" فيكتور بروكون(Victor Borrucand)، لم يتقبل الموضوع الذي قدمه وسط المعمرين للإصلاحات السياسية الواردة في قانون 04 فيفري 1919 واعتبرها ضارة بمصالح المستعمرة.[12]

أما بالنسبة للمسلمين فإن استقبالهم للقانون كان متباينا، فقد رحب المتحدث باسم " الشبان الجزائريين"، وكذا الأمير خالد، بفكرة امتداد التمثيل الذي يشمل المسلمين الجزائريين؛ واعتبره آنذاك خطوة نحو الأمام (مع العلم أنه رفض المواطنة الفرنسية) كما صرح بأن ذلك وهم لأن الشعب الجزائري لم يتقبل ذلك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن السلطات الفرنسية بالجزائر لن تسمح بذلك خوفا من اضمحلال العنصر الأوروبي أمام خمسة(5) ملايين من الأهالي[13]

هذا ما أدى إلى انقسام حركة الشبان الجزائريين وبالتالي انفجار الخلاف بمناسبة تنظيم الانتخابات البلدية الخاصة بالأهالي في نوفمبر 1919.

القانون الأساسي للجزائر 20 سبتمبر1947 :

نوقش موضوع هذا القانون من طرف الجمعية الوطنية خلال شهر أوت من سنة 1947، واعتمد يوم 20 سبتمبر 1947، ب 325 صوتا مقابل 86 مع ملاحظة أن ذلك تم دون موافقة الممثلين الجزائريين.

فقد صوت النواب الاشتراكيون الجزائريون ضد هذا القانون في حين امتنع النواب المسلمون الإثنى عشر(12)، يوجد من ضمنهم نواب من حـــزب الانتصار للحريات الديمقراطية (MTLD)[14] مع العلم أن هذا القانون جاء بعدة إصلاحات منها:

-إنشاء مجلس جزائري مكلف بتسيير المصالح الخاصة بالجزائر بالتنســيق مــع الحاكم العام.

– تطبيق القوانين الخاصة بالمواطنين الذين لا يتخلون عن حالتهم الشخصـــية(هويتهم) وعن تقاليدهم.

– إمكانية الاحتفال بالأعياد الدينية: عيد الفطر – عاشوراء– محرم .

– تنظيم تعليم اللغة العربية عبر المؤسسات[15]

لكن الشيء الذي يجب ذكره هو أنه بموجب هذا القانون بقي التمييز بين المواطنين الفرنسيين وهم غالباً الأوروبيون ولأقلية من المسلمين الذين تبنوا الأمر المؤرخ في 04 مارس 1944 (شكل الفوجان الهيئة الانتخابية الأولى) وبين أغلبية الناخبين المسلمين الذين يشكلون الهيئة الانتخابية الثانية.

فتشكيل المجلس الجزائري كان ب 120 نائبا من بينهم 60 من الهيئـــة الأولى و60 من الهيئة الثانية.

وعند التحليل نجد أن هذا ظلم وجور في التمثيل، فكيف أن السكان الأوروبيين الذين يمثلون أقل من مليون نسمة ينتخبون 60 نائبا لتمثيلهم في حين أن الأمة الجزائرية التي تعد أحد عشر مليونا نسمة لا يساوي احد عشر مـــن السكان الأصليين، وهذا إجحاف وقلة إنصاف.[16]

عند اعتماد المجلس لهذا القانون، رفضه الجزائريون واستقال ممثلو UDMA، مقدمين ثلاث حجج في رسالة مؤرخة في 31 جويلية 1947 ومبعوثة إلى رئيس المجلس والمتمثلة في:

-عدم توفر المصداقية في القانون بسبب غياب الممثلين المسلمين.

-تناقضه مع الدستور لأنه سحب الحقوق المكتسبة من الجزائريين الحاصلين على الشهادة الابتدائية بسبب وضعيتهم المدنية.

-عدم إعطاء أي حق تشريعي للمجلس الجزائري(17).

بعد صدور هذا القانون، تخوفت فرنسا من رد فعل المستوطنين؛ فاستبدلت على إثر ذلك الحاكم العام شاتينيو (Chataigneau) الذي اتهم من قبل المستوطنين الفرنسيين بالضعف والميل إلى الأهالي، بالحاكم "مرسال أدموند نجلان (18).(Marcel Edmond Naegelen)

أهم الانتخابات المنظمة بعد صدور قانون 20-09-1947: انتخابات 04 أفريل 1948:

دعت فرنسا لانتخاب المجلس الجزائري المكون من هيئتين انتخابيتين؛ إذ أعدت العدة لتنظيم هذه الانتخابات، وانتهج" نجلان" كل الأساليب للقضاء على المواطنين ومنعهم من التقدم إلى انتخابات المجلس الجزائري.

وقد تميزت المرحلة ما قبل الانتخابات بجو من الرعب، تمثلت أساسا في منع الاجتماعات الوطنية كتلك الخاصة بالمؤتمر الفيدرالي لمنتخبي حركة انتصار الحريات الديمقراطية .

تم خلالها توقيف المناضلين من بينهم 32 مرشحا، بتهمة المساس بالأمن العام والسيادة الفرنسية(19)، بالإضافة إلى عدم توزيع بطاقات الاقتراع في

المكاتب التي كانت للوطنيين شعبية بها. ضف إلى ذلك عدم احترام مواعيد فتح وغلق مكاتب .

لقد شهدت الإدارة الفرنسية تزويرا فادحا في هذه الانتخابات خلال حكم "نجلان"، وأصبح فيه فن التزوير أسلوبا لا يمكن تجاهله، إذ ارتبط اسمه كمرادف للتزوير.

ملأت الصناديق سلفا لصالح المرشحين الإداريين واستعملت القوة المسلحة (كتائب من رجال الدرك، طوابير من الجنود) للضغط على الناخبين؛ إذ سجل مقتل سبعة (7) ناخبين.

وفي الختام، جرت عملية الفرز في جلسة مغلقة وبدون تحرير محاضر الجلسات، مع سجن عدد كبير من المرشحين الوطنيين[20]

وعشية الإعلان عن النتائج، اعتقل عدد من المرشحين الفائزين من بينهم " العربي دماغ العتروس، الحاج شوشا لي وباقي بوعلام."

في حين كتب م.فونلوبت إسبيريا- النائب التابع للحركة الجمهورية يقول:" إن الناخبين لم يختاروا النواب قط، وإنما الإدارة هي التي عيّنتهم باستخدام وسائل جرّبت سابقا" والمؤسف حقا هو أن استعمال هذه الوسائل لا يكون إلاّ في الجزائر[21]

واعترفت جريدة Alger Républicain بوقوع:" تزوير فاضح في جو من الرعب سمح بانتخاب سبعة وعشرين (27) مترشحا من الإدارة".[22]

وكرد فعل على هذا التزوير الفادح على "الطريقة الناجلانية"، كما كان يقال، بعث ممثلو حركة الحريات الديمقراطية رسالة احتجاج إلى الحاكم العام، كما ندد المكتب السياسي للـ UDMA بالضغوط التي سبقت انتخابات

المجلس الجزائري يومي 11 و12 أفريل 1948؛ والتزوير الفاضح الذي تبع ذلك أن الحاكم العام " نجلان" نصب – مجلسه- يوم 22 أفريل 1948 [(23)]

وخلالها أبعدت كل أحزاب الحركة الوطنية وانتزعت منها مقاعدها سواء في المجلس الجزائري أو في المجالس الأخرى، وحل محلهم أناس ينتمون للإدارة الفرنسية.

الانتخابات التشريعية للمجلس الوطني الفرنسي 17 جوان 1951:

تلت هذه الفترة الإعلان عن القانون الأساسي للجزائر سنة 1947 واستقالة الحاكم العام" نجلان" واستخلافه "بليونا ر"الذي اعترف في أول بلاغ فرنسي باندلاع ثورة أول نوفمبر 1954

وأثناء تنظيم الإدارة الفرنسية للانتخابات التشريعية الخاصة بالمجلس الوطني الفرنسي يوم 17 جوان 1951، فقدت حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD مقاعده الخمسة (5)، كما جرد حزب البيان في كل النواحي التي تقدم فيها، حتى بولاية سطيف أين تقدم السيد "فرحات عباس"

الانتخابات المنظمة خلال ثورة التحرير الوطنية 1954-1962:

فوض القانون الدستوري المؤرخ في 3 جوان 1958 السلطة لحكومة "دي غولDe Gaulle "لمراجعة دستور 1946.

وفي 28 سبتمبر 1958، قدّم مشروع الدستور الجديد للاستفتاء، ثم نشر بتاريخ 04 أكتوبر 1958 وكان ذلك بداية لمرحلة الجمهورية الخامسة

وقد جرى الاستفتاء أيام 27-28-29 سبتمبر 1958، أي بعد ثمانية(8) أيام من إنشاء الحكومة المؤقتة الجزائريةGPRA؛ التي اعترفت بها إحدى عشر (11) دولة من يوم الإعلان عنها.

مع العلم أن الثورة الجزائرية قد رفضت كل الادعاءات والاقتراحات التي تعتبر الجزائر جزءا لا يتجزأ من فرنسا. وشنت الحملة الانتخابية آنذاك حول الاستفتاء بالجزائر تحت شعار:"الجزائر فرنسية لكن الشعب الجزائري إن كان راغبا في السلم فإنه يطالب بالسلم ضمن الاستقلال ومع حزب جبهة التحرير الوطني[24]

كما نظمت ما بين سنوات 1959 و1962 عدة انتخابات: مجلس الشيوخ، البلدية، الإقليمية...الخ لإكمال المسار الانتخابي دون مراعاة لمطالب الشعب الجزائري إلى غاية آخر استفتاء المؤرخ في 01-07-1962 الذي دعا إلى اعتراف فرنسا باستقلال الجزائر، طبقا لاتفاقيات أيفيان المبرمة يوم 18 مارس 1962.

الخاتمة

لقد أصدرت السلطات الاستعمارية الفرنسية جملة من القوانين والتشريعات التي تدعم وجودها في الجزائر، وتمكن مستوطنيها من الاستيلاء على الجزائر وما فيها، في حين حاولت تجريد الجزائريين حتى من قيمهم الحضارية والثقافية.

وقد عمدت فرنسا إلى سياسة ذر الرماد، حيث أوجدت صيغا انتخابية لتظهر للعالم أنها وفية لمبادئ الديمقراطية بسنها بعض القوانين التي حاولت دمج الجزائريين والزج بهم في سلسلة من الانتخابات المزورة، الأمر الذي أسفر على خلاصة، اقتنع بها الوطنيون مؤداها فشل طريقة استرجاع الاستقلال والحقوق الوطنية في ظل القوانين والتشريعات الاستعمارية.

وبعد إطلاعنا في هذا الملف المبسط على أهم الانتخابات التي جرت في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، نتوصل إلى نتائج جد سريعة عن السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر.

فقد عمدت إلى استخدام مختلف الأساليب للإبقاء على الجزائر مستعمرة خاضعة للإدارة الفرنسية، و لم تتورع حتى في استخدام المظاهر الشكلية للديمقراطية كالانتخابات وإنشاء المجالس والجمعيات، كما أنها عملت على ضم الجزائر بالقوة لفرنسا وعندما أعيتها الحيل حاولت تجنيس الجزائريين مع احتفاظهم بالأحوال الشخصية الإسلامية. غير أن ذلك سقط أمام اندلاع ثورة نوفمبر المظفرة سنة 1954.

كرونولوجيا الانتخابات

-نوفمبر 1919: تنظيم الانتخابات الخاصة بالبلدية، ضمت القائمة 3 قـــوائم، فازت خلالها قائمة الأمير خالد إذ تحصل كل ممثل ما بين 824-940 صوتا.

-جانفي 1921: تنظيم الانتخابات الخاصة بالبلدية، فازت فيها قائمة الأمـــير خالد كليا، بنفس البرنامج السياسي والاجتماعي المقدم خلال انتخابات 1919.

-أفريل 1937:تقدم حزب الشعب الجزائريPPA ، إلى الانتخابات الخاصـــة بالبلدية التكميلية بقالمة بمرشح واحد يدعى "عبد القادر بن حرقة". وهذه الجرأة أدهشت الأوروبيين:" التقدم إلى مجلس فرنسي ببرنامج وطني جزائـــري ولأول مرة."

-جوان 1937: تقدم حزب الشعب الجزائري، إلى الانتخابات الخاصة بالبلدية بالجزائر،إذ سجل اقتراع 60 % من الناخبين المسجلين(تقدم 2188 على 3163 مسجلا.

- 1939الانتخاب الإقليمي(الكنتوني) آخر معركة انتخابيـــة عشـــية اندلاع الحرب العالمية الثانية.

- 27جويلية1945: تنظيم انتخابات إقليمية أخرى.

- 23و30 سبتمبر 1945: تنظيم انتخابات إقليمية.

- 21أكتوبر 1945:تنظيم انتخابات تشريعية، لوحظ فيها عدم مشاركة الوطنين الجزائريين.

- 08 ديسمبر 1946 و 24نوفمبر 1956 :فوز ال "UDMA"في انتخابات المجلس الديمقراطي وامتناع حركة انتصار الحريات الديمقراطية ال MTLD عن الترشيح.

وقد حصل حزب UDMA على أربعة(4) مقاعد من بين سبعة (7)، وبهذا كان للحزب أربعة (4) مستشارين(هذا ما أدهش الإدارة)؛ مما سمح بالتقدم والتعريف بمشروع الدستور الجزائري.

- أكتوبر 1947 :مشاركة حركة انتصار الحريات الديمقراطية ال MTLD في الانتخابات الخاصة بالبلدية إلى جانب الحزب الاشتراكي والبيان وفوزه وحيازته لأغلبية المقاعد.

- 17جوان 1951 : تنظيم انتخابات تشريعية لتجديد المجلس الوطني الفرنسي، فقد خلالها حزب الحركة الديمقراطية، مقاعده في حين انهزم حزب البيان في كل النواحي التي تقدم بها.

- أفريل 1952 :انتخابات المجالس البلدية ومقاطعة حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية للانتخابات الخاصة بالمجلس الجزائري.

- أفريل 1953 : انتخابات المجالس البلدية ومقاطعة حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية للانتخابات الخاصة بالمجلس الجزائري.

- 31جانفي و7 فيفري 1954 :بمناسبة التجديد الكامل للمجلس الجزائري، فقدت على إثره حركة انتصار الحريات الديمقراطية كل مقاعدها.

- فيفري 1954 : انتخابات المجالس البلدية.

- 28سبتمبر 1958 :استفتاء حول الدستور الجديد.

- 30نوفمبر 1958 :الانتخابات التشريعية للمجلس الوطني بفرنسا.

- 21ديسمبر 1958:انتخابات رئاسية، ينتخب خلالها "دي غول" رئيسا للجمهورية الفرنسية.
- 24إلى 1959/04/26 : الانتخابات الخاصة بالبلدية.
- 31/05/1959انتخابات مجلس الشيوخ
- 29/05/1959انتخابات إقليمية.
- 08/01/1961استفتاء حول تنظيم السلطات العامة بالجزائر.
- 01/07/1962استفتاء من أجل حق تقرير المصير والمصادقة على اتفاقيات" أيفيان"، مما أدى إلى الاعتراف بالاستقلال الجزائري يوم 03 جويلية 1962.

الهوامش

1- Claude Collot, p. 10
2- Kaddache Mahfoud, La vie politique à Alger de 1919 à 1939 p 22.
3-Claude Collot , les institutions de l'Algérie durant la période coloniale de 1830-1962- p 10.
4- Kaddache Mahfoud , La vie politique à Alger de 1919 à 1935 , SNED, p.2
5- Ibid,pp23-24.
6 -bid.p23
7-Echo d'Alger , 22 avril 1919
8- Kaddache Mahfoud , La vie politique à Alger de 1919 à 1935 , SNED ; p 40
9-Ibid, p 41.
10-ibid, p38.
11- Azoulay (Emile Edmond) , De la condition politique des indigènes Musulmans d'Algérie. Essai critique de la loi du 04 février 1919 – Thèse de Droit.
12- Kaddache Mahfoud , Histoire du nationalisme algérien ,Question Nationale et Politique algérienne 1919-1951, p 770.

13-نظر الملحق: القانون العضوي للجزائر – الجريدة الرسمية الجزائرية.

14- د. يحي بوعزيز: السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (1830-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 1.

15- Kaddache Mahfoud , Histoire du nationalisme algérien, Tome II, pp771-772.

16-د يحي بوعزيز: السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري 1830-1954

17- Kaddache Mahfoud , Histoire du nationalisme algérien, Tome II.p.796

18-د. يحي بوعزيز: السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (1830-1954) ص 124

19- Ibid, p 796

20- Kaddache M., Tome II, pp795-796

21-د. يحي بوعزيز، ص 124

22- Ibid, Alger Républicain avril 1948, 1 ère page .

23- Ibid, date du 22 avril 1948

24-الانتخابات في الجزائر ما بين سنتي 1951-1954: مذكرة مقدمة من طرف لبن بحلوب آمينة تحت أشراف الأستاذ: م. قداش جامعة الجزائر – دورة جوان 1980

نشأة الصحافة في الجزائر

أ.كرليل عبد القادر

يرى أغلبية المؤرخين، والباحثين في تاريخ الجزائر عامة والجانب الإعلامي خاصة بأن ظهور الصحافة المكتوبة في الجزائر يعود إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي عام 1830[1] .

يقول زهير إحدادن في إحدى محاضراته التي ألقاها حول موضوع الإعلام قبل الثورة : " من المعلوم أن الصحافة ظاهرة جاء بها الاستعمار إلى الجزائر ، وعندما بدأت تنتشر في الأوساط الإسلامية الجزائرية ، كان الجزائريون هم الذين كانوا يحركونها ، وكانوا يقصدون بذلك إقناع المسلمين الجزائريين بأن أحسن وسيلة يستعملونها للدفاع عن حقوقهم هي وسيلة الصحافة ، وأن هذه الوسيلة تفيدهم أكثر ما تفيدهم الأسلحة الفتاكة التي لا تطرح المشكل أو المشاكل و إنما تزيد في تعقيدها ."[2]

فقبل تاريخ 1830 لم تشهد الجزائر ميلاد صحيفة إعلامية، و هذا التأخر لا ينسب للجزائر فقط ، و إنما حتى العالم العربي الذي شهد بدوره تأخرا في هذا الميدان باستثناء جريدة واحدة أصدرها محمد علي بالقاهرة عندما كان واليا على مصر أيام الدولة العثمانية ، في إطار إصلاحاته المشهورة سنة 1828 باللغتين العربية و التركية.[3]

إن جذور الصحافة في الجزائر ، تعود إلى بداية احتلال الفرنسيين للجزائر، وقد كان هؤلاء مصحوبين بمختلف أنواع المعدات العسكرية و أفراد رجال الثقافة و الإعلام المزودين بدورهم بالوسائل الإعلامية ، من مطبعة و هيئة التحرير ، انكبت على الفور على نشر جريدة تدعى "*لستفيت دالجي*" (Estafette d'Alger)[4]

هي أول جريدة تصدر في الجزائر باللغة الفرنسية ، يشرف عليها ضباط من الجيش الفرنسي[5]، وكانت تتولى جمع سلسلة من الأخبار و المعلومات التي لها صلة بما يجري من مستجدات عن السياسة الفرنسية و عن الحملة الفرنسية التي يقودها الجيش الفرنسي المتواجد في الجزائر .

و بعد أن تمكن الغزاة من احتلال الجزائر، و المكوث فيها تم الاستغناء عن هذه الجريدة التي لم تر الوجود سوى في عددين فقط.[6]، لأنها كانت وليدة الظرف ، ثم عوضت بالعديد من الجرائد التي تخدم مصالح فرنسا وتشرف عليها السلطات الاستعمارية في الجزائر، ساعية من وراء إنشائها إلى تحقيق الرسالة الاستعمارية ، ومن أجل بلوغ ذلك تم توفير كل الإمكانيات المالية والمادية لها لضمان استمراريتها وأداء رسالتها ونذكر من هذه الجرائد : الجريدة الرسمية " **المونيتور الجزائري** " (Le moniteur Algérien) الصادر يوم 27 جانفي 1832.[7] ، باللغتين الفرنسية والعربية وقد استمرت في الصدور أكثر من خمسين سنة.[8]

بعدها قامت السلطات الاستعمارية بإصدار صحيفة ثالثة وهي " *النشرة الرسمية لعقود الحكومة* " (Bulletin officiel des actes du gouvernement) وقد صدر العدد الأول منها في 20 أكتوبر 1834.[8]

ثم جريدة "*الأخبار*" بعنوان عربي اللغة وفرنسي الحروف ، التي تم إصدارها تسع سنوات بعد الغزو الفرنسي بمقتضى قرار المارشال « كونت فالي » و بالتحديد يوم 12 جويلية 1839 ، و استمرت إلى غاية 1898 [9] .

هكذا بدأت الصحافة الفرنسية في الجزائر تتكون شيئا فشيئا بإشراف أقلام فرنسية في أول الأمر، ولإعطائها مصداقية أكثر ، وضمان البقاء لها وطول العمر ، عمد الفرنسيون إلى تكوين نخبة جزائرية باللغة الفرنسية ، حتى يساهم

الجزائري بدوره عن وعي أو عن غير وعي في اعتماد هذه الجرائد و تقريبها من المواطن الجزائري .

ونظرا للدور الذي كانت تقوم به هذه الجرائد خدمة للرسالة الاستعمارية في الجزائر ، ظلت قائمة وفي تزايد مستمر ، و بكثير من العناية و الاهتمام إلى غاية رحيل فرنسا عن الجزائر.

لكن هذه الصحف لم تجد نفسها طوال هذه الحقبة من الزمن وحدها في الساحة الإعلامية ، بل ومع مرور الزمن وتطور الأحداث نافستها أعداد كبيرة من الصحف التي يمكن تصنيفها في مجملها إلى ثلاثة أصناف وهي:

1 ــ الصحافة الحكومية .

2 ــ الصحافة الأهلية .

الصحافة الحكومية :

عندما تمكنت السلطات الاستعمارية الفرنسية من بسط نفوذها وبلوغ رسالتها الاستعمارية على أرض الجزائر، باحتلالها شمال الجزائر و ردع المقاومات الأولى التي اعترضت سبيل الجيش الفرنسي عند إنزاله على شواطئ سيدي فرج ، وذلك بالقضاء نهائيا على مقاومة أحمد باي في الشرق الجزائري 1837 ــ 1847 ، ومقاومة الأمير عبد القادر التي كانت على وشك القضاء عليها 1832 ــ 1848 ، شرعت في تطبيق مرحلة ثانية لا تقل أهمية عن سابقتها حتى تكتمل الرسالة الاستعمارية كاملة و بدون نقصان ، وهي التفرغ للمجال الإعلامي أكثر من أي وقت مضى لنسج شبكة للاتصال بالرأي العام الجزائري قصد استغلال عقول الجزائريين و استعباد أفكارهم بعد أن فرضت هذه السلطات الاستعمارية الاحتلال بقوة السلاح .

و من أجل تحقيق ذلك عملت على إنشاء مجموعة من الصحف تشترك جميعها في الأسلوب و الأهداف ، حيث كان من واجبها أن تلعب دور الوسيط بـــين الغزاة و الجزائريين و لما كانت اللغة العائق الكبير في تحقيـــق ذلـــك ، لكـــون الجزائريين غرباء عن اللغة الفرنسية ، كان لزاما على السلطات الفرنســـية أن تصدر جرائد باللغة العربية إلى جانب الجرائد الفرنسية التي سبق و أن بدأت في نشرها .

و قد كانت الجرائد الصادرة باللغة العربية شأنها شأن الصـــحف الصـــادرة بالفرنسية تحت إشراف الحكومة الاستعمارية ، وقد كان الحاكم العام مكلف بإدارة شؤونها ، الأمر الذي دفعنا إلى تسميتها بالصحافة الحكومية .

فما المقصود إذن بالصحافة الحكومية ؟

المقصود بالصحافة الحكومية ، تلك الجرائد التي تشرف عليهـــا الحكومـــة الاستعمارية بتكليف الحاكم العام الذي يدير شؤون الجزائر للإشراف عليهـــا بصفة مباشرة ، شأن جريدة " المبشر" أو بطريقة غير مباشرة ، عن طريق الدّعم المالي و تسهيل مهمة العمل مثل جريدة " كوكب إفريقيا " و جريدة " النجاح " في وقت لاحق.[10]

يقول الدكتور أحمد الخطيب عن الصحافة الحكومية التي سمّاها بالكولونية :

" اتسم تاريخ الصحافة في الجزائر منذ الاحتلال بظهور الصـــحف الفرنســـية الكولونية ، التي كانت تتبع في طباعتها و إصدارها نفس النمط المتبع في فرنسا كما أنها كانت سياستها العامة امتدادا للصحافة... بأحزابها و مواقفها المختلفة مع اهتمام زائد بمصالح الكولون في الجزائر و إهمال مـــصالح الجزائريين ".[11]

وهكذا فبعد مرور أكثر من سبعة عشر عاما عن الوجود الفرنسي في الجزائر أدركت السلطات الفرنسية مدى ضرورة إنشاء جريدة فرنسية الإدارة و جزائرية اللسان ، و لا يعني استعمال اللغة العربية المكسرة حب فرنسا للعربية ، و إنما كان إصدار جريدة " المبشر" باللغة العربية ، أول جريدة في تاريخها الجزائر تمهيدا لعالم الصحافة العربية في بلادنا بعد الصحافة التي أنشأها المستعمر باللغة الفرنسية فور وصوله إلى الجزائر .

إن إنشاء هذه الجريدة له أكثر من دلالة حيث تبين لقادة جيش الغزاة بأن الاستعمار العسكري المعتمد على القوة غير كاف لأنه كان سببا في تعميق الانشقاق و عدم الانسجام و التجانس بين الجنسين ، الفرنسي و الجزائري ، ولذا لجأ الاستعمار إلى طريقة أخرى أكثر مرونة و دبلوماسية لتغطية النقص الذي نجم عن الأسلوب العسكري هو الاهتمام بقطاع الإعلام الذي عن طريقه يمكن السيطرة على عقول الجزائريين، وبالتالي يتم إخضاعهم فكريا بعد أن تم إخضاعهم عسكريا[12] ، وبذلك تكتمل الرسالة التي تسعى إلى تحقيقها السلطات الاستعمارية و هي استعباد الشعب الجزائري ماديا و معنويا .

ففي تاريخ 15 / 09 / 1847.[13] ظهرت جريدة " المبشر" النصف شهرية باللغتين العربية و الفرنسية ، و كانت فكرة تأسيسها من وحي ملك فرنسا لويس فليب الذي أمضى مرسوما بشأن تأسيسها ، و بادر الجنرال دوماس (Dumas) إلى تطبيقه[14] .

لقد كان لصحيفة " المبشر" دور كبير في الساحة الإعلامية ، إذ كانت بمثابة لسان حال الحكومة الفرنسية في الجزائر التي جعلت منها نشرية رسمية تطلع الولاية العامة ، غير أن طابعها الاستعماري المحض في بداية ظهورها ، جعلها في

شبه عزلة ولولا تفطن مسيّريها الذين أخرجوها من طابعها الاستعماري لظلّت كذلك و لما حظيت باهتمام المسلمين الجزائريين بها ، فقد سمح بنشـــر بعـــض كتابات و مقالات الجزائريين التي تقتصر على النشاط الثقافي العربي الإسلامي .

و فعلا فقد بلغ هذا التغيير في المضمون هدفه المتمثل في رواج الجريدة وتمديد عمرها إلى غاية عام 1927[15] ، وكذا مراجعة مدة الصدور الـــتي كانـــت في البداية نصف شهرية إلى غاية عام 1861 تحولت بعد ذلـــك إلى عشـــرية ، ثم أصبحت أسبوعية في آخر مرحلتها ، وذلك ابتداء من شهر سبتمبر1866 .[16]

و التبرير في تغيير مدة صدورها من نصف شهرية إلى شهرية ثم إلى أسبوعية و ضّحته الجريدة في عددها الصادر يوم 30 سبتمبر 1847 ، عندما قالت بـــأن ذلك يرجع إلى الإقبال الكبير للقراء على أعدادها ، الأمر الذي دفع الحـــاكم العام إلى الموافقة على ذلك لإرضاء رغبة قرائها الأوفياء لها .

ظلت جريدة " المبشر " قائمة إلى غاية عام 1827 ، و هي السنة التي توقفت فيها و أضحت تسمى " الجريدة الرسمية " ، و من ثم تخصصت بصفة كلية لنشر المراسيم و القوانين التي تصدرها الإدارة الاستعمارية في الجزائر .

و عن الأهمية والدور اللذين لعبتهما صحيفة " المبشر " في الساحة الإعلامية بصفة خاصة ، و مدى استفادة الصحافيين الجزائريين منها بصفة عامة يقـــول الأستاذ إحدادن :

" و الحقيقة أن جريدة " المبشر " لعبت دورا كبيرا في إظهار الصحافة الجزائرية فلقد كانت بمثابة مدرسة تخرّج منها الصحافيون الأوائل الذين أنشؤوا الصحف باللغة العربية في الجزائر مثل محمود كحول و مامي إسماعيل اللذين أسندت إليها الحكومة الاستعمارية جريدة " كوكب إفريقيا " (ما بـــين 1907 و 1914) و

جريدة " النجاح " (ما بين 1919 و 1956) اللتين عوضتا جريدة " المبشر " ، بعد مرحلتها الثانية ، أو مثل عمر راسم و المولود الزربي الأزهري الذي أنشأ فيما بعد صحف أهلية غير حكومية ، كما تخرج كذلك عن جريدة " المبشر " عدد من المترجمين والتقنيين الحرفين الذين كانوا دعائم النشاط الصحفي في الجزائر ".[17]

إن التحيز الكلي الذي اتصفت به الصحافة الحكومية ، المشبع بالطابع العنصري ظن و في طليعتها صحيفة " المبشر" ، ثم جريدتا " كوكب إفريقيا " و " النجاح " ، و تفرغها لنشر كل ما يصدر عن المسؤولين الرسمين الفرنسيين من نصوص تشريعية ، و بيانات حكومية و أوامر مهمشين كل انشغالات الأهالي و أحوالهم الاجتماعية حتى لا تثير انتباه المسؤولين و تنبههم إلى الظروف السيئة التي يعيش فيها المسلمون الجزائريون .

إن الخط الصحفي من قبل هذه الصحف المعلنة عن ولائها الكلي للحكومة و المشجّع للسياسة الاستعمارية في الجزائر لم يكن يخدم سوى مصالح ضيقة لفرنسا ، و خوفا من فقدان فرنسا لمصالحها ، و ظهور انفجار الأهالي[4] ، التزمت مجموعة من الفرنسيين المؤمنين بضرورة بقاء الجزائر أرض فرنسية بإنشاء صنف آخر من الجرائد الحكومية التي تتظاهر بأنها تدافع عن حقوق الجزائريين و تستنكر ما تقوم به الحكومة الاستعمارية من أعمال تعسفية في حق الأهالي ، داعين السلطات الفرنسية إلى الاهتمام و الانشغال بقضايا المسلمين الجزائريين و هم يسعون من وراء ذلك إلى كسب الجزائريين خدمة و تحصينا للوجود الفرنسي ، وكان في طليعة هذا الصنف من الجرائد ، جريدة " المنتخب

" و هي جريدة أسبوعية تصدر باللغتين الفرنسية و العربية ، تأسست في شهر أفريل 1882 بمدينة قسنطينة.[18]

و قد تمكنت هذه الجريدة من جلب فئة المسلمين المثقفين بالعربية إلى المساهمة بأقلامهم العربية في عملها الإعلامي ، لاقتناعهم بأنها تدافع عن حقوقهم .

و تعميما لهذا الصنف من الصحف العمومية التي كان لها دور كبير في نشر السياسة الاستعمارية بطرق خاصة ، بادرت فئة من المستشرقين إلى إنشاء مجموعة من الجرائد إلى جانب جريدة المنتخب[19] ، نذكر منها جريدة " النصيح " التي أصدرها المستشرق إدوارد جسلين سنة 1899 و جريدة " الأخبار " التي أصدرها المستشرق فكتور باروكاند سنة 1902 في مدينة الجزائر.[20]

إلا أن عمر هذه الجرائد كان قصيرا في معظمها ، بسبب بعض مواقفها التي أثارت غضب السلطات الاستعمارية و سخطها عليها ، لأن مسيّريها أرادوا تقديم يد النجدة للفئة الجزائرية المثقفة على وجه الخصوص ، حتى لا تيأس من الوجود الفرنسي في الجزائر ، و بتحقيق ذلك يكونون قد قدموا لوطنهم أحسن الخدمات ، و هي استمرار الوجود الفرنسي في الجزائر .

بقيت هذه الجرائد تصارع الظروف من أجل البقاء إلى غاية ما بعد الحرب العالمية الأولى مثل جريدة " منبر الأهالي " الصادرة سنة 1927 في مدينة الجزائر، و جريدة " الجزائر الجمهورية " التابعة للحزب الاشتراكي الشيوعي الفرنسي الصادرة سنة 1937 في مدينة الجزائر[21] ، بدون أن تترك أثرا ذا بال بالنسبة للرأي العام الجزائري .[22]

وهكذا ظلت الصحافة الحكومية قائمة بنوعيها ، الموالية كل الولاء للسلطات الاستعمارية ، و ذلك بنشرها النصوص التشريعية ، و الأوامر و البيانات

الحكومية ، و تتلك التي تتظاهر بأنها وجدت من أجل الدفاع عن حقوق الجزائريين ، لكن لا هذه و لا تلك تمكنت من توقيف نضال الشعب الجزائري الذي عرف مسارا طويلا و شاقا ، حيث تقرر إنشاء جرائد خاصة بالجزائريين للدفاع عن مصالحهم ، بالموازاة مع الجرائد الحكومية التي وجدت من أجل تزكية و تحصين الاستعمار في الجزائر ، و قد عرف هذا النوع من الجرائد بالصحافة الأهلية التي كانت حقا ثمرة ظهور الصحافة الوطنية في وقت لاحق .

الصحافة الأهلية :

نعني بالصحافة الأهلية تلك الجرائد التي كان يتولى المسلمون الجزائريون تحريرها و توزيعها إداريا و ماليا .

جاءت الصحافة الأهلية في وقت متأخر ، و ترجع بدايتها إلى جريدة " الحق " التي ظهرت في مدينة عنابة بتاريخ 30 جويلية 1893 [23]

يقول الأستاذ زهير إحدادن عن موضوع تأخر الصحافة الأهلية إلى الظّهور ما يلي :

" و لم يظهر للجزائريين أي دور في مجال الصحافة إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر عندما أصدر سليمان و سمر جريدة « الحق » في عنابة بتاريخ 30 / 07 / 1893 باللغتين العربية و الفرنسية »[24]

ظهرت الصحافة الأهلية ، موازية للصحافة الحكومية في ظروف سيئة كان المسلمون الجزائريون يعانون فيها جميع أنواع الاستغلال و البطش و الاستيلاء على أرزاقهم و ممتلكاتهم ، و حينها أدرك المثقفون الجزائريون أهمية الصحافة كوسيلة فعالة لتشرح مشاكلهم و توصل مطالبهم للحكومة الفرنسية التي كانت هي نفسها تبدي قلقا كبيرا إزاء تصرفات ممثليها في الجزائر.[25]

و لتفادي الانفجار الشعبي الذي يوشك على الوقوع ، سمحت الحكومة الفرنسية في باريس للنخبة المثقفة بإنشاء الصحف و قد كان معظمها من الأهالي المتخرجين من المدارس الفرنسية الذين أدركوا أهمية الدفاع عن حقوقهم و التعبير عن مطالبهم بحكم احتكاكهم و ممارستهم لمهنة الصحافة ، و كان معظمهم يجيدون اللغتين العربية والفرنسية ، و يتقنون جيدا فن الصحافة لأن معظمهم سبق و أن عمل محررا في قطاع الصحافة و على وجه الخصوص جريدة " المبشر ".[26]

باشر هؤلاء على الفور إنشاء هذا النوع من الصحف لاستغلالها في التعبير عن سخطهم و مشاكلهم و مطالبهم تجاه الأعمال الدنيئة التي تقوم بها السلطات الاستعمارية في حق المجتمع الجزائري ، و كانت البداية بإصدار جريدة " الحق " السابقة الذكر.[27]، تلتها في ما بعد جريدة " المغرب " الصادرة سنة 1903 في مدينة الجزائر و استمرت إلى غاية سنة 1913 ، ثم جريدة « الصباح " سنة 1904 الصادرة في مدينة وهران لمدة سنة واحدة [28] ، إلى غير ذلك من الصحف التي عرفتها المرحلة .

لقد كانت الحاجة جد ماسة إلى هذا النوع من الصحافة ، لأنها تجسد إحدى مراحل تطور المجتمع الجزائري الذي أصبح يثق في نفسه ، و يخوض ميدان الصحافة لأول مرة في تاريخه للتعبير عن القضايا الإسلامية الجزائرية .

و ما يلاحظ عن حياة هذه الجرائد أنه لم يكتب لها أن تعمر طويلا ، حيث عانت طوال الفترة الممتدة من 1893 إلى 1907 صعوبات جمّة و فرضت عليها كل أنواع الرقابة و الضغوطات ، بسبب النهج المعادي الذي اتخذته إزاء الاستعمار و ذلك بإبراز الأحوال المزرية للمسلمين ، و كذا التعرض إلى موقف

بعض الحكام المعروفين بعداوتهم الشنيعة في حق الجزائريين ن و بعض اليهود الذين استغلوا فقر المسلمين الجزائريين ، رغم أنها لم تتعرض في مقالاتها ، و كتاباتها إلى الموضوع الجوهري الذي يجب تناوله ، و هو التنديد و الاستنكار القطعي بالوجود الاستعماري في الجزائر.[29]

و الواقع أن اتخاذ مثل هذا الموقف ليس سهلا على الصحافة الأهلية لأن أمر توقيف الجرائد عن الصدور أصبح سلوكا عاديا و إجراء معروفا لدى العام و الخاص ، تتخذه فرنسا ضد كل جريدة خاصة الصادرة منها باللغة العربية ، كلما شعرت بشيء من المساس لمصالحها عند مطالبة هذه الصحف بحقوق الأهالي ، أو تولي الدفاع عنهم[30] ، رغم تزامن هذه الصحف مع فترة الحاكم العام شارل جونار[31]، المعروف بسياسته الصورية التي يكن فيها نوعا من الحب و التعاطف مع الأهالي ، و احترام التراث الإسلامي ، والثقافة الإسلامية وللبرهان على ذلك راح ينجز العديد من البنايات على الطراز الإسلامي ، مثل بناية البريد المركزي في العاصمة ، و بناية مركز تعميم التعليم و غيرها ، كما خف الخناق على الصحف و تنفست في عهده الصحافة الأهلية بنوعيها ، العربية و الفرنسية ، ووصلت إلى حدّ تلقي التشجيع و الحماية من طرف جونار.

إن إصدار جريدة " الأخبار " عام 1902 باللغة الفرنسية ، التي تلقت الدعم المادي من طرف السلطات الاستعمارية دليل على ما قدمه جونار من مساعدة للصحافة الأهلية بغية كسبها و توجيهها في خدمة الرسالة الاستعمارية في الجزائر.[32]

كما أن تنصيب شارل جونار حاكما عاما على الجزائر ، تزامن مع فترة تطور المجتمع الجزائري الذي أصبح يحس بضرورة بقاء الصحافة الأهلية التي كادت أن تندثر ، بفعل التوقيفات الاستعمارية لها ، لكونها تعد الوسيلة الوحيدة للصمود أمام الواقع المر الذي فرضه الاستعمار ، وقد كانت النخبة المثقفة في مقدمة المجتمع إذ عزمت على استغلال هذه الفرصة الاستعمارية المزيفة لترجّح الكفة لصالحها ، و ذلك بوجوب إحياء الصحافة الأهلية ، جاعلة منها وسيلة كفاح ، و تضحية و دفاع عن الحقوق المسلوبة من قبل الغزاة ووسيلة لإثبات الذات و الشخصية الجزائرية و الصمود في وجه الصحافة الحكومية التي تبرّر و تزكي الأفعال الإجرامية التي تقوم بها السلطات الاستعمارية في كل فرصة تتاح لها في حق المسلمين الجزائريين .

إن نمو الوعي الجزائري الذي عرفته هذه الفترة ، أدى إلى ظهور انطلاقة حقيقية للصحافة الأهلية التي تنسب إلى ميلاد جريدة " كوكب إفريقيا " الصادرة سنة 1907 في مدينة الجزائر(33)، و بذلك تعود الصحافة الأهلية من جديد و بكل قواها مغتنمة ظرف وجود جونار في الحكم لتفرض نفسها متحدّية كل الصّعاب .

و من ثمّ أصبح لكل طرف جرائده الخاصة ، فالحكومية تدافع على مصالح الاستعمار ، و تمجد أعماله التي تدعى بأنها تخدم الأوربي و المسلم على السواء ، و الأهلية من جهتها تعمل قصارى جهدها من أجل إثبات الوجود الجزائري .

لكن اختلاف الطرح و الاتجاه أدّى إلى اشتداد الصراع فيما بينها بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، حيث كانت الصحافة الأهلية سببا في نمو الوعي الجزائري ، إذ سمحت له بالاحتكاك بالغير و الاطلاع على نضال و كفاح

شعوب عانت كثيرا من القهر و الاستغلال الاستعماري ، و يتجلى هذا النمو واضحا في المراحل التي خاضتها الصحافة الأهلية ، حيث كانت عند نشأتها ترغب في منافسة الصحافة الحكومية في الميدان ، لكن دوام هذا النوع من الصحافة جعلها تتخذ عدة مسالك مختلفة و متشعبة ، في أطروحاتها و في وجهة نظرها من حيث الطبيعة التي ينبغي أن يكون عليها الكيان الجزائري . فركز بعضها على الجانب الاقتصادي و البعض الأخرى على الجانب الثقافي مهملة الجانب السياسي .

فقد كانت جريدة " الفاروق " 1913 ـ 1915 و " ذو الفقار" 1913 ـ 1914 و " الصديق " 1920 ، تدعو إلى التمسك بتعاليم الدين الإسلامي و بالثقافة الإسلامية بصفة عامة ، واستفادت من الزيارة التي قام بها الشيخ محمد عبده إلى الجزائر عام 1903 ، الذي ينسب إليها نصيب من الفضل في انتعاش الفكر العربي الإسلامي في الجزائر . جاء في افتتاحية جريدة " الفاروق " :" و لعدم وجود جريدة إسلامية بكل معاني الكلمة في هذه العاصمة بل في هذا القطر ، أصدر عمر بن قدور الجزائري جريدة " الفاروق " الأسبوعية في 18 / 02 / 1913 ". (33)

و الجدير بالذكر أن هذه الجرائد لم تكن لها أهداف أخرى دينية و ثقافية ، بل كانت تحث على الاهتمام بالجانب الاقتصادي داعية إلى المزيد من العناية بالزراعة و التجارة و الصناعة حتى لا يبقى المجال مفتوحا للمعمرين فقط .

أما الصحف التي اهتمت بالجانب السياسي فقد كانت تؤيد السياسة الفرنسية في الجزائر في معظم طروحاتها ، و ترحب بالحقوق السياسية و الثقافية التي يمنحها القانون الفرنسي للجزائريين مقابل الاندماج و الفرنسة ، بما في ذلك

قانون التجنيد الإجباري للجزائريين الذي كان سببا في هجرة عدد كبير من العائلات إلى المشرق العربي[34] ، ومن بين الصحف التي كانت تمثل هذا الصنف نذكر على سبيل المثال جريدة « الإقدام » الصادرة في مدينة الجزائر سنة 1919 تحت عنوان (الإقدام ، الإسلام ، الراشيدي) ، واستمرت في الصدور حتى سنة 1923.[35]

و عند نهاية الحرب العالمية الأولى صدر قانون 4 فيفري 1919 الذي سمح للجزائريين بالعودة إلى النشاط الصحفي بعد انتظار دام طوال الحرب ، ظهر صنف ثالث من الجرائد الأهلية يتوسط الصنفين السابقين الذكر ، بزعامة الأمير خالد ، حفيد الأمير عبد القادر ، أملا في كسب الشعبية عن طريق تفادي عيوب الصحافة السابقة ، ولتحقيق ذلك تبنى في برنامج حركته الاندماج السياسي كأسلوب من أجل التّمتع بالحقوق التي يمنحها القانون الفرنسي للجزائريين ، لكن مع التمسك بالشخصية الجزائرية ، و القيم الإسلامية التي تعد ركيزة الثقافة الإسلامية التي ينتسب إليها الجزائري.[36] متأثرا في ذلك بالأحداث التي عرفتها الحرب العالمية الأولى و ما نجم عنها من نتائج و ظهور للحركات القومية في أكثر من بلد عربي و منها الثورة العربية 1916[37] ، وبدا واضحا لجماعة الأمير خالد بأنه من العسير أن يبقى المجتمع الجزائري بعيدا عما يجري من تفاعلات على الساحة السياسية دون الاستجابة أو على الأقل التفاعل معها بغية الاستفادة منها كسائر الشعوب الأخرى الشبيهة بالمجتمع الجزائري في أوضاعها و ظروفها .

وانضم إلى هذا الاتجاه الجديد الذي يمزج بين الاندماج و الفرنسة من جهة و البقاء على الشخصية الجزائرية ــ الإسلامية من جهة أخرى ، الكثير من

الصحف بما فيها تلك التي كانت تنتمي إلى الصنفين السابقين ، بل أصبح بعضها يتزعم ريادة جرائد هذا الاتجاه مثل صحيفة " الصديق " و " الإقدام " ، التي تحولت إلى لسان حال مسلمي شمال إفريقيا، و بذلك أصبحت حركة الأمير خالد تشكل قطبا بذاته منافسا لذوي الاندماج و دعاة المحافظة على الشخصية الجزائرية ـــ الإسلامية ، و ساعده في ذلك العمل مجموعة من المثقفين الجزائريين المعروفين باسم نخبة الشباب الجزائري.(38)

إن صعود هذا التيار ، و التفاف الشعب حوله ، أقلق السلطات الاستعمارية التي عملت كل ما في وسعها من أجل سدّ الطريق في وجهه و تحطيمه قبل فوات الأوان ، و لكنه أصبح يستقطب الرأي العام الجزائري و يوشك على الانفراد بالزعامة . ولتفادي ذلك قامت السلطات الاستعمارية بفرض المراقبة عليه وتوقيف الكثير من صحفه ، كما كان الشأن بالنسبة لجريدة " الصديق " سنة 1922 و " الإقدام " سنة 1923 .

إن تصلب فرنسا تجاه هذا الصنف من الجرائد ، لم يحقق لها ما كانت تصبو إليه ، بل تشجع مسؤولو الصحف أكثر من ذي قبل للعمل من أجل كشف فضائح السلطات الاستعمارية للرأي العام المحلي ، و الصمود أمام كل التصرفات القمعية و التهديدية الصادرة عن السلطات الفرنسية .

هذا التصلب القائم بين الطرفين أدّى إلى ميلاد تيار جديد في المجتمع الجزائري ، و هو التيار الوطني ، و بظهور هذا التيار ، انتقلت الصحافة الجزائرية من الصحافة الأهلية إلى الصحافة الوطنية .

الهوامش

1 ـــ زهير إحدادن "*الإعلام الجزائري أثناء الثورة*" ، محاضرة ألقاها في ندوة الصحافيين الجزائريين الـتي انعقدت بالجزائر ، في شهر ماي 1983 .

2 ـــ زهير إحدادن : "*ظاهرة الصحافة في الشرق الجزائري*" ، عرض ألقاه بمناسبة انعقاد الأيام الدراسية حول الفتوحات الإسلامية من 25 إلى 27 نوفمبر 1987 بمدينة سيدي عقبة ، بسكرة .

3 ـــ سيف الإسلام الزبير: " علم الإعلام و السياسة الإعلامية في العالم الثالث " ، مطبوعـات المركـز العربي للدراسات الإعلامية ، 1981 ، ص ، 10 .

4 ـــ سيف الإسلام : "*تاريخ الصحافة في الجزائر*" ، الشركة الوطنية للنشـر والتوزيـع ، الجزائـر ، 1971 ، ص ، 12 .

ـــ اختلف الباحثون في تسمية الجريدة ، حيث سماها البعض الآخـر " لسـتفيت دي سـيدي فـرج Estafette de Sidi-Feruch " أمثـال إسـكير قابريـال في كتابـه *Les débuts de la presse Algérienne* ، و كذا زهير إحدادن في كتابه الصحافة المكتوبة في الجزائر.

5 ـــ هذا مقطع من نص الرسالة التي بعث بها قائد عام الحملة الفرنسية في الجزائـر إلى الأمـير بولنيـاك موضحا له أغراض و دوافع تأسيس الجريدة فيقول " إن جميع محررينا هم منخرطون في صفوف الحملـة العسكرية و موزعون تحت ألقاب و رتب مختلفة ، فالضابط في مختلف الجيوش و الأسلحة و رجال الثقافة و العلماء و التقنيون يجب عليهم أن يقدموا المادة و أن يزودوا هيئة التحرير بمنوعات كبيرة ... "

6ـــ عواطف عبد الرحمن «*الصحافة العربية في الجزائر*» ، دراسة تحليلية لصـحافة الثـورة الجزائريـة 1954 ـــ 1962، معهد البحوث و الدراسات العربية ، كلية الإعلام ، جامعة القـاهرة ، 1978 ص ،24.

7 ـــ سيف الإسلام الزبير، المرجع السابق ، ص ، 24 .

8 ـــ عواطف عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ، 25 .

9 ـــ نفس المرجع و الصفحة .

10- Zahir Ihaddaden : *Histoire de la presse indigène en algérie , des origines jusqu'en 1930,* ENAL , Alger , 1983 , p. 9 .

11 ـــ زهير إحدادن : مرجع سابق ، ص، 26 .

12 ـــ أحمد الخطيب " *جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، و أثرها الإصلاحي في الجزائـــر* " ، المؤسســة الوطنية للكتاب ، 1985 ، ص، 71 .

13 ـــ إبراهيم لونيسي " *القضايا الوطنية في جريدة المبشر* " ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر، 1994 ، ص، 26 .

14 ـــ اختلف زهير إحدادن عن سيف الإسلام الزبيري في تحديد تاريخ ميلاد المبشر ، فالأول ينسبها إلى سنة 1847 ، و الثاني ينسبها إلى سنة 1848 .

15 ـــ زهير إحدادن : الصحافة المكتوبة في الجزائر، مرجع سابق ، ص، 28 .

16 ـــ عواطف عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص، 26 .

17 ـــ جريدة المبشر الصادرة بتاريخ 22 أوت 1866 .

18 ـــ زهير إحدادن : مرجع سابق ، ص 29 .

19ـــ زهير إحدادن : مرجع سابق ، ص، 30 .

20 ـــ محمد صالح ناصر، مرجع سابق ، ص، 17 .

21 ـــ عواطف عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص، 27 .

22 ـــ نفس المرجع والصفحة .

23 ـــ زهير إحدادن : مرجع سابق ، ص، 32 .

24 ـــ أديب مروة : " *الصحافة العربية ، نشأتها و تطورها* " ، منشورات دار مكتبة الحيـــاة ، الطبعـــة الأولى ، بيروت ، 1961 ، ص، 396 .

25 ـــ محمد صالح ناصر ، مرجع سابق ، ص ، 18 .

26- Zahir Ihaddaden : « Histoire de la presse indigène en Algérie » , (thèse pour le doctorat de 3e cycle) , Paris , 1979 , p. 51 .

27 - Ali Merad : La formation de la presse musulmane en Algérie , ibla n°103 , Institut de Belles Lettres Arabes , Tunis , 1964 , p . 31 .

28 ـــ عواطف عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص، 29 .

29 ـــ زهير إحدادن : المرجع السابق ، ص ، 35 .

ـــ جريدة " الحق " ، جريدة أسبوعية ، صدرت بتاريخ 30 جويلية 1893 في مدينـــة عنابـــة و هـــي مزدوجة اللغة (فرنسية و عربية) ، تحت إشراف السيداين : نبقي و سمار العيون ، أوقفت عن الصـــدور بتاريخ 25 / 03 / 1894 .

- Ali Merad, op. cit. p . 16 -30

31 ـــ عواطف عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص، 30 .

32 ـــ محمد صالح ناصر ، مرجع سابق ، ص ، 18 .

33 ـــ نصب شارل جونار حاكما عاما على الجزائر ، ثلاث مرات :

ـــ أما الفترة الأولى: من 1900 إلى 1902 .

ـــ الفترة الثانية : من 1903 إلى 1913 ، و هي أطول فترة في حكمه .

ـــ الفترة الثالثة : سنة 1918 ، وعزل في نفس السنة ، عرف جونار بانتهاجه سياسة فريدة من نوعها إزاء المسلمين الجزائريين ، تبدو ظاهريا لصالح الأهالي ، و يبدو ميالا للجزائريين بتشجيعه للثقافة العربية الإسلامية ، الشيئ الذي دفع بالمعمرين إلى حدّ القول عنه بأنه " عربي " غير أن كل ما في حقيقة الأمر ، أن هذه الطريقة التكتيكية التي اتخذها جونار هي محاولة جديدة للتحكم أكثر في توجيه و تطويق النضال الجزائري و جعله في خدمة مستقبل فرنسا في الجزائر .

ـــ للمزيد ، أنظر :

ـــ أبو القاسم سعد الله ، *الحركة الوطنية الجزائرية 1900 ـــ 1930* ، ج2 ، ط3 ، (ش، و، ن ،ت) ، 1983 ، ص، 85 .

ـــ عبد الرحمن بن ابراهيم بن عقوب : *الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصرة 1920 ـــ 1936* ، ج1 ، ط1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص، 74 .

34 ـــ زهير إحدادن ، " الصحافة الثقافية في الجزائر" ، منشورات دراسية ، المجلة الجزائرية للاتصال، الجزائر ، مارس 1988 .

35- Zahir Ihaddaden: *Histoire de la presse indigène en Algérie , des origines jusqu'en 1930* , op, cit. p . 202 .

36 ـــ محمد صالح ناصرن مرجع سابق ، ص، 19 .

38 ـــ عواطف عبد الرحمن ، مرجع سابق ،ن ص 31 .

39- Ali Merad : op. cit. p. 17

40 ـــ يوسف مناصرية : "*الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين 1919 ـــ 1939* " ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1988 ، ص ، 10 .

41- Ali Merad : op, cit. p . 18

42 ـــ عواطف عبد الرحمن ، مرجع سابق ، ص، 33 .

قائمة المراجع

1 ـــ إحدادن زهير : *الصحافة الثقافية في الجزائر* ، منشورات دراسية ، المجلة الجزائرية للاتصال الجزائـــر ، مارس 1988 .

2 ـــ " " : *الإعلام الجزائري أثناء الثورة* ، محاضرة ألقاها في ندوة الصحافيين الجزائريين التي انعقدت بالجزائر ، في شهر ماي 1983 .

3 ـــ " " : *ظاهرة الصحافة في الشرق الجزائري* ، عرض ألقاه بمناسبة انعقاد الأيام الدراسية حول الفتوحات الإسلامية من 25 إلى 27 نوفمبر 1987 بمدينة سيدي عقبة ، بسكرة .

4 ـــ بن العقون عبد الرحمن بن إبراهيم : *الكفاح القومي و السياسي من خـــلال مـــذكرات معاصـــرة 1920ـــ1936* ، ج1 ، ط1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1984 .

5 ـــ الخطيب أحمد : *جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، و أثرها الإصلاحي في الجزائر* ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985 .

6 ـــ الزبير سيف الإسلام : "*تاريخ الصحافة في الجزائر*" ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971 .

7 ـــ " " " : *علم الإعلام و السياسة الإعلامية في العالم الثالث* ، مطبوعات المركز العربي للدراسات الإعلامية ، 1981 .

8 ـــ سعد الله أبو القاسم : *الحركة الوطنية الجزائريـــة 1900* ـــ **1930** ، ج2 ، ط3 ، (ش، و، ن ،ت)، 1983 .

9 ـــ لونيسي إبراهيم : *القضايا الوطنية في جريدة المبشر* ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر،1994.

10 ـــ مروة أديب : *الصحافة العربية ، نشأتها و تطورها* ، منشورات دار مكتبة الحياة ، الطبعة الأولى، بيروت ، 1961.

11 ـــ مناصرية يوسف : *الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجـــزائرية بيـــن الحـــربين العالميـــتين 1919ـــ1939* ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1988 .

1- **Ihaddaden Zahir** : *Histoire de la presse indigène en Algérie , des origines jusqu'en 1930,* ENAL , Alger , 1983 .

2 – Ihaddaden Zahir : *Histoire de la presse indigène en Algérie* , (thèse pour le doctorat de 3e cycle) , paris , 1979 .

3 - Merad Ali : *La formation de la presse musulmane en Algérie* , ibla n°103 , institut de belles lettres arabes , Tunis , 1964.

صحيفة "ورقة خبور الجزائر"
مصدر نادر في سياسة فرنسا الإعلام

أ.د عميراوي احميده
جامعة الأمير عبد القادر

يجب أن نخذف نحن الجزائريين من أذهاننا فكرة أن الساسة الفرنسيين استخدموا السلاح العسكري فقط في احتلالهم للجزائر، لأن الوثائق التاريخية تبين أنهم استخدموا وسائل أخرى متعددة وفي مقدمتها وسائل الإعلام. والسؤال المطروح هو كيف تمّ ذلك؟

سبق وأن نشرنا موضوعا بعنوان الدعاية الفرنسية[1]. حيث بينا فيه كيف وظف رجال الاحتلال المادة الخبرية التي تركها الرحالة الأوربيون عن الجزائر حين درسوا جوانب حياتها. وبينا كذلك دور المستشرقين في عملية الاحتلال بما أنجزوه من أعمال تعلقت بالتعليم وبالطباعة والترجمة والتأليف بالجرائد والكتب، وكان في مقدمة أولئك المستشرقيون المشارقة الذين كانوا من مصر والشام خصوصا، إذ سبق للموارنة أن قاموا بدور الطباعة باللغة العربية في أوروبا عامة. حيث طبعوا أول كتاب بالعربية هو "صلاة السواعي" عام 1514. وكذلك سفر الزبور عام 1516. ثم تأسست مطبعات في الشام بطرابلس عام 1610 وبحلب أوائل القرن 18 ومطبعة بمدينة الشوير في لبنان عام 1733. و لم يكن مثل هذه المطابع موجودا في الجزائر. لكنه بمجيء الحملة الفرنسية إليها دخلت الطباعة بشكل قوي نسبي، إذ كانت خبرة أولئك المشارقة والمستشرقين المهتمين بالطباعة في يد رجال الاحتلال الفرنسيين[2]. إذ كان أول عمل مطبعي كان بوسائل إعلامية.

1- ينظر كتابنا: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة 2002

2-سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، الجزء 4، دار الغرب الإسلامي، ط. 4، بيروت 1996، ص- ص. 23-46.

ويمكن تسجيل أول دور لهذه الوسائل الإعلامية الفرنسية وجه للرأي العام الجزائري هو المنشور الذي وزع من تونس على الجزائريين دعتهم فيه حكومة باريس للوقوف مع الحملة الفرنسية القادمة لتخليصهم من ظلم الأتراك العثمانيين[3].

وكان من نشاط هؤلاء المستشرقين إعداد برنامج دعائي اعتمادا وانطلاقا من الصحافة، ولهذا لا نستغرب وجود مطبعة بجانب المدفع على متن السفن التي نزلت في سيدي فرج. إذ تمكنت هذه المطبعة من طبع أول عمل إعلامي تمثل في صحيفة هي "بريد الجزائر" (Estafette d'Alger). وكان الهدف من طبع هذه المجلة مخاطبة الرأي العام الفرنسي والتعريف بهدف الحملة وفوائدها، والدفاع عن موقف الحكومة أمام المعارضة التي نددت بالحملة[4]. وحُدد لها مكان مفترض يكون إما على ضفاف نهر الحراش أو في قصر الداي أو على أحد الشواطئ. وعين رئيس تحريرها السيد ميرل. وتمّ ذلك وفق تصور قائد الحملة دي بورمون.

3- أرسلت حكومة باريس في أفريل عام 1830 وفدا ضم كلا من رامبار (Raimbert) وجيراردا (Girardin) برئاسة دوبينوسك (D'Aubignosc) و تمكّن هذا الوفد من تحقيق أهداف كثيرة. توجد مجموعة من الوثائق محفوظة في: A. M. G. H2 بها معلومات هامة عن مهمة هذا الوفد إلى تونس. للمزيد ينظر كذلك ما كتبناه في: دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827-1840)، البعث، قسنطينة-الجزائر 1987. ص. 100 وما بعدها

4- واجهت الحملة الفرنسية معارضة كبيرة من الفرنسيين السياسيين والكتاب والعامة. لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا: دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية، المرجع السابق، ص-ص. 39-55.

وقد تضمن العدد الأول عبارات حماسية خدمة لأهداف الأمة الفرنسية. ومن هذه العبارات نقرأ بما أمكن ترجمته: *"لن تبقى إلاّ بضعة أيام... وتطمئن المسيحية، ويؤخذ الثأر للعلم الفرنسي"*[5].

ولكن أهم وسيلة دعائية كانت بداية الاحتلال هي صحيفة "ورقة خبور الجزائر" الصادرة يوم 27 جانفي 1832 والمشهورة بعنوان (Moniteur algérien) التي حملت في عددها التاسع عشر اسم *"ورقة خبور الجزائر"* بجانب عنوانها الأصلي.

ونحاول عرض جانب من هذه الصحيفة خلال فترة محددة، وأعني بها فترة القائد العام، أي من عام 1830 إلى عام 1834

وصدر العدد الأول والثاني والثالث معا في 6 صفحات من الحجم الكبير. وهي متخصصة بحسب عنوانها الفرعي في أنها صحيفة رسمية استيطانية، مهمتها نشر الإعلانات القضائية والإدارية والتجارية والبحرية[6].

وتعد هذه الصحيفة مصدرا هاما في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال، إذ أنه بحسب تقديرنا لا يمكن لأي باحث أن يستغني عنها في أبحاثه خلال هذه الفترة.

وبظهور هذه الصحيفة تكون الجزائر قد عرفت الطباعة أسوة بالبلدان الأخرى إذ سبقتها في مصر عام 1828 حين صدرت صحيفة *الوقائع المصرية*. وفي تركيا كانت *المرشد العثماني* عام 1831. ثم صحيفة *مرآة الأحوال* عام 1855. وفي بيروت كانت *حديقة الأخبار* التي أسسها خليل الخوري عام

5- يراجع: سيف الإسلام، المرجع نفسه. ص. 18.

6- حدد مبلغ بيعها ب 7 فرنكات وباشتراك سداسي بقيمة 25 فرنكا. واتخذت من شارع الجنينة رقم 29 في الجزائر العاصمة مقرا لها

1858. وفي تونس كانت *الرائد التونسي* عام 1860 برئاسة المستشرق كرتلي أو رُشَيِد الدحداح.

افتتحت الصحيفة في عددها الأول بمرسوم ملكي وقعه لويس فيليب صادر يوم 1831/12/1 الذي أحدث بمقتضاه منصب المقتصد المدني وأسنده إلى السيد بارون الذي منحت له صلاحيات كثيرة.

ويتبين من هذا المرسوم أو من القرارات التي اتخذها هذا المقتصد أن تحولا كبيرا حدث في الإدارة الفرنسية بالجزائر، إذ صارت السلطة المدنية المشخصة في هذا المقتصد تتقاسم السلطة مع القائد العام العسكري.

مثلما تتبين قرارات هامة من بينها قرار القائد العام دو روفيكو المؤرخ في 7 جانفي 1832 حين صادر واشترى مقدار 4500 قنطار من الصوف وكون منها أفرشة (مطرح) بقيمة 10 كلغ لكل عسكري. واشترى من المغرب كميات كبيرة من الصوف بقيمة 16 فرنك و50 سنتيم للقنطار الواحد.

مثلما يتبين تعيين أول رجل قانون في المحكمة بالجزائر العاصمة يوم 3 فيفري 1832. وكذلك المحضر القضائي. وتعين يوم 17 مارس 1832 موثقا. وبهذا يكون جهاز "العدالة" الفرنسية قد تواجد في الجزائر بمؤسسات متعددة.

ومن جهته عمل المقتصد المدني على اعتماد هذه الصحيفة بصفة رسمية على أن تعمل بقوانين فرنسا والقوانين المحلية، وحدد تاريخ أول مارس 2003 لاحتكار هذه الصحيفة لكل المنشورات للإعلانات وكل الأمور الدعائية.

يتبين في الأعداد الأخرى من هذه المجلة الإعلانات ونشاط الحركة التجارية البحرية بعدد السفن التي دخلت ميناء الجزائر. وبتنوع المواد المستوردة والمصدرة.

ويتبين من محتوى هذه الصحيفة أنها خصصت أخبارا محليـة جزائريـة وأخرى محلية فرنسية، ومغربية وإفريقية ودولية. وبهذا تكون هـذه الصـحيفة وسيلة دعائية وظفتها فرنسا لصالح الاحتلال والاستيطان.

وكانت صحيفة خبور الجزائر تصدر باللغة الفرنسية. إلى غاية العدد رقم 26 حيث خاطبت السلطة الفرنسية الجزائريين بالعربية الدارجة وعرفتهم بمزايا القانون الفرنسي وبالمدنية الأوروبية. وبهدفها من تعليم اللغة العربية، وحثـت الجزائريين على إرسال أبنائهم للمدارس. وطلبت من الجزائريين مساعدة رجال الاحتلال وعدم التعرض للقضاة والحكام حين يدخلون بيوتهم للقيام بمهام إدارية واجتماعية. إذ جاء في هذا العدد *"من أجل أن الجزائر هم تحت حكومتنا فظهر لنا أن نعلمهم أشراعنا ليعرفوا كيف يحكمون في بلدنا فرانسة. السلطان يحكم في فرانسة برضاء ناس البلد.. .عند ثمانية وزراء.."*

و لم تحظ اللغة العربية بمكانة في دور الطباعة من طرف قادة الاحتلال إلاّ في نطاق محدود. وما حظيت به كان خدمة للتوسع الفرنسي وأملا في كسب الجزائريين إلى صفهم. ومن غير المستبعد أن يكون هذا سببا في التعامل باللغـة العربية بالشكل المحدود إلى يوم أن أصدر الوكيل المدني بيشون (Pichon) قرارا بإصدار الصحيفة الرسمية (Moniteur algérien) باللغتين الفرنسية والعربية. وقد تولى إدارة التحرير بها رولاند دي بوسي ثم خلفه (Adrien Berbrugger) يوم 31 أوت 1835.

وكانت صحيفة خبور أو أخبار الجزائر امتدادا لما كان يصدر من صحف في فرنسا الذي كان بعدد 750 عنوانا منها 250 عنوانا في باريس فقط. وهذه

دلالة على أهمية هذه الوسيلة الدعائية الإعلامية وهو ما يفسر اتساع الصحف الإعلامية في الجزائر خلال الوجود الاستعماري[7]

والدارس لمحتوى هذه الصحيفة تتبين له إحصاءات كثيرة ومعلومات تكاد تكون أول بأول عن الاحتلال الفرنسي في الجزائر. ففي العدد 27 جاءت معلومات تبين مدى النشاط الاستيطاني في الجزائر، ونقتبس من هذا النشاط ما يلي:

ففي مدينة الجزائر وحدها صارت 7 أسواق كان أهمها للحبوب، والخضر، والحيوانات. وكذلك مذبح مقسم إلى ثلاثة؛ قسم خاص بالمسلمين وقسم خاص بالمسيحيين والثالث خاص باليهود. بجانب مطبعة فرنسية عربية. ومؤسسات أخري منها محفلان ماسونيان[8]. ومستشفى مدني. ومؤسستان داخليتان للذكور واثنتان للبنات. و50 تاجرا أوروبيا. و9 حرفيون متخصصون في مواد صناعية. و28 مخبزة فرنسية. و9 مقاهي. و4 نوازل إقامة بمطاعم و4 مطاعم. و100 بائع خمر. و3 أطباء و 5 صيادلة. وقابلاتان. وموثقان، و4

7- إذ صدرت في الجزائر جرائد كثيرة مثل *"النشرة الرسمية لعقود الحكومة"* (Bulletin officiel des actes du gouvernement) عام 1834 اختصت بنشر كل ما يتعلق بالقرارات الحكومية. ثم تأسست صحيفة الأخبار (Akhbar) التي كانت تصدر بحروف لاتينية عام 1839. ثم صدرت صحيفة السيبوس (La Sybousse) عام 1843. وجريدة (Courrier de Bône) عام 1849. وجريدة *"الجزائري"* (L'Algérien) عام 1852. ثمّ تأسست صحيفة طبية عام 1856 باسم (La Gazette médicale).

ومن أهم الصحف صحيفة المبشر الصادرة عام 1847. وهي صحيفة رسمية موجهة للجزائرين وتصدر باللغتين.

8- لعبت الماسونية دورا كبيرا في عملية الاحتلال في الجزائر لمزيد من المعلومات يراجع كتابنا من تاريخ الجزائر الحديث، الطبعة الثانية، دار الهدى، 2004

محضري قضاة. و6 رجال قانون.و 3 مهندسين معماريين. و40 بناء. و25 نجارا. وبائع السلاح. و20 إسكافيا. و3 محلات حلاقة. و6 محلات سعالجية. ومحل بيع الذهب. وسيرك. تتبين بوضوح وضعية مدينة الجزائر خلال بداية الاحتلال.

ولفرض ضرائب على الجزائريين كان الإعلان باللغة العربية في العدد 29 المؤرخ في 18 أوت 1832 وهذا نصه:"*غرامة على دخول غلة البلاد.. في الجزائر.. كل حمل متاع الغلة يكون اومثل خدرة اومثل قمح الذي يدخل في البلاد للبيع او للماكلة ملزم أن يخلص غرامة في بيان المدينة الذيك يكون من جيهت البر كيف باب عزون باب الواد باب الجديدوهذه الغرامة هي كل كريطة مولة اثنين أو اربع روطة وتكون معمرة تخلص على كل عود ستة موزونة كل حمل محمل ستة موزونة كل عود أو بعل محمل اربع موزونة كل حمر محمل موزونة وعشر دراهم كل رجل محمل عشرين درهم. حمال الحطب للتشعل لم يخلص إلا نص غرامة المذكورة ولكن يخلص الغرامة كلها إذا يخود حاجة بالزايد الحطب*" .

توقيع جانتي دي بيسي

تتبين من هذا القرار إجحاف السياسة الاستعمارية في حق الجزائريين كلهم. بفرضها لضرائب متنوعة. بل ذهب بها الأمر إلى جمع الزكاة من عند السكان في جهات أخرى.

ويتبين من أعمال الموثقين المذكورة في هذه الصحيفة أن مصادرات كثيرة لأملاك الجزائريين، منها مصادرة بعض أملاك أعيان المدينة أمثال حمدان خوجة. وكذلك كانت دعوة رجال الاحتلال إلى الجزائريين كي يقبلوا على الدراسة

وباللغة العربية.

ونشرت الصحيفة أشياء كثيرة تمجد الجزائريين عبر التاريخ قصد كسب ثقتهم مثلما حدث في العدد 44 بتاريخ 24 نوفمبر 1832 حيث جاء بالحرف إن "العرب الذين في أقاليم المغرب هم في قديم الزمان عظماء وباهية وجذعان فصاروا عمايلهم للشعرا وللمورخين أفضل الأوان غبلا شك قلبهم ينتفخ ويخفق كمان حين يستعملوا السيف أو اليتعان ولما يسمغوا آلات الألحان أو يحمحم تحتهم الحصان لكن انقمعوا حركات شرقات لبعضهم بظلم الأتراك...يا أصحابنا وأخواننا العرب اعلموا أنكم تحفظوا دين آباءكم معما تشركوا بجلالنا وعزنا وتتاحدوا بنا". ومن غير المستبعد أن يكون لهذا الكلام فعله في نفوس الجزائريين؛ وقد يكون هذا الكلام انطلى على بعضهم ووثقوا بفرنسا.

وحين قررت السلطة الفرنسية تحويل مسجد كتشاوة في الجزائر العاصمة إلى كنيسة نشرت صحيفة أخبار الجزائر مقالا مطولا حاول إقناع العامة بشرعية ذلك، وجاء فيه:" ... *ولا بلا نكتب هنا الجواب الذي أرسله المفتي والعلماء للجينيرال حين شاورهم (الذين قالوا له) لأن هذا البرءة عرفنا منها الاحتمال فيهم كما هو فينا وهذه هي مضمنتها الجامع امتعنا انه يتبدل دينه ولكن مولاه فلم يتبدل لأن الرب النصاريين هو ربنا ولا فرق بيننا إلا الطبع الذي نعبده وأننا كنا بين يديكم وقدرتكم تأخذون هذا الجامع ولا اخذتموه ولكن طلبتموه منا وهذا الخير الذي عملتمو علينا فلم ننساه ولم ننسى أيضا أنكمشاورتمونا قبل أن قدستموه للعبادة دينكم*" . *ومن بعد هذه الكلام الصلح من الناس الأكابر في البلاد أي شيء يبقى إلا الصحبة والمحبة بين الجنوس هو ذا الدين: القران الغاير والصعيب في الزمن هو موجود بالصلح في قرب دين آخر*

أحلا منه ومن أجل هذا الخبر نشكر في الفرانصاويين والمسلمين سواء سواء هذه الكنيسة هي الأولى منذ مدة أربع عشرة ماية سنة ولا كنيسة غيرها مستقامة في مصر أو في بربريه... ونطلب من ربنا أن تصير كنائس أخرى[9].

فمن غير المستبعد أن تكون السلطة الفرنسية قربت إليها أنصاف العلماء وكسبت رأيهم ووظفته دعاية لعدم إثارة حفيظة المسلمين باستلامها أو هدمها لمؤسسات دينية. و لم تكتف بهذا بل عملت على تهدئة النفوس الثائرة ضدها بنشرها مثل هذا الخبر.

ونذكر ما جاء في قرار المقتصد المدني في صحيفة رقم 58 في 2 مارس 1833 المادة الثانية *"إن ليسوا يقدموا عقودهم في مدة ثلاثة أيام المذكورة فالبايلك يأخذ أملاكهم كما هو مكتوب في الشرط الثالث عشر وسبعماية من كتاب الشريع"*

وقد تولت السلطة الفرنسية حصر أملاك الناس ومصادرة الأملاك التي لا يملك أصحابها عقدا، إذ جاء في العدد 67 في 3 ماي 1833 أن "*وكيل الحبوس يدعى جميع أصحاب الأملاك الذين معينين لخدمة البيليك أن يسلموا بالعجل عقودهم في دار اللومينو حتى الناس الكومسيون يطلبوا فيهم ويتأكدوا بصحة مطالبهم ويثبتوا حقوقهم بل تصرف الأملاك في تاريخ 26 من شهر أبريل 1833*" (وكيل الحبوس برناد).

وتتالت الإعلانات باللغة العربية إلى الجزائريين حول أملاكهم، بمثل ما جاء في العدد 72 في تاريخ 6 جوان 1833 "*من عنده جنان أو ملك في حومة*

9 - Moniteur algérien, no 52, du 19 janvier 1833.

الحمة يتوجه يوم الأربع على الساعة التسع امتاع الصبح إلى قهوة الحمة الـتي على هي طارق القبة ليحقق حد ملكه من حد أملاك الدومينو"

وقد نشرت الأملاك المصادرة في منطقة الحامة في ملحق صحيفة رقم 93 بتاريخ أول نوفمبر 1833 والتي قدرت ب 26 قطعة ذات مساحة 31 هكتـار و36 آر 4 سنتآر وهي لكل من الدومين وبيت المال وللجامع الكبير ولبنـت حسن باشا ولبنت بيي وللسادة قدور هادي عمار ولحسن ولد زروق أنصـيل ولأحمد الأمين وللسيد مرسي وللسيد جولي وللسيد قارة محمد بن ولابيد

ونفس الإعلان نشر في العدد 73 بتاريخ 13 جوان 1833 وجه لسـكان باب الواد وجاء فيه *"من عنده جنان أو ملك في باب الواد يتوجه يوم الثلاثـه على الساعة ثمانية امتاع الصبح إلى البلاسة امتاع باب الواد ليحقق حد ملكه من أملاك الدومينو"*

تكرر الإعلان عن تحديد قيمة العملة المسكوكة في العدد 103 بتاريخ 10 جانفي 1834. وجاء في العدد 115 بتاريخ 7 لأبريل 1834 إعلام للجزائـريين تحديد مدة الحجر الصحي في إسبانيا بثمانية أيام" *...يعلم أهل الجزائـر..أن المراكب التي تأتي من جميع مراسى الجزائر لا يعملوا كرنطين في بلادها سـوى ثمانية أيام"*

وجاء من الجنرال فوارول الحاكم العام في عدد رقم 116 في 14 أفريـل 1834 خبر عقد صلح بين الفرنسيين والأمير عبد القادر بما يفهم من معناه *"أن الصلح لله الحمد قد وقع بالحلف وباليمين بين عساكر الفرنصيص وبين أعراش العرب والقبايل عمالة وهران بواسطة السيد الحاج عبد القادر بن محي الـدين وهو أرسل إلينا ثمانية رجال...بمكاتيب من عنده ومن عند الجنرال الذي يحكم*

في مدينة وهران... والآن العرب والفرنصيص يتعارفون بعضهم بعضا...ونطلب من الله أن جماعات المسلمين من العرب وغيرهم والفرنصيص يكونون على قوم واحد".

وصفوة القول إن السلطة الفرنسية استخدمت وسائل متعددة في احتلالها للجزائر. ومن أخطرها كانت الصحافة التي بدأتها بورقة خبور الجزائر التي تعد مصدرا نادرا لا يمكن الاستغناء عنه. ومن خلال محتوى صحيفة أخبار الجزائر يتبين أن رغبة فرنسا كان البقاء في الجزائر عكس ما أوهمت به العامة من أنها ستتخلى عن البلاد.

تسخير الـــــتَّنْوِير في تبرير الـــــنَّيْر *

ترجمة

أ. أحمد شقرون

جامعة الجزائر

* العنوان من وضع المترجم مقابل عبارة " Pacifier, éclairer" الواردة في النص الأصلي.

[...] " بناء على الدّور الجميل المتمثل في احتلال إحـــدى إيّـــالات إفريقيـــا الشمالية، تَبَنَّتْ فرنسا، في هذا الشأن، أقوى وسيلة حضارية ألا وهي التعليم. (...) إن فرض الأمن وتنوير هذه الأقاليم إقليما تلو الآخر، وبث فيهـــا مـــن جديد منافع العلم التي هاجرتها منذ قرون، تلكم هي المهمة النبيلة التي تنشدها وتقوم بها فرنسا (...) فبالتحفيز الذي ستمنحه لمثل هذه المؤسسات، وبالرعاية التي ستوليها للفلاحة، وبفضل التعليم والاحتلال، يتعين على الحكومة إرساء قواعد قوتها في الجزائر، وتحقيق هذه الثورة المعنوية والماديـــة، الـــتي تشـــكل الموضوع الحقيقي والجدير بكلّ جهودنا" التعليم والاحتلال، الثورة المعنويـــة والمادية، هما حجرتا زاوية لصرح أُرْغِمَتْ فرنسا على اقامته، بحكم المسؤوليات التي أخذتها على عاتقها[1] [...]

في ذات الوقت الذي كان يتم فيه، بطرق مختلفـــة، محاولـــة إدخـــال منظومة تربوية في ديار الإسلام (terre musulmane)، كـــان بعـــض المفكـــرين منشغلين بتزويد المعلمين بالوسائل الضرورية لمشروعهم، بينما كـــان الـــبعض الآخر يفكر في طريقة أسرع وأيسر من تدريس اللغة الفرنسية المخيب للأمل. وتتمثل هذه الطريقة في التّرجمات، الكتب المحررة باللغة الدارجـــة، عـــروض مبسطة لبعض المفاهيم العامة، والتي من شأنها أن تشق الطريق أمام الحوار أو، على الأقل، الاتصال. إن الجهد المدرسي قد واكبتـــه جملـــة مـــن المقـــالات ومنشورات تستعمل اللغة *العربية الدارجة لشرح الفكـــر الأوروبي*. هنالـــك لحظتان في هذا المشروع

1- Genty de Bussy M-P, De l'établissement des Français dans la Régence d'Alger et des moyens d'en assurer la prospérité, Alger 1833-1834 2 Vol, p 1999

التربوي الشعبي: مهمة Dutrône، في 1834. مع إلى ظهور جملة من المشـــاريع مابين 1846-1847.   وفضلا عن ذلك، فإن عدد الإنجازات كان جدّ محدوداً، في كل مرّة. ومن المرجّح أن المؤلفات الطبية المبسطة هي التي كانت تنجز، مثل كتاب الطبيب Furnani، دَليل قواعد حفظ صِـــحَّة العــين" Guide d'hygiène oculaire" في 1843، الذي تعد دراسته المفصلة هامة بصفتها بحثا في علم النفس الطبي، أو مؤلفات الدكتور Bertherand، الذي من بـــاب التـــرويح الطـــبي، سيكتب كثيرا، فيما بعد، في "المبشر" (le Mobacher)، جريدة ثنائيـــة اللغـــة كانت تنشرها المكاتب العربية **

إن الفكر الذي تقوم عليه هذه المؤلفات الطليعية، الوهمية والحقيقيـــة منها، يستحق بالأحرى الإهتمام الذي ينم على هذا الحب في الاطلاع، الـــذي ينحصر في فئة قليلة لكنها حيوية وفاعلة، والذي سيكون وراء تحريـــات عـــام 1847ليختفي، بصفة شبه كلية، مع توّسع الاحتلال.

عقب عودته إلى فرنسا، في 1835، اقترح Dutrône مبلغ 1000 فرنك لمؤلف شعبي حول الجزائر، يترجم إلى الدارجة الجزائرية. قام وزيـــر التعلـــيم العمومي بتأليف لجنة تتكون من خمسة أعضاء للنظر في القضية: Victor Cousin، Genty de Bussy، Jomard، من معهد فلمان (Fellmann) و Demoyencourt، المدير

Le Mobacher édité par l'administration, à partir de 1847.

** هيئات أنشأتها السلطات الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، في 1833، من أجل إدارة شؤون بعض أقاليم البلاد. كان يبلغ عدد هذه المكاتب حوالي أربعين مكتبا (49 في 1870)، وكانت تضم 150 ضـــابطا (206 في 1866). كان كل مكتب يحتوي على طبيب، ترجمان، خوجة، كاتبين مســـاعدين، شـــاوش وعدد من السّبايسية (الفرسان) والمخازنية (المترجم).

المقبل للكوليج العربي بباريس.

أمام هذا الجـــمع، وأمام المـــرشحين الآخرين بالطبع، القى Dutrône خطابا ممتازا من ناحية إدراك المعاني والواقع المحلي، حيث أن الكثير من هؤلاء أقبلوا على إعادة قراءاته فيما بعد .

لقد كانت لهذا المستشار، من مجلس قضاء أميـــان (Cours d'Amiens)، إما ثقافة عربية راسخة وإما قدرة نادرة على الملاحظة. فالعديد مـــن النقـــاط المبهمة، التي لم تدرك قط من قبل، قد تم الكشف عنها و التشديد عليها لفائدة المقبلين على التأليف. إن تحليله أعمق من كل التحليلات التي اقترحت إلى غاية 1848، سواء تلك الصادرة عن Genty de Bussy أو عن Le Compte Gyot. إن تحليله يبرز، بمنتهى الدقة، التباينـــات الحضـــارية، (contrastes de civilisation) الواجب تخطيها والتي تتجلى، بصفة خاصة، عبر كل علاقة مدرسية أو طبيـــة، تقام بين الأوروبيين والمسلمين.

التوصية الأولى: *قبل الكتابة في أي موضوع اقرؤوا القرآن*. بعد ذلك، " *يجـــب أن تكون هذه الكـــتابات مجردة مـــن الـــنصوص ذات الصـــلة بالحيـــاة المترَفة(vie confortable). إن العلاقات المفترض إقامتها مع العـــرب والقبائـــل تختلف اختلافا كبيرا عن العلاقات الـــتي تربطنـــا بالبريطـــانيين والألمـــانيين والإيطاليين. فإنني اعتذر للكثير من مواطننا، بإفريقيا، على أنه يتعذر علـــي أن أشاطرهم الرأي بأن تعزيز غزونا يـــكمن في تعزيز التقاليد البارســـية داخـــل أسوار مدينة الجزائر. فينبغي على دعاة الحضارة (missionnaires de civilisation) [...] حتى ينجحوا لدى السكان الأجانـــب أن يقـــلدوهم في ســـلوكاتهم*

الخارجية" [1] لا حاجة إلى تغيير اللباس، العادات، الشيء الذي اكتسى معنى معتبرا في أعين بعض المربين.

عندما قررنا الحياة في افريقيا، فلا مجال للإلتفات إلى السواحل الفرنسية وإنما إلى جبال الأطلس.

لقد تم معالجة التفوق الأوروبي مع التعبير عن الخيبة الناجمة عن التجربة: *"كما اعتقد بأنه لا يجب أن نكلم القبائل والعرب عن خصائلنا وفضائلنا دون أن نُقرِّ لهم بعيوبنا ورذائلنا"* . فمن السهل على كل واحد منا أن يُكَوِّنَ رأيا خاصا به حول هؤلاء وأولئك.

في غياب التفوق المعنوي يظل التفوق العلمي قائما. يقول Dutrône في هذا الشأن: *" يجب أن نعلنَ جهارا بما تدينه أوروبا لإفريقيا"* ، وإن تفوقت أوروبا على أساتذتها، فلأنها، خلافا لهؤلاء، انفتحت دوما على الشعوب الأخرى. هذا هو المثال الواجب الإقتداء به .

إن هذا لا يمس البتة بصعوبة ترغيب الأفارقة في هذا العلم الذي لا يرفضون الحكم عليه فقط، بل مجرد الإطلاع عليه، الشيء الذي يجعل كل أمل في التطور منعدما .

كيف يمكن فرض حب الإطلاع، الإجبار على الشك،و اطلاق الشرارة التي توقد الرغبة في معرفة أحسن أو في معرفة مخالفة؟ كيف نفتح مجرى ماء (une voie d'eau) أمام جناح هذه السفينة الجانحة منذ قرون خلت، ليس للإجهاز

1- Archives Nationales, F.80.1846

عليها وإنما لإحداث وثبة الخلاص؟ هذا هو السؤال المطروح والذي يطرحه كل واحد منا لفترة طويلة.

ومن غير أن يستعمل Dutrône النظرية، فإنه، بضربه بعض الأمثلة، يعرض الموقف الذي كان يتبناه الأطباء عموما: التحول إلى ساحر لإبطال السحَر. إن التنبؤ بكسوف ما، تحقيق بعض العلاجات الخارقة؛" *ثم تقول لهم: إن قوة إحداث مثل هذه الخوارق وكذا علم التنبؤ بحركات الأجرام، يحصل عليهما بدراسة كتبنا وارتياد مدارسنا*"[1] . عندما يتم الإقناع بأن هذه المعجزات المزعومة ليست سوى منجزات العلم، يمكن لنا أن نأمل بأن الجميع سيرغب في الحصول على هذا الفن العجيب. وبعد تجريد الكون من قداسته نكون قد رددناه إلى المستوى الإنساني.

إن ذلك لم يكن سوى أمنيات. في 1837، حظيت ستة كتب من ضمن سبعة بمكافأة: كتابان في النحو، ثمانية قواميس وكتابان في المحادثة. وهكذا كنا بعيدين عن الآفاق المنشودة. ومن جهة أخرى، كان علم النحو و التراكيب يعبر بهما عن الأفكار، و لم يخض أحد، حتى ذلك الحين، بنية اللغات... إلا أن هناك مصنَّف (compilation) ظهر منذ 1836-1937 وهو يبدو أقرب إلى الواقع الحيّ: "نصوص مختارة" (chrestomathie) من تأليف Bresnier، أستاذ اللغة العربية بمدينة الجزائر. إنه عبارة عن مجموعة من الرسائل، إيصالات، عقود الزواج والطلاق، نُبذَ عن التركة، مترجمة ومشروحة أحيانا.

1- Archives Nationales, F80.1846

إن هذا المصنف الذي أعيد طبعه عدة مرات، كان ذات فائدة كبيرة لرؤساء المكاتب العربية وكل الذين يشاركون في الحياة القضائية. كما قام بدوره Charles Solvet، مستشار بمجلس قضاء الجزائر، بترجمة مؤلفات عربية إلى الفرنسية، من بينها: " *وصف بلدان المغرب*" لأبو الفداء

بعد مرور عشر سنوات ، تم بَذْلُ مجهود جديد من أجل النشر عقب أشغال اللجنة العلمية الخاصة بالجزائر، و فضلاً عن ذلك، قام ثمانية معلّمين بتكييف كتب مختلقة ذات صلة بالمطالعة ومبادئ اللغة.

إن الاقتراح الهام والطريف جدا هو ذلك الذي اقترحه الناشران Fortin و Masson، الكائنان بساحة مدرسة الطب بباريس. فقد بدالهما أن سكان الجزائر لم يدركوا بعد معنى الجنسية الجزائرية، " فالبنسبة لهؤلاء، الوطن هو القبيلة. فلم يدركوا بعد معنى هذا الوطن الواسع الذي حققه لهم الغزو الفرنسي" *إن واجب التعليم الفرنسي هو إذن تعليمهم قراءة " أنا جزائري..."*

ومن أجل تحقيق هذا الغرض، يقترح هذان الناشران الإسهام في نشر نُبذة عن جغرافية الجزائر، بأسماء القبائل، الجبال، الخ، نُبذ عن جغرافية فرنسا وتاريخها. وأخيرا، نشر تاريخ عن علاقات الأوروبيين بالمسلمين مع ذكر" *كل الظروف التي تبادل فيها هؤلاء علاقات الود والتسامح، مع الحرص على نبذ كل الأعمال التي من شأنها أن تعيد الأحقاد والضغائن إلى الأذهان*" (1)

1- Archives Nationales, F.80 1846.

تظل هناك مشكلة تركت ملفات هائلة كانت موضع مراسلات وتقارير متعددة ودقيقة، سواء في باريس أو في الجزائر، والــتي شــارك فيهــا Léon Roches، Demoyencourt، Fellmann، مصالح الجنرال Bugeaud و مصالح رئاسة الحكومة والتي كانت تتضارب في أغلب الأحيان، دون أن تجد مخرجا شــأنها في ذلــك شأن المشاكل المدرسية.

إنها مشكلة الكوليجات العربية بفرنسا أو في الجزائر، وهو التعــبير الإداري، على مستوى التعليم الثانوي، عن المشكلة التي سبق طرحهــا علــى المدارس الابتدائية: كيف نعلم الفرنسية للعرب والعربية للفرنســيين، ونطــور المجموعة اللغوية التي أصبحت ضرورية بفعل تنامي العلاقات التي يعتبرها الجميع خطوة أولى نحو مجموعة عضوية [1]

كان كوليج مدينة الجزائر يعرف حياة مضطربة حيث كانت تنقلات التلاميذ تعكس تنقل العائلات المستمر. كانت هذه الأسفار غالبا ما تمنح الطلبة ذهنا متوقدا ومحبا للإطلاع (curieux)، لكن قليلا من المواظبة على العمل. لم يختلف المدير الجديد كثيرا عن سابقه ويبدو أن العديد من الأساتذة كانوا على شاكلة رئيسهم في السلّم الإداري، إلى حــدّ أنــه، في 1842، تمّ اللّجــوء إلى الرّسائل المغفلة، الغنية بالتفاصيل حول الحياة الفردية لكلّ واحد منهم، كــأن يكون المدير، مثلا، قد تعاطى المتاجرة بالجلود، بينما تتناول بــاقي الرســائل الأخرى حالات السُّكر أو ما يسمى بــالأمراض التناســلية. فــردّ الــوزير

1- Archives Nationales, F80.1562,1572,1571,1732,1849, 1851, 1842, 1843 (concerne le collège d'Alger et les cours de langues).

على ذلك بإرساله المفتش Artaud، مُزَوداً بتعليمات سرّية ودقيقة، وصلت منها نسخة واحدة إلى الجنرال Bugeaud. كانت الرسائل تلّح على نقطة يدرك المؤلف أنها عزيزة على الإدارة: توظيف شبان جزائريين و اجبار الجميع على تعلم لغتهم [العربية] بالكوليج منذ 1840.

إن العائلات المسلمة متشبتة بنفورها من التعليم الأوروبي، كما ورد في هذه الرسائل، نظرا للسمعة المشبوهة للسلك التعليمي. كما أن معرفة العربية لم تتطور لأن السيد Jubien لم يكترث بذلك. ومن جهتهم فإن الشبان الذين يُلَحُّ على تعليمهم بباريس لم يتعلموا الفرنسية أكثر من تَعلُّم الفرنسيين العربية بالعاصمة الجزائرية. ورغم كل التوصيات الوزارية وتوالي *المذكرات* فإن كل واحد كان يبدى نحو لغة الأخر عدم اهتمام شبه تام. كانت مهمة السيد Artaud تتمثل في ايجاد علاج لهذه المعضلات. إن المذكرة التي كان يحملها لم تترك أدنى شك حول عزيمة باريس على بلوغ النتيجة بأي ثمن، إذ جاء فيها، كذلك، أنه إذا رغب العرب عن التكلم بالفرنسية، فإنه يجب على الفرنسيين أن يتعلموا العربية. وكما ترون فإنه لم يحن الأوان بعد للتخلي عن المشاريع الكبرى.

إن تعليم الفرنسية للعرب يطرح سؤالا: هل كان ينبغي تعليم الصغار أم الكبار؟ لقد تقرر فعل الأمرين معاً: الكوليج للأطفال والدروس المسائية للكبار حيث تم إنشاء دروس مسائية للأعوان المحليين (chaouchs)، المستخدمين الجزائريين، و" السَّبَايْسية" (spahis)! وبنفس الطريقة، تم تخصيص دروس للموظفين الفرنسيين العاملين، لا سيما العساكر المتواجدون في مهمة خاصة. لا

يمكن لأية توْصية، ملزمة، نوعا ما، أن تقنع المستخدمين الآخـــرين بالتضـــحية بأوقات راحتهم، مهما كانت المزايا المالية أو المهنية الموعودة.

كانت باريس ترغب في أن يتعلم المعلمين، خاصة، العربيـــة ليلقنـــوا مبادئها لتلاميذهم الأوروبيين، الأكثر تقدما في هذه اللغة، وبالتـــالي تفضـــيل هؤلاء المعلمين على غيرهم." مع الأسف فإنه، من النادر أن يفضل معلم علـــى آخر"، يقول Lepescheux، امضيفا، حتى يدفع الوزارة إلى مزيد مـــن الواقعية: " من الصعوبة بمكان لمعلم مسكين أن يتفرغ بجدية لتعلّم مثل هذه اللغـــة (..) ليس فقط لأن الوقت ينقصه، لكن عقله، المرهق بفعل التوتر الشـــديد الـــذي يتطلبه التعليم والمراقبة في قسم مكتظ يضم بين 50، 60 أو 80 طفلا، غير قادر على الاقبال على دراسة طويلة وجادة." ويلخص Lepesheux قوله بهذه العبارة الرائعة: " المعلم الابتدائي هو الرّجل الكادح المكرّس لإنارة فكر الشـــعب " إذا كان تلقي *مذكرة تهديدية* يجلب لمعلم الفرنســـية أو العـــربية ، على حـــــدّ ســـــواء ، بـــعض الطلـــبة المستمعين (auditeurs) (حيث اقتضى الأمر إلى حدّ تهديد الأعوان المساكن بغرامات معتبرة في حالة التغيب)، فإنه سرعان مـــا تلاشى الحماس. لم يتجاوز عدد الطلبة الأوروبيين للأستاذ Bresnier ، بمدينـــة الجزائـــر، 20 و 25 طالبـــا، ليـــنخفض بعـــد عـــام 1848. و تحصـــل الأستاذ Cherbonneau على 7 طلبة بقسنطينة، في 1852، بينما تحصل الأســـتاذ Combal على 11 طالبا، بوهران، في نفس السنة. من المحتمـــل أن كرســـي *أستاذتيهما* قد أنشئا، في 1846، بينما كان كرسي *أستاذيه* الجزائر موجودا منذ 1837. وهكذا، *يلاحظ أحد الأباء اليسوعيين بن عكنون: " إن الرّغبة المطلوبة لتعلم العربية في تراجع مستمر لأن استعمال هذه اللغة قليل الإحتمال "* .

وهكذا، تكون [سلطات] الجزائر، في 1846، قد حلت بشكل نهائي المشكل بتعويضها الدروس العمومية بدروس متخصصة لصـــالح المستشـــرقين المقبلين على التخصص. أبْدَى من جهته، Fellmann، من باريس، معارضة لهذا الحل مفضلا أنواعا من التربصات التكوينية لمستخدمي مكاتب الأهالي المدنيين والعسكريين. فقد بدا له أن مشكل اللغة الضيق قد تم تجاوزه وأن المشكل الأهم هو معرفة البلاد. لقد تم الاقتصار إذا – حتى لا يظن البعض أنه تم التخلي عمّا سبق – على سياسة ثَبَتَ عدم جدواها وهي سياسة التشـــجيعات المقرونـــة بالمكافآت نوعا ما: " *سيكون ذلك على أي حال أحســـن مـــن التقوقـــع في الأعمال الرتيبة البالية لجامعة فرنسا*"، كما سبق و أن لاحظه Urbain.

Source : Yvonne Turin, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, écoles, médecines, religion, 1830-1880, Ed Houma (pp.36 et 56-62)

وحدة المغرب العربي من خلال قرارات المؤتمر الحادي عشر لجمعية الطلبة المسلمين الشمال ــ أفارقة ، تــونــس 1950

أ. محمد بلقاسم
جامعة الجزائر

نبذة تاريخية عن الحركة الطلابية:

تعود جذور نشأة الطلبة المسلمين الشمال أفارقة (AEMNA) إلى نهاية العشرية الأولى من القرن العشرين، حيث حاول بعض طلبة المغرب العربي ربط الصلات فيما بينهم لعقد مؤتمر حول ((أمة شمال إفريقية)) ، غير أن الحرب العالمية الأولى حالت دون ذلك، فنشأت جمعيات طلابية على مستوى أقطار المغرب العربي (تونس، الجزائر، مراكش) خلال عقد العشرينيات من نفس القرن، وخلال سنة 1927، صهر طلاب المغرب العربي جمعياتهم القطرية في جمعية ((أم)) واحدة، فيما بين شهري نوفمبر أو ديسمبر، أسموها جمعية الطلبة المسلمين الشمال أفارقة بباريس، و هذا بدعم حسب بعض المصادر من حزب نجم شمال إفريقيا، وبقيت جمعيات الطلبة علي مستوى الأقطار الثلاثة فروعا للجمعية الأم.

اهتمت جمعية الطلبة المسلمين الشمال أفارقة في بداية أمرها، بأمور الطلبة المادية و المعنوية وتمتين روابط المودة والتضامن بين طلبة المغرب العربي، لكنها مع توالي الأيام وجدت نفسها مرغمة على الخوض في الأمور السياسية في النضال من أجل هدف مشترك واحد لأعضائها و هو الاستقلال السياسي و الاقتصادي و الثقافي للمغرب العربي [1].

وإذا كنا نمتلك معلومات عن نشاطات جمعية الطلبة المسلمين، خلال عقد الثلاثينيات من خلال مؤتمراتها السنوية، بداية من سنة 1930 إلى سنة 1938 أي من المؤتمر الأول بقصر الموتيال (Palais de la mutualite) بباريس إلى مؤتمر تطوان [2] ، فإننا لا نملك إلا شذرات يسيرة عن الجمعية بعد هذا التاريخ و إلى غاية ما بعد الحرب الإمبريالية الثانية، اللهمّ إلا ما قدمته لنا وثيقة من الشرطة

الفرنسية، بتاريخ 21 جوان1944، و التي ذكرت أنّه بين سنتي 1938 و 1939، كان معظم قادة هذه الجمعية من أصل تونسي، و ينتمون إلى الحزب الدستوري الجديد، و أنّهم كانوا يعقدون جلساتهم في مقر الجمعية نفســـه بنـــهج رولان باريس، و أنّ الجمعية الطلابية قد اعتراها جمود واضح وصل إلى درجة التوقف الكلي تقريبا، منذ شهر سبتمبر 1939، و تذكر نفـــس الوثيقـــة ، أن بعـــض العناصر الـــطلابية سعـــت إلى تنشـــيط الجمعية من جديد خلال سنة 1943 و كونت مكتبا على النحو التالي:

الرئيس ، إبراهيم معيزه (جزائري)

مساعد الرئيس ، الطاهر عميره (تونسي)

الكاتب العام ، عبد القادر الحاج علي (جزائري)

أمين المال ، أحمد عزوز (تونسي)

و مع أوائل سنة 1944 أصبح المكتب على النحو التالي :

الرئيس ، حافظ إبراهيم (تونسي)

مساعد الرئيس ، محمد دواق (جزائري)

أمين المال ، محمد الميلي (تونسي حسب الوثيقة) و يبدو لنا أنّه جزائري.

الكاتب العام ، أحمد العلوي (مراكشي)

مساعد الكاتب العام ، مصطفى عون (تونسي)، و تذكر الوثيقة أن الجمعية عقدت بعض المحاضرات، منها الخطاب الذي ألقاه الدكتور الحبيب ثامر، الذي هدف من خـــلاله الى " توثيق الأواصر بين طلبة المغرب العربي" و الدعوة الى " تحرير الإنسان و الوطن " ، و أن الطلبة التمسوا التأيـــد مـــن المنظمـــات

الشيوعية و الاشتراكية و حتى التروتسكية منها، و أنّهم يواصلون عملهم رغم الأحداث و ما تولد عنها من صعوبات [3].

عاد الطلبة بعد الحرب إلى تنظيم جمعيتهم، و عادوا إلى شعارهم المفضل: الوطنية المغربية(المغاربية) بعد أن كانت جمعيتهم نقابية طلابية انزلقت إلى الأمور السياسية المغاربية، كما سبق و أشرنا فقد لاحظ تقرير الجنرال توبار (Tubert) عن الطلبة بعد حوادث شهر ماي 1945 في الجزائر، قائلا: " إن شباب الكليات انساق في أغلبيته نحو الأفكار الوطنية ، و في أدنى الأحوال أصبح مستقلا..."[4]، و ذكرت تقارير فرنسية أخرى عن الطلبة خلال سنتي 1947/1946 أن طلبة شمال إفريقيا تبنوا الوطنية الأكثر راديكالية " فالتونسيون انساقوا وراء الدستور الجديد و أصبحوا يمجدون بورقيبة، و أن ثلاثة أرباع المراكشيين مناضلون بحزب الاستقلال (لعلال الفاسي) و البقية بحزب الشورى و الاستقلال (لمحمد حسن الوزاني)، و أخيرا فان الثلثين من الجزائريين على الأقل متعاطفون مع مصالي الحاج و حزب الشعب الجزائري و الثلث الآخر مع فرحات عباس و حزب البيان..." و أن جميع هؤلاء الطلبة كانوا يتحدثون عن المغرب العربي كوطن واحد و يتمنون استقلاله أو ينادون بشبه اتحاد لبلدانه الثلاثة.[5]..

و أقامت جمعية الطلبة عدّة نشاطات ثقافية و اجتماعية خلال سنتي 1945 /1946، و ألقيت في مقر الجمعية بشارع سان ميشال رقم 115 باريس عدّة محاضرات، و شارك الطلبة في مؤتمرات طلابية عالمية و فرنسية، و استقبل الطلبة بمقر جمعيتهم الأمير سيف الإسلام (من اليمن) و مصالي الحاج و الدكتور طه ياسين و السيد عمر بن عبد الجليل و تران دوك ثاك (

(Tran Duc Thac) (من الهند الصينية) و روجي غارودي و ميشال روز و كاتب ياسين و امحمد بن عبود و غيرهم ... و استمع الطلبة إليهم خلال تدخلاتهم و محاضراتهم، أما خلال سنة 1946، فحاولت جمعية الطلبة إحياء سنتها القديمة، و ذلك بالعودة إلى عقد مؤتمراتها السنوية، فعقدت الجمعية مؤتمرا بمدينة باريس في شهري مارس ــ أبريل 1947، و اهتم المؤتمرون خلاله بدراسة مشاكل الشباب الشمال إفريقي و التنظيم المستمر للجمعية مع ربط الصلات بالعالم العربي(6).

وليست لدينا الآن، معلومات كافية عن قرارات مؤتمر 1947 ، و نشاطات جمعية الطلبة في المغرب العربي ككل إلى غاية 1950، اللهمّ إلا شذرات عن جمعية الجزائر، و يبدو من خلال احتجاجات أصدرتها الجمعية أن الطلبة في المغرب العربي تعرضوا إلى القمع و المتابعة من قبل السلطات الفرنسية، كما أن الجمعية دخلت في منافسات مع جمعيات طلابية فرنسية خاضعة لعدّة إيديولوجيات عالمية، كانت تريد السيطرة و النفوذ على الطلبة المغاربة و على جمعيتهم (7)، و كان الطلبة خلال نفس الفترة ينتمون إلى أحزاب أقطارهم، فقد ذكر كاتب (8) أن طلبة الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية (حزب الشعب الجزائري)، كانوا يحتكرون جمعية الطلبة ، نتيجة تحالف حزب الشعب الجزائري ــ حركة انتصار الحريات الديمقراطية مع حزب الدستور الجديد و حزب الاستقلال.

المؤتمر الحادي عشر و وحدة المغرب العربي.

مع مطلع 1950، كانت جمعية الطلبة المسلمين الشمال أفارقة قد أسست فرعا لها بمدينة بوردو الفرنسية، وهو الفرع الذي نظم بدوره اجتماعا عاما له يوم 25 جانفي لاحياء ذكرى مرور أربعين يوما على وفاة شهداء المغرب العربي الثلاثة: الدكتور الحبيب ثامر و الأستاذ علي الحمامي و الدكتور امحمد بن عبود [9]، كما أجرت الجمعية تحضيرات تمهيدية لعقد مؤتمر الطلبة الحادي عشر بتونس [10] خلال نفس السنة،و هو المؤتمر الذي عقد في " كازينو بلفدير " بتونس العاصمة من 15 إلى 22 سبتمبر 1950، و هو ثاني مؤتمر بعد الحرب العالمية الثانية، و هو في حد علمنا من أهم المؤتمرات الطلابية، نظرا لما تضمنته تقاريره النهائية عن أهداف الحياة الثقافية و الاقتصادية و الاجتماعية و الحياة السياسية و آفاق مستقبل المغرب العربي ، و هذا بخلاف مؤتمرات الطلبة خلال عقد الثلاثينيات التي اهتمت بالإصلاح بصفة عامة كصلاح أحوال الطلبة و التعليم و المطالبة بتدريس اللغة العربية و التاريخ العربي الإسلامي و غيرها، إلى جانب اهتماماتها ببعض أمور السياسة...

فقد نصت تقارير اللجنة الثقافية على عدّة مطالب منها، المطالب العامة و مطالب حول الثقافة الشعبية وأخرى خاصة بكل قطر، ففى باب المطالب العامة أقر المؤتمرون " اللغة العربية، لغة رسمية لكل بلدان المغرب العربي " و ألحوا على ضرورة تعميمها في التعليم بمختلف مراحله، إضافة إلى توحيد مناهج وبرامج التعليم في كل المنطقة، مع إجباريته و مجانيته، و فتح المجال لتكوين المدرسين و الأساتذة، و تعميم التعليم التقني و المهني ، و إضفاء مواد جديدة على طابع التعليم كالموسيقى و الرسم و الرياضة البدنية وتعديل

شهادات الجامعات الإسلامية المغاربية و المشرقية، إلى جانب المطالبة بحرية التعبير و التفكير و إرسال البعثات الطلابية إلى الجامعات الأجنبية، و إلى تبادل المدرسين و الأساتذة بين المشرق و المغرب العربيين، و إنشاء مركز للبحوث العلمية و تشجيع مؤلفي الثقافة العربية بإنشاء جائزة تمنح للكتاب والشعراء. و إنشاء رابطات وطنية رياضية مغاربية، و فتح المجال للمغرب العربي للمشاركة في التظاهرات الرياضية العالمية.

وجدد الطلبة ثقتهم من خلال تقرير اللجنة السياسية في الجامعة العربية، و تمنوا منها مساندة البلدان العربية في الأمم المتحدة و دعمها للمغرب العربي للحصول على الاستقلال ، و عن ليبيا عارضوا لائحة شهر نوفمبر 1948 الصادرة عن الأمم المتحدة ، و طالبوا بعدم تنفيذها و أكدوا على وحدة و استقلال هذا البلد، كما أكد المؤتمر من خلال نفس اللائحة " إرادة المغرب العربي حكاما و شعوبا رفض الانتماء إلى الاتحاد الفرنسي ". و استنكر المؤتمر تبعية الجزائر لفرنسا ، مؤكدا على أن " الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي، جغرافيا و تاريخيا و عرقيا و ثقافيا " ، و أقر عدّة لوائح أخرى في المجال السياسي منها، موقفه من قضايا إفريقيا و الحلف الأطلسي و الحرب و النقطة الرابعة من مذهب ترومان و المسألتين الكورية و الفيتنامية و قضايا التفرقة و العنصرية و الأمم المتحدة و المشكلة الاستعمارية . ففي عنصر الحلف الأطلسي، رفض المؤتمر إدخال الجزائر في نظام دفاع الحلف ، و قال إن المغرب العربي لا يعترف بالتزام دولي أجبر على الانتماء إليه اللّهم إلا إذا كانت أقطاره مستقلة و رغبت في ذلك. أما عن مذهب ترومان ، فان المؤتمر أكد على

أن المغرب العربي يقبل المساعدة بناء على " النقطة الرابعة (IV° Point) لكن بشروط : أن لا تكون هذه المساعدة للنظام الاستعماري (الفرنسـي)، و أن تكون للشعوب المستقلة ، و أن لا ترهن الثروات الوطنية مقابل ذلـك، و أن تسلم المساعدة مباشرة إلى بلدان المغرب العربي.

و أصدرت اللجنة الاقتصادية و الاجتماعية عدّة لوائح بشأن وضعية العامل و حول الاقتصاد و الفلاحة و الصحة و السكن و مساهمة الطالب في ترقية هذه الميادين، و نقتصر هنا على بعض القرارات فيما يخص الاقتصاد و الفلاحة ، فقد طالب المؤتمر بتحقيق التصنيع في المغرب العربي و إعادة النظـر في الاقتصـاد المغاربي و جعله يتلاءم و طموحات الشعوب المغاربية، و هذا بتـأميم جميـع مصادر الثروات الوطنية و الشـركات العـمومية (من نقل و كهرباء و غاز و مياه و مناجم...)، إضافة إلى تشجيع الصناعات التقليدية المحلّية و حمايتـها بقوانين جمركية من المواد الأجنبية، و إنشاء بنوك وطنية للقرض ، مـع نشـر التكوين المهني و تعميمه، و في المجال الفلاحي ، طالب المؤتمر بإلغاء السياسـة الاستعمارية للأراضي الفلاحية و إدخال الإصلاح الزراعي و توزيع الأراضـي الفلاحية على المزارعين و إدخال التعليم الفلاحي العصري و بإنشاء التعاونيات الفلاحية الإنتاجية و إنشاء التعاونيات النموذجـية و بنـوك القرض الفلاحي و القيام بحماية الأنعام و الحيوانات الأليفة (11).

و رغم أننا لا نملك الآن معلومات كافية عن الطلبة الـذين شـاركوا في المؤتمر، و لا عن إيديولوجياتهم ، إلا أنه يبدو من الواضح ، من خلال قراراتهم أنهم كانوا مؤمنين بوحدة المغرب العربي و مقتنـعين بأفكار القومية العـربية و الجامعة العربية ، أما في المجال الاقتصادي و الاجتماعي ، فكـانوا مقتـنعين

بالأفكار الاشتراكية ، و ذلك نتيجة ظهور معسكر اشتراكي كان ينادي حينئذ في إطار صراعه مع المعسكر الرأسمالي ، بضرورة تحرير الشعوب المستعمرة ...

ووجه المؤتمر بخصوص نتائج أعماله عدّة نداءات إلى الهيئات الوطنية و الدولية ، منها هيئة الأمم المتحدة و البلدان العربية و منظمة اليونسكو و المجلس الاقتصادي و الاجتماعي بالهيئة الأممية،[12] يدعوها من خلالها (نداءاته) تطبيق قراراته بخصوص المغرب العربي.

و تشير المصادر إلى أن المؤتمر انعقد في جو سياسي خاص ، فقد حضر جلسة الافتتاح الأمير الشاذلي باي و الأميرة عائشة، من الأسرة الحاكمة في تونس.

الحبيب بورقيبه، و صالح بن يوسف ، الأمين العام للدستور الجديد ووزير العدلية وقتئذ في حكومة شنيق، كما حضر ممثلو المقيم العام الفرنسي وأعضاء المكتب السياسي للدستور الجديد و ممثلو المنظمات الوطنية من نقابة وكشافة إسلامية و جمعية نسوية فضلا عن بعض المثقفين التونسيين [13].

وكان المؤتمر برئاسة عبد اللطيف بن جلون (من المغرب الأقصى)و حضره سبعون طالبا من تونس و الجزائر و المغرب الأقصى، و من ليبيا لأول مرّة في حدود علمنا، وزار الطلبة خلال فترة انعقاد المؤتمر عدّة مناطق في تونس و أقيمت لهم الحفلات و الموائد، منها تلك التي أشرف عليها الأمير سيدي الرؤوف نجل محمد المنصف باي.[14]

و إن كنا لا نملك الآن محاضر جلسات المؤتمر، إلا أن المصادر أشارت إلى أن المؤتمرين عالجوا عدّة نقاط بخصوص وحدة المغرب العربي إلى جانب قرارات مؤتمرهم، و تركزت فكرة الوحدة عندهم على" الجغرافية و التاريخ و الثقافة

الواحدة و المصير المشترك "[15]. و من ثمّة، فإن المؤتمر لم يكن مؤتمرا طلابيا فحسب ، بل كان مؤتمرا ذا أبعاد سياسية، لقد اختتم في جو جماهيري " منقطع النظير " بملعب جو أندري (Géo. André) في تونس العاصمة، بحضور 10000 مواطن تحت إشراف باي تونس نفسه سيدي محمد الأمين باشا،[16] و خلال هذا الحفل تحمس الشباب و " نادوا بوجوب السعي للاستقلال التام الناجز الذي لا تشوبه شائبة " للمغرب الغربي.[17]

ويبدو أن هناك عدّة معطيات على الساحة العالمية و العربية ، قد شجعت الطلبة إلى المطالبة باستقلال المغرب العربي و وحدته، منها تأسيس جمعية الأمم المتحدة ، و الصراع بين الشرق و الغرب هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تأسيس الجامعة العربية ، و انعقاد مؤتمر المغرب العربي بالقاهرة و تأسيس مكتب المغرب العربي و لجنة تحرير المغرب العربي برئاسة الأمير عبد الكريم الخطابي؛ و هذه الأمور مجتمعة أو متفرقة شجعت الطلبة إلى الاهتمام أكثر بالأمور السياسية و باستقلال بلادهم المغرب العربي.

و ذكر بيرفيي الذي تجاوز الحديث عن قرارات المؤتمر الحادي عشر للطلبة بتونس ، ربما كان متعمدا ، لأنه كتب تاريخ الحركة الطلابية الجزائرية بصفة انتقائية قطرية..! عن مؤتمر تونس ، أنه انتخب بناء على توصيات مؤتمر 1947 أمانة دائمة مكلفة بتحضير مؤتمر استشاري " للاتحاد المغاربي للطلبة المسلمين (U.M.E.M.) "[18]، على أن يكون هذا الاتحاد مقسما إلى ثلاث فيدراليات وطنية ، غير أن الأمانة لم تتمكن من الاجتماع في تونس خلال سنة 1952، فعقدت ندوة في الجزائر العاصمة أشرف عليها حزب الشعب الجزائري/ حركة انتصار الحريات الديمقراطية في 23 جويلية ، حرر خلالها

الحاضرون" دستور الاتحاد "[19]، و بموجبه انصهرت جميع الجمعيات الطلابية المغاربية، بما في ذلك جمعية مدينة تولوز و جمعية الطلبة الجزائريين بالزيتونة و القرويين و تلاميذ الثانويات و المدارس الجزائرية في الاتحاد[20] و أصبح رئيسا له السيد محمد أمير [21] من الجزائر.

كان الهدف من المؤتمر الاستشاري الذي عوض بالندوة هو " إنشاء اتحاديات وطنية في الجزائر و المغرب الأقصى و تونس ، على أمل تكوين اتحاد يضم الاتحاديات الثلاث على مستوى المغرب العربي، لكن الطلاب التونسيين عندما رأوا أن بلادهم قد دخلت منذ بداية جانفي 1952 في مرحلة نضالها من أجل الاستقلال تكتلوا فيما بينهم و أسسوا في جويلية 1953 " الاتحاد العام للطلبة التونسيين "[22]، و عقدوا مؤتمرا خاصا بهم بمركز جمعية الطلبة المسلمين الشمال أفارقة بباريس[23]، و هو الأمر الذي دفع ربما الطالب عبد السلام بلعيد إلى الدعوة في شهر ديسمبر إلى تأسيس اتحاد طلابي خاص بالطلبة المسلمين الجزائريين أيضا،[24] و كان قد سبقه إلى هذه الدعوة السيد عبد الحميد مهري خلال ندوة 1952، بحجة أن الطلبة " الدستوريين (تونس) والاستقلاليين (مراكش) " لا يرغبون في النضال الموحد، غير أن دعوة مهري رفضت، [25] و استطاع عبد السلام بلعيد أن يكسب أنصارا من الطلاب لدعوته، منهم أحمد طالب الابراهيمي (من اتجاه جمعية العلماء) و العياشي ياكر (من اتجاه حزب البيان)، و هؤلاء و غيرهم هم الذين أسسوا " الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين " الذي ظهر خلال

الثورة الجزائرية المباركة سنـــــــــة 1956،[26] و كان قد ظهر قبله سنة 1955 " الاتحاد الوطني للطلبة المغاربة (المراكشيين).[27]

الهوامش

1) انظر دراستي ، الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي1910/1328 ـــ 1954/1373، رسـالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، السنة الجامعيــة 1993/1414 1994/1415 ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، صفحات 191ـــ210 و 305 -309

2) نفسه.

3) انظر وثيقة الشرطة في ، وزارة الإعلام تونس ، ت ج د ت ، وثائق 10 ، الاستعداد للمحنة الثالثـة الدستور الجديد يحطم جدار الصمت 1944 - 1949 ، تونس 1984 ، ص ص. 102 106.

4)- Guy , Perville, Les étudiants algériens de l'université française , 1880-1962. Ed. du CNRS , Paris , 1984 . P. 106

5)- Ibid . PP. 106 – 107

6) دراستي ، مرجع سابق، ص ص . 355 ـــ356

7) نفسه ، ص . 357

8)- Mohammed, Harbi, Aux origines du F.L.N. le populisme révolutionnaire en Algérie , C. Bourgeois Editeur , Paris , 1975 , P. 175

9) انظر ، " جمعية طلبة شمال إفريقيا ببوردو " ، جريدة الحرية ، 26 مارس 1950 ، في : ملف Dos. A.4.44, Centre de documentation national (C.D.N.) , Tunis

10) انظر ، جريدة الأسبوع ، عدد 18 أوت 1950 ، في نفس الملف A.4.44. C.D.N. Tunis

11) انظر ، الملحق : وثيقة القرارات بجريدة ميسيون (مهمة) بالفرنسية " Le Xi° congrès de l' association des Etudiants Musulmans Nord-Africains, Tunis, 15 au 22 septembre 1950 - Résolutions. In Mission du 29/09/1950, Dos. A.4.44. Doc. No 29, C.D.N,Tunis.

انظر كذلك بعض قرارات المؤتمر في : " من تقرير المؤتمر الأخير لطلبة إفريقيا الشمالية " جريدة المنـار ، عدد 2 ، 13 رجب 20/1370 أبريل 1951

12)انظر، Riad, Mission du 29/09/1950 , In Dos. A.4.44, op. cit

13)- LeXI° Congrès de l AEMNA - l' enthousiasme et l' audace ont procede à ses travaux, In Mission du 29/09/1950, Dos. A.4.44. C.D.N, Tunis.

14) – علي الجندوبي ، " المؤتمر الحادي عشر للطلبة المسلمين ينهي أعماله و يطالب بالاستقلال التام " ، جريدة الأسبوع ، عدد 25 سبتمبر 1950 ، في : Dos.A.4.44. C.D.N. Tunis

15)- Mission du 29/09/1950

16)- Ibid

17) الجندوبي ، الأسبوع ، 1950/09/25 ، انظر كذلك ، المنار، عدد 2

18)- Union Maghrébine des étudiants Musulmans

19)-Perville, op.cit. P. 112
20)- Ibid. et Robert, Rezette, Les partis politiques marocains, Librairie Armond Colin , Paris, 1955, P.3
21)- Rezette, ibid.
22)- Perville, Les étudiants, P.112
23)- Mohsen, Toumi, Le Maghreb, Ed. P.U.F, Paris, 1982, P.52
24) — يقول بيرفيي (Perville, Les Etudiants, P.113)، إن اتحاد الطلبة الجزائريين بباريس المؤسس سنة 1953 من طرف أحمد إينال الشيوعي ، هو الذي دفع عبد السلام بلعيد إلى دعوته، و بخاصة و أن اتحاد أحمد إينال كان يدعو خلال شهر ديسمبر1953 إلى لمّ شمل الطلبة الجزائريين و محاولة إقحامهم في إيديولوجيته... انظر كذلك محمد حربي الذي يقول إن اتحاد أحمد إينال تأسس خلال 1954. Harbi, Aux origines, op.cit, P.90, Note 175

25)- Ibid, PP.95-96
26)- Ibid, P.90, Note 175
27)- Toumi, op.cit. PP.52-53.

"من مصادر تاريخ الجزائر المعاصر"
تاريخ ســـوف في كتابات " فيرو"
(نموذجا)

أ. إبراهيم مياسي
جامعة الجزائر.

ما من شك أن الكتابات الأجنبية عن وادي سوف خلال الحقبة الكالحة للاستعمار الفرنسي في الجزائر ، تمثل المصادر الأساسية لنسج المعرفة التاريخية للمنطقة، و ذلك من وجهة نظر الآلة الاستعمارية الفرنسية فقط ، و رغم ذلك فإن الباحث التاريخي في هذا المجال لا يمكنه أن يستغني عن هذه الدراسات والأبحاث.

و تنحصر هذه الدراسة حول كتابات " شارل فيرو " (Laurent-Charles Feraud) الذي ولد في 05 فبراير 1829م بمدينة نيس ،وتعلم في ثانوية تولون (Toulon)،وفي سن السادسسة عشر من عمره (1845) دخل إلى الجزائر ليشتغل في وظيفة بسيطة بالإدارة المدنية بشرشال، وأول ما قام به " فيرو" في أثناء هذه الفترة، هو تعلم اللغة العربية في أسرع وقت ، و عندما بلغ التاسعة عشر كان كاتبا بالعاصمة بالإدارة العامة (الحكومة العامة) إلى أن التحق بوظيفة التراجمة بالجيش الإفريقي ، و هذا عام 1848م حيث أرسل إلى بجاية لمساعدة حاكمها في إصلاح شؤونها الإدارية .

وقد بدأ شارل فيرو وظيفته الرسمية داخل جيش الاحتلال و ضمن أصحاب الحملات العسكرية من كبار الجنرالات و ضباط الحرب بداية من سنة 1849م ، فكانت له عدة مدونات هامة إلى جانب القادة العسكريين لمقاطعة قسنطينة كل من الجنرالات "بوسكيه" (Bosquet) ، "كامو"(Camou) "مواسيات"(Moissiat) ،"راندون" (Randon) ، "ماك ماهون" (Mac-Mahon)، "لوفابفر"(Lefebvre) ، " غاستو"(Gastu) ، " ديفو" (Desvaux)، "بيروقو" (Perigot) ،و"دو لاكروا" (De la Croix)؛وهناك أنجز معظم أعماله العلمية والتاريخية والأثرية .

وقد شارك ضمن سلك المترجمين العسكريين للجيش الإفريقي (حسب تسميته في البداية) في معظم الحملات العسكرية بالشرق الجزائري طيلة عشرين سنة ، حيث تميز دون غيره من المترجمين و الإداريين بشخصيته الفريدة من نوعها،حيث أثارت انتباه قادته العسكريين والإداريين ،مما جعله محل اهتمام الجميع ،ولهذا تدرج في الوظائف العسكرية و الإدارية وحتى العلمية،إلى أن وصل إلى مراتب عليا وعمل إلى جانب الحاكم العام المدني للجزائر الأميرال الكونت " دوقيدون" (De Gueydon) .

وعند قدوم الجنرال " شانزي" (Chanzy) في 19فبراير 1872م ،ثبت "فيرو" في منصبه، نظرا لتفانيه وإخلاصه لمهمته ،حيث منح صليب ضباط لفيف الشرف ،بمقتضى قرار 24 أوت 1874م (وكان من فرسان هذا الصنف منذ 1860م)،وكانت تربطه بـ"شانزي" علاقة مودة خاصة جعلته خادمه الوفي لتنفيذ أفكاره وبرنامجه الاستعماري، كما كان يطلعه على حوادث الصحراء.

كما كلف من طرف حكومة الجمهورية بعدة مهام في تونس وطرابلس سنة 1876م،ثم عين في منصب قنصل فرنسا العام بطرابلس الغرب من 5 نوفمبر 1878م إلى 04ديسمبر 1884م ، و توفي في 19ديسمبر سنة 1888م في منصبه برتبة وزير مفوض بطنجة ، التي كانت مركزا لكبار القناصلة و السفراء الفرنسيين ، حيث كان الصراع على أشده بين مصالح الفرنسيين و الأوروبيين حول المغرب الأقصى.

كما تولى عدة وظائف أخرى منها رئاسة الجمعية التاريخية الجزائرية من 1876م إلى 1878م ، والتي كانت لها مهام علمية وتاريخية، تخدم بالدرجة الأولى الغزو الحضاري الشامل التي تقوم به فرنسا الاستعمارية، وتنشر أعمالها

العلمية القيمة رغم ما فيها من دس في مجلتها الشهيرة " المجلة الإفريقيـــة " (La Revue Africaine) [1].

من مؤلفاته العلمية و التاريخية :

- ترجمة كتاب العدواني تحت عنوان :

Le Sahara de Constantine et de Tunis , Alger , Bastide 1868, 208 p
Le Sahara de Constantine , Alger , Jourdan, 1867,527p .

Les Interprètes de l'armée d'Afrique, Alger, Jourdan, 1876,479p.

Blida , Récits selon la légende ,la tradition et l'histoire, tome II,Alger,Jourdan,1887.

- الحوليات الليبية .
- تاريخ بجاية – جيجل – عنابة – القالة – عين البيضـــاء – ســـكيكدة – تبسة .
- مونوغرافيا قصر الباي بقسنطينة.
- و غيرها من المؤلفات الهامة التي يجب الاطلاع عليها .

أولا: كتاب العدواني.

ومن أهم أعمال "فيرو" ترجمة تاريخ العدواني [2] ،ونشـــره في مجلـــة (Recueil) التي كانت تصدر بقسنطينة 1867م،وهي تعتبر من أوفى وأكمـــل النسخ بعد نسخة خراز.

ويذكر "فيرو" أن النسخة التي ترجمها من مخطوط تاريخ العدواني ،هـــي نسخة السيد علي باي بن فرحات ،حاكم وادي سوف ووادي ريغ ،ولاحظ "فيرو" أن النسخة رغم طولها بالنسبة للنسخ الأخرى ،ما هي إلا "مختصر" من مجلد ضخم،وكان "فيرو" قد كتب المقدمة في 12نوفمبر 1867م.وجاء في آخر

الترجمة أن الناسخ هو الشيخ إبراهيم بن محمد التاغزوتي،ولكن دون ذكر تاريخ النسخ . ومهما كان الأمر فإن هذه النسخة تعتبر من أقدم النسخ عهدا والنص المترجم بلغ عند "فيرو" حوالي مائة وخمسين صفحة(من صفحة 25 إلى صفحة 175 ،والكتاب يحتوي على 208 صفحة)،و لم يصف "فيرو" النسخة التي ترجم عليها ،مقاسها وعدد صفحاتها ولون حبرها وخطها.

ولكن "فيرو" اعترف بأنه لم يكن الأول الذي اطلع على تاريخ العدواني وعرف أهميته . فقد ذكر أن "أدريان بيربروجر"(Adrien-Berbrugger) (1801-1869) محافظ المكتبة والمتحف بالجزائر،ورئيس الجمعية التاريخية الجزائرية،و أحد الجواسيس الفرنسيين الذين نزلوا سوف (قبل احتلال فرنسا لها) عن طريق نفطة ، وكان على ظهر حصان ،وقد كتب "بيربروجر" أنه حصل على نسخة من تاريخ العدواني بتاريخ 28 نوفمبر 1850 م ،وعلق على ذلك بأنه مخطوط يتحدث عن تاريخ المنطقة ،وهو مؤلف من الذاكرة من وحي قراءة لتاريخ العدواني، (أي أن التاريخ الحقيقي للعدواني مفقود ،والموجود منه مجرد ذكريات مختصرة).

وتحتوي ترجمة "فيرو" على إضافات منها التعاليق التي أوردها في الهوامش ،وخاصة منها المتعلقة بالتقاليد والروايات الشعبية ،حيث يصطاد في الماء العكر ليمرر رسالته الاستعمارية، ذلك بإثارة الفتن بين الناس والنبش في الخلافات القديمة.

كما خصص بعض الصفحات في آخر عمله، تحدث فيها عن تاريخ وجغرافية الزيبان وواد ريغ ،وسوف ،وورقلة واعتمد "فيرو" في هذه الدراسة على المصادر العربية والأجنبية، كابن خلدون،والعياشي ، و"شارل مارتن"

(Martin) ،و"بيربروجر" ،وتقارير القواد الفرنسيين في إقليم قسنطينة،بالإضافة إلى اعتماده على الروايات الشعبية ـــ الشفوية منها والمكتوبة.

ثانيا: صحراء قسنطينة.

استفاد الكثير من الباحثين في تاريخ (سوف) مـــن كتـــاب "صـــحراء قسنطينة" والذي نشر بالمجلة الإفريقية مسلسلا في عدة أعداد ،ونورد منه بعض المعلومات في هذه الدراسة من تاريخ (سوف).

بدأت فرنسا تفكر في احتلال إقليم (ســـــوف) منذ الأيـــام الأولى مـــن سقوط مدينة قسنطينة في شهر أكتوبر 1837م، حيث برهنت الأحداث على أن (ســـوف) ـــ أو ما يعرف في ذلك الوقت بصحراء قسنطينة ـــ هي القاعدة الخلفية للمجاهدين والزعماء.

وبعد احتلال القوات الفرنسية لمدينة بسكرة سنة 1844م ،التجأ خليفـــة الأمير عبد القادر وقائد الجهاد بالمنطقة ، محمد الصغير بن أحمـــد بلحـــاج إلى وادي ســـــوف ليعتصم بها.

لهذا عملت السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر جـــديا على مـــد احتلالها إلى ســـــوف ،فـــأرادت جـــس نبض سكان المنطقة قبل الإقـــدام على تنفيذ مشروعها فبعثت بإحدى شيوخ أولاد عمر ليخـــبر أهل ســـــوف البلاغات و الإعلانات التي أصدرها الوالي العام لسنة 1845م، وقد تقبل سكان المنطقة هذه الإعلانات بقبول حسن لأنها تراعي مصالحهم ، ومـــا دامت أيضا لا تضـــايق قوافلهم نحو الشمال، لهذا أسرعت القـــوات الفرنســـية بتجهيـــز الطوابير الـــعـــســـكرية للســـيـــر نحو إقليم وادي سوف ويقول الضـــابط "لورونت شارل فيرو" في كتابه: "صحراء قسنطينة" و المنشور في أعداد متتالية

من المجلة الإفريقية، مايلي:" ..خلال السنوات الأولى لاحتلالنا للصحـــــراء ، ومن أجل تثبيت مؤسســـاتنا اقتضت الضـــرورة إخضـــــاع أولاد نائـــل ثم الأوراس و النمامشة، حتى نتفرغ ونــــهـــتم بكل جـــديـــة لعملية احـــتلال ســــوف المضطرب جـــدا بتأثير من ابن أحمد بلحاج الذي طــــرد مـــن الأوراس مــــن طــــرف الجنــــرال " بـــيــــدو" (Bedeau) فالتجـــأ إلى الـــــوادي ...".[3]

و من هنا بـــدأ الاهتمام الفرنسي يـــزداد بمنطقة وادي ســــــوف ، ففي سنة 1848م شـــرعت الإرســـاليات الاستكشـــافية في التوافـــد علـــى ســـــوف، حيث وصــــل الضـــابط "بـــراكس" (PRAX) للإقليم قـــادما إليه من الجنوب التونسي ، ومن المعلوم أن الضابط "براكس" هو من قدماء ضباط البحرية ، غير أنه هذه المرة أراد أن يتعرف على بحار الرمال بالصحراء ، فقـــام بهذه الجولة عبر الجنوب الشـــرقي الجزائري ، فزار وادي سوف ووادي ريـــغ وبسكرة ، ثم أصدر دراسة هامة استفادت منها المصالح الاستعمارية[4] وهـــي تحت عنوان :" تقرت وسوف" ثم أعقبها بدراسة أخـــرى حـــول التجـــارة الصحراوية والتجارة العـــابرة للصحراء عنونها بـــ:" تجارة الجزائر مـــع مكـــة والسودان" وأصدرها بباريس سنة 1849م. وفي سنة 1850م زار سوف الباحث المعروف " أندريان بربروجار " حينما عقد العزم على استكشاف الواحـــات الجزائرية؛ فانتقل إلى تـــونس عن طريق مدينة ســــوق أهـــــراس، فـــزار واحات الجريد (الجنوب الغـــربي التونسي) ومـــنه انتـــقل إلى ســــوف وتجول في أرجائه، ثم زار وادي ريـــــغ ومدينة ورقلة و وادي ميزاب و المنيعة و تـــوات [5]؛ وقد تحصل من كل هذه المناطق التي اجتازها عن معلومـــات

غزيرة جغرافية و أثـــرية جمعها و أصدرها في دراسة قيــــمـــة تحت عـــنـــوان " النتائج المتحصل عليها من الاستكشافات المنجزة للتوغـــل في الســـــودان" نشرت بالنشرة الخاصة للجمعية الجغرافية بباريس سنة 1862م،و قد أعطت هذه الدراسة معلومات هامة عن ســــوف للمصـــالح الاســـتعمارية الفرنســـية ســـاعدتها فيما بعد ، على التـــوغل في المنطقة.

كذلك قـــام الملازم "روز" (Rose) ،نائب رئيس المكتب العربي، بــــرحلة إلى ســـــوف سنة 1852م، برفقة فـــرقـــة من "القـــوم" ،والتي وصلت إلى بلدة قـــمـــــار ، قادمة من الفـــيـــض بالزاب الشرقي، فــــراقبت أمـــور وشؤون المنطقة عن كثب و قـــدمت معلومات دقيقـــة ســـاعدت القـــوات الفرنسية في زحفها على سوف .

وبعد أن مـــهدت هذه البعثات الطريق للقـــوات الفرنســـية لاحـــتلال ســــوف، فإن الوضعية السياسية و الاجتماعية بالمنطقة كانـــت متـــدهورة زادت في تسهيل مهمة المصالح الاستعمارية في بسط نفوذها، ذلـــك أن وادي ســـوف قد تـــأثـــر بالأحـــداث المحلية القريبة منه، كاحتلال بسكرة وثورة الزعاطشة، و الصراع الذي صاحب هذه الوقائع والمنافسات الشـــديدة التي دارت بين عائلتي بوعكاز (أوالدواودة) و ابن قـــانة من جهة وخصومات ونزاعات سلاطين بني جـــلاب بتقرت فيما بينهم حول الحكم من جهـــة أخــــرى.

وفي جانفي 1852م توفي سلطان تقرت الشيخ عبـــد الرحمـــان(الملقـــب بـــ"بوليفة") تاركا ابنا و وريثا وهو عبد القادر الذي لم يتجاوز عمره ســـت سنوات، لهذا تولى الحكم تحت وصـــاية جـــدته لاله عيشوش والتي كانت لها

خبرة في هذا الميدان، وهي من عائلة ابن قانة.غير أنه كان هناك منافس للخلافة وهو سلمان بن علي الكبير، الذي هو ابن عـــم الحاكم المتوفى [6]،وكان عمره ثماني عشرة سنة؛ وقد تلقى الدعم من تماسين المركز الأساسي *للطريقة التيجانية* بالمنطقة؛ كما آزره و وقف معه الشريف محمد بن عبـــد اللـــه،سلطان ورقلة، و لهذا عارض الوالي العام للجزائر هذا الإجراء وكان يفضل تعيين واحد مـــن أولاد ابن قانة حاكما على تقرت ،لكن السكان قاوموا هذه الفكرة حينـــذاك، لهذا لم يبق أمام فرنسا إلا التـــدخل العسكري الـــمباشر لتحقيق هـــدفها.وفي نفس الوقت حصل سلمان على دعم أولاد ســـعود من (ســـوف) وقـــدموا له ثلاثمائة جندي من المشاة.وبمساعدة هـــؤلاء استطاع أن يســـــتولي علـــى تقـــرت بطريقة مفاجئة في أول أفريل 1852 م وبمباركة زاوية تماسين .

أقنع القادة الفرنسيون في شرق الجزائر قائدهم الأعلى الذي هو الـــوالى العام للجزائر المتردد بالاعتراف بسلمان حاكما على تقرت ، غير أن اشـــترط على سلمان أن يأتي شخصيا إلى بسكرة ، أو باتنة لإبداء خضـــوعه بنفســـه للسيادة الفرنسية . ويبدو أن سلمان قد رأى في ذلك خدعة لإبعاده عن تقرت حتى يقع فيها انقلاب موال لابن قانة في غيابه، ولذلك رفض أن يلبي الشرط؛ لهذا قام الفرنسيون بقطع طريق قوافل تجار القمح من بسكرة إلى تقرت، كما سمحوا للفرسان الاحتياطيين من بسكرة أن يـــغـــيروا على قافلتين تجـــاريتين من سوف[7].

أرسل الفرنسيون أحمد باي بن شنوف إلى (ســـوف) كقائد عليها حتى يتمكن من التأثير على الـــســـوافة وإبعادهم عن مساندة سلمان، غير أنه فشل في مهمته؛لكن سلمان بدأ في مداهمة بعض الـــســـوافة .

ففي أفريل 1853م خســـر كثيرا من الدعم الباقي له في ســـوف عنـــدما أغار على كوينين على رأس ثمانين رجلا لقتل بـــعض السياسيـــين الخصوم له و الذين لجأوا الى هناك،وهم من قدماء خدم عبد الرحمان ؛ وقد استطاع عدد من هــؤلاء الخـــصـــوم أن يـــفـــروا إلى قمار التي رفضت تسليمهم، ولأن قوات سلمان كانت من الضعف بمكان حيث لا تقدر على مهاجمة قمار الـــتي صـــدت الأبـــواب في وجهه،لهذا اكتفى بالحوم حول الحمى ثم الرجـــوع الى تقرت(8).

وفي ماي 1853م أمـــر الوالي العام للجزائر بحصـــار اقتصادي جديد على وادي ريغ وســـوف(9)،ثم أظهرت بعض مقاطعات ســـوف كالـــزقم والبهيمة و قمـــار وتاغزوت و كـــويـــنـــيـــن علاقاتهم الحسنة ونـــواياهم الطيبة مع فرنسا وأرسلوا وفدا إلى بسكرة ليعرض دفع الضرائب المعهودة عليهم لهذا سمح لهم بالدخول إلى أسواق بسكرة . ولما عرض الـــوادي وبعض القرى الأخرى نفس العرض رفض لهم، (10) وتعطلت قوافلهم التجارية.

وفي نفس الوقت أعلن سلمان نفسه خليفة لشريف ورقلـــة ليعاونـــه في تجنيد أهل ســـوف،كما طلب من باي تونس دعمه ضد الفرنســـيين(11) ،لأن الحاكم العام بـــدأ يخطـــط لعمـــل عســـكري مباشـــر لاحـــتلال تقـــرت وســـوف،وهذا بعد ما اقترح أن يجعل أحد أولاد شـــنـــوف حاكما جديدا على تقرت ، غير أنه عوض باقتراح تقدم به القائد العسكري للإقليم العقيـــد "ديفو"(Desvaux) بتعيين بوعكاز تبعا لقاعدة سياسة "فرق تســـد" لتعميـــق الخلاف ،وفي أكتوبر 1854م أعلنت بلدتا كـــوينين وتـــاغزوت اذعانهمـــا في بسكرة، وبذلك فإن المصالح المتضادة و المتصـــارع عليهـــا في الصـــحراء

أثـــرت على أهــــل ســــــــوف فانقســـم السـكان إلى صــفــيــــن حـــســب مواقـــفـــهـــما:

**الصــف الأول مــن الطــرود ، ويتكــون من أهــل الـــــوادي و قمار والبهيمة والدبيلة،وانحازوا إلى عائلة بوعكاز ،بعد إعـــلانهم عن تحالفهم مع تـــمـــاسين ومناصـــرته ضـــد تقرت ،وكذلك تحـــالفهم مـــع قبائـــل ســـعيـــد ولد عامر، وأولاد الســـــايح والشـــعـــــانبة والمخـــادمـــــة بـــورقلة .

**الصـــف الثّاني :ومتكون من أولاد ســـعـــود ،وهم ســـكان الـــزقم وكويـــنـــيــــن وتاغزوت ، الذين مـــالوا إلى عائلة ابن قــــانة ودعمــــوا تقرت ووادي ريغ و انـــضـــووا تحت سلطة بني جـــلاب.

وهكذا نـــلاحظ أن الصـــراع الذي حدث في الزيبان بـــين الأخـــــوة الأعـــداء قد امتد لهيبه إلى وادي ســـوف ووادي ريغ، وللأســـف لم يخـــدم إلا المـــصـــالح الاستعمارية، حيث ســـاعدها في مد نفـــوذها بعد تكـــريس الشقاق ليسهل عليها قهر مقاومة المجاهدين البواسل في هذه المضارب البعيـــدة والصـــعبة و الشـــاسعة.

وفي خريف عام 1854م ، راجت أخبـــار بـــــسكرة في الأوســـاط الاستعمارية مفادها أن القـــوات الفرنسية تتأهب للقيام بعمليـــات عســـكرية هائلة ، للهجوم على إقلـــيم ســـــوف لتغزوه، لأنـــه، حسب زعمهـــم، مـــوطن للثـــوار والمشاغبين يجب القضاء عليه ، و هو الآن يـــأوي ويســـاعد ثائرة سلطان ورقلة الشـــريف محمد بن عبد اللـــه ففي سنة 1854م.

التجأ الشـــريف محمد بن عبد اللـــه إلى ســـــوف[12] ،بعـــدما فقـــد مركز قيادته بورقلة و أغلب أنصاره بها ،حيث تشير التقارير العسكرية أن أعيان ورقلة - وهم عبد القادر بن كرميا (كبير بني سيسين)،والحاج بن الحاج معيزة(كبير بني أوجين)،والحاج محمد (كبير بني إبراهيم)،والحاج بوقلة (كـــبير العرش لبني إبراهيم) ــــ قد خضعوا للسلطة الفرنسية و جاءوا إلى البيض يـــوم 11 سبتمبر 1854م لدفع ماعليهم من ضرائب إلى سي حمزة ــــ زعـــيم أولاد سيدي الشيخ،والخليفة بالصحراء ــــ ؛ لذلك تركهم الشريف محمد بن عبد اللـــه وخيم بقوته تحت أسوار تقرت، وهذا من أجل أن يجمع حولـــه أهـــل ســـوف ليعاود بهم الثورة ومقاومة الاحتلال الفرنسي،و بعـــد مـــلاحقـــة الـــقـــوات الفـــرنسية له ومحـــاصرته مـــا بين مدينة الـــــوادي و بلـــدة الطيبـــات القبلي ، تمكـــن القائد سي بن هـــنـــي من مطاردته وطرده مـــن المنطقة الممتد ما بين وادي ريغ ووادي سوف فاضطر إلى الـــفـــــرار نحـــو الجـــريد [13] ليجمع شـــتـــاته لمواصلة الجهاد ضد المحتلين.

الإحالات

(1)- L. Paysant , " Un Président de la Société Historique Algérienne", in Revue Africaine, n° 280, 1er Trimestre 1911, pp.5 – 15.

(2) – محمد بن محمد بن عمر العدواني،تاريخ العدواني ، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله ، بيروت، دار الغرب الأسلامي،ص: 38 – 40.

-(3)Charles Feraud, » Les Ben - Djellab sultans de Tougourt, Notes historiques sur la province de Constantine », in Revue Africaine, n°26 (1882) ,pp.109 -110.

- (4)PRAX,<< Touggourt,Le Souf >>, in Revue de l'Orient et de l'Algérie,1848, TomeIV,p.129.

-(5) A . Berbrugger, « Projet d' Exploration »- in Extrait à la Bibliothèque Nationale , Alger, S.D.,8p.

– (6) Magali - Boisnard, Sultans de Touggourt, Paris,Libraire Orientaliste Paul Geuthner,1933,p.128.

— (7)Nico Kielstra, << The dicline of tribal organization in the Souf (S.E.Algéria) >>, in Revue de l'Occident musulman et de la méditerranée,n° 45 - 3eme trimestre, 1987,pp.14-15.

– (8)Charles Feraud, << Les Ben - Djellab... >> op. cit., p.113.

- (9)Nico Kielstra, << The decline of tribal... >> ,op. cit., pp.15-16

— (10)Lettre de la division de Constantine(Cabinet n° 275) à monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie,Constantine ,le 26 Juillet 1854. A.O.M.,1H.11.

– (11)Nico Kielstra, op. cit.

— (12)Armée d'Afrique - Province d'Oran - A M. le Gouverneur Général, Oran,le 23 septembre 1854, doc. n° 611, A.O.M. ,1H.11.

– (13)Feraud , » Les Ben - Djellab... » op. cit. , p.115.

امتدادات الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939) في الجزائر (منطقة سيدي بلعباس نموذجا)

د.حنيفي هلايلي
جامعة سيدي بلعباس

لم يعد البحث التاريخي سجين موضوع واحد أو وثيقة وحيدة ذلك أن ميدان المؤرخ مجال رحب ويتسع باستمرار[1] جادا في تنويع المصادر والوثائق ومناهج الدراسة دون التقيد بمدرسة أو اتجاه معين.

يعتبر البحث في تاريخ الجالية الإسبانية في منطقة سيدي بلعباس خلال المرحلة الاستعمارية غير محظوظ بالمقارنة مع تاريخ المعمرين ذوي الأصل الفرنسي، ويعود ذلك إلى قلة الوثائق.

وخلال بحثنا عن تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال المرحلة الاستعمارية عثرنا على وثيقة أرشيفية محفوظة بأرشيف ما وراء البحار باكس أون بروفاس-فرنسا. وهي تكشف لنا علاقات الجالية الإسبانية بمنطقة سيدي بلعباس بالجمهورية الاسبانية والممثلة في الجبهة الشعبية. ويندرج عملنا هذا في إطار التاريخ المحلي للجزائر الحديثة، بالتركيز على مسألة الاستيطان الأوربي في القرن العشرين وذلك بالنظر إليها من زوايا عديدة ومتكاملة تثري في نفس الوقت التاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي والمجال الجغرافي والتاريخ الثقافي.

أولا: الحرب الأهلية الإسبانية: 1936-1939.

كانت إسبانيا تعاني من التدهور العام الذي أصابها بعد فقدانها مستعمراتها في أمريكا الجنوبية في الربع الأول والثاني من القرن التاسع عشر، وبعد حربها الخاسرة ضد الولايات المتحدة الأمريكية في 1898.

وكانت الملكية الحاكمة تستند على كنيسة كاثوليكية متزمتة، وعلى الحكم الدكتاتوري الذي عطل العمل بالدستور،فانتشرت الأفكار الليبرالية في الجامعات والأفكار الاشتراكية بين العمال، وزاد من هذا التطور الليبرالي عمق الفساد في البلاط الملكي وبين الأرستقراطية المتنفذة.

ونظرا لعدم وجود زعامة قادرة على تكتيل قوى المعارضة للأوتوقراطية الحاكمة. ونظرا لنمو نفوذ العسكريين المؤيدين للملكية، كانت الثورات التي قامت قبل الحرب العالمية الأولى غير فعالة.

في سنة 1931 أحرزت الأحزاب الجمهورية نصرا انتخابيا ضخما. حيث أعلنت الجمهورية وتولى زمورا (Zamora) رئاستها وتشكلت حكومة اشتراكية يسارية مناهضة للكنيسة والملكية وللدكتاتورية العسكرية. ووقعت حكومة زمورا برنامجها الإصلاحي على الأسس التالية:

*حكم جمهوري برلماني ديموقراطي انتخابي.

*الحرية الدينية.

*تنفيذ الإصلاح الزراعي وتأمين أملاك الكنيسة.

تعرض الحكم في إسبانيا لأزمة الثقة بعد أن تولى الوزارة أزانا (Azana) والذي ليس له شعبية أو مقدرة على مواجهة الظروف، وتعرضت البلاد لثورة شيوعية عام 1934. ولما شعرت القوى اليسارية أن الأمور تكاد تفلت منها، اتبعت الأسلوب التقليدي وهو الحصول على أغلبية برلمانية في انتخابات 1936، حيث حصلت الجبهة الشعبية على 267 مقعدا، بينما حصلت أحزاب اليمين على 132 مقعدا، الأمر الذي جعل الصدام مواجهة بين الخصمين، بعد أن جنح اليمينيون استخدام الإرهاب المسلح وسيلة للقضاء على

خصومهم. وعملت الجبهة الشعبية على إبعاد زمورا عن رئاسة الجمهورية وأسندوها إلى أزانا الذي لم يستطع التغلب على الأوضاع المتردية في البلاد.

كانت بداية الثورة على يد الضباط حيث تمكن الجنرال فرانسيسكو فرانكو (Francisco Franco) الذي كانت معظم قوته من العناصر المغربية. وكان التدخل الأوربي في الحرب من جانب كل من روسيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا هو المسؤول عن إطالة الحرب الأهلية في إسبانيا من 1936إلى 1939.

لقد قدمت إيطاليا الألوف من جندها لمساعدة فرانكو، أما الحكومة الاشتراكية بقيادة كاباليرو (Capallero)، التي تعمل على صد فرانكو عن مدريد وتضم اشتراكيين وشيوعيين حيث عمل الاتحاد السوفياتي على تأييد هذه الحكومة عسكريا، وأصبح الصراع في إسبانيا بين الاشتراكية البرجوازية القومية من جهة والشيوعية العالمية من جهة أخرى. وكان فرانكو يرمي إلى تأسيس حكم ديكتاتوري وخاصة بعد انتصاره على خصومه ولكنه اتبع سياسة الحياد خلال الحرب العالمية الثانية.

ثانيا: التواجد الأسباني في منطقة سيدي بلعباس

تشير بعض الدراسات على أن منطقة سيدي بلعباس استحوذت على حصة الأسد في سياسة الاستيطان الأوربي خلال المرحلة الاستعمارية. وهذا منذ بداية تأسيس المراكز الاستيطانية على أن العنصر الأسباني استوطن منطقة سيدي بلعباس بكثرة وذلك لعدة اعتبارات نذكر منها:

*التأقلم الجغرافي والمناخي الملائم للبيئة الاسبانية.

*المعرفة الجيدة لأراضي سهل مكرة من طرف المزارع الإسباني.

*حياة البؤس والفقر والحرمان التي عاشها الأسبان في بلادهم.

والجدول يبين لنا عدد السكان الأوروبيين بمنطقة سيدي بلعباس في شهر ديسمبر 1859.

الجنس	العدد/نسمة
فرنسيون	2157
إسبان	2046
يهود	427
المجموع	4618

ومن خلال هذا الجدول نستشف أن أفراد الجالية الإسبانية أصبحت تحتل المكانة الثانية في الاستيطان بعد الفرنسيين، وهم ينتمون إلى مناطق إسبانية مختلفة نذكر منها: آلميريا (Almeria). بلنسية (Valence). مايورقة (Majorque)، [3] وبسبب الحضور المكثف لهؤلاء الإسبان في منطقة سيدي بلعباس، جعل تأثير لغتهم واضحا على ساكنة سيدي بلعباس وهذا مايظهر جليا عل ألسنة المسنين.

والجدول التالي يوضح لنا ذلك[4]:

اللفظ باللهجة الجزائرية	مدلوله	اللفظ باللسان الإسباني
بابور	باخرة	Babor
براكة	كوخ	Barraca
بلاصة	ساحة	Plaza
بلوزة	لباس	Blusa

بندير	دف	Pandera
برافو	ممتاز	Bravo
بلاكة	لافتة	Placa
بلكون	شرفة	Balcon
دورو	نقد اسباني	Duro
كانتينا	حانة	Cantina
كبوط	معطف	Capote
كارو	عربة	Carro
الكوشة	الفرن	Cocha
الكيف	النشوة	Kif
لامبة	مصباح	Lambara
لاطة	قطعة من الحديد الأبيض	Lata
الماريو	خزانة الملابس	Armario
الماركة	النوع-الصنف	Marca
صالة	قاعة فسيحة	Sala
صندالة	نعل	Sandalia
صباط	حذاء	Zapato
فالطة	خطأ	Falta
فبريكة	معمل	Fabrica
فنطزية	المختال	Fantazia
قرداش	آلة تستعمل في كربلة الصوف	Cardas

سمانة	أسبوع	Semana
نانة	كلمة تعظيم للرأة وفي الأسبانية تستعمل للجدة والحاضنة.	Nana

لقد سمحت المشاريع الفرنسية في الجزائر من استقرار عدد هام من الأوروبيين من مختلف الجنسيات. ونقرأ في إحصائيات 1959 أن عدد سكان مدينة سيدي بلعباس وصل إلى 5259 أوروبي منهم 2157فرنسيا و2046 إسبانيا[5].

ونقرأ في الجدول التالي تطور الاستيطان الأوروبي بمنطقة سيدي بلعباس خلال سنوات مختلفة:[6]

السنوات	عدد السكان		
1849	516 نسمة		
1851	1234 نسمة		
1877	14456 نسمة	اسبان	9686 نسمة
		فرنسيون	4343 نسمة
		يهود	427 نسمة

والجدير بالملاحظة أن أعداد المستوطنين الفرنسيين ارتفع بسبب هجرة سكان الألزاس واللورين، واستقروا في المناطق التالية: سيدي لحسن، سفيزف، بوشبكة، سيدي علي بن يوب، زروالة، وهذا مابين سنوات 1871-1873.

أما المرحلة الثانية، فنسجل تضاعف أعداد السكان الأسبان في منطقة سيدي بلعباس، وهذا مايجعلنا نجزم بتواجد مكثف فرنسي-إسباني بسهل مكرة.

ومن الأمور المتعلقة بثراء الإسبان في منطقة سيدي بلعباس ويجب الإشارة إليها، أن كثيرا من أفراد الجالية الأسبانية. إلى جانب استثمارهم لبعض النشاطات الحرفية، قاموا بتشييد المئات من الضيعات والمزارع الكبرى التي تنتج الحبوب والفواكه والخمور، وجاءت هذه الأعمال نتيجة طبيعة العنصر الأسباني الذي توارث هذا النشاط الفلاحي في إسبانيا منذ قرون عديدة.

لقد شيد الأسبان بمنطقة سيدي بلعباس مزارع كبرى على غرار ما فعله الرومان في الجزائر خلال الفترة القديمة تحت اسم لاتيفونديا (Latifundia)، وتشير بعض المصادر المحلية إلى أن هناك معمرين من ذوي أصول إسبانية اختصوا في إنتاج الخمور وكانوا على رأس قائمة المنتجين في الجزائر، ومن بين هؤلاء نذكر عائلة فرنداز(Fernandez) و(سرقسطة Sarragosa) [7].

والجدول التالي يلخص لنا أملاك بعض المعمرين من ذوي الأصول الإسبانية في منطقة سيدي بلعباس خلال فترة الخمسينيات [8]:

أسماء الكولون	مساحة الأراضي/ هكتار	المناطق الزراعية
رويز كارلوس (الأب) (Ruiz carlos)	7000هكتار حبوب	قايد بلعربي تلموني
رويز هيبار(الابن) (Ruiz Hubert)	4500 هكتار حبوب وخمور	تلموني – سيدي علي بوسيدي سيدي خالد
رفائيل Raphaeil	2000هكتار خمور حبوب فواكه	طابية
باليستا آلونزو Ballesta Alonzo	عدة ضيعات حبوب خمور	سيدي علي بوسيدي

وإلى جانب هذه المواقع الاقتصادية والعقارية التي عرفتها الجالية الإسبانية، فإن معظمهم كان يسكن في أحياء معروفة في مدينة سيدي بلعباس، كحي سيدي ياسين وحي كياسون(El calle del sol) أي حي الشمس.

ثالثا: الدعاية السياسية للجبهة الشعبية لإسبان الجزائر:

نظرا للمكانة الاستراتيجية التي احتلتها الجالية الإسبانية في الجزائر خلال العهد الاستعماري، وبحكم تواجدها المكثف في الغرب الجزائري وبخاصة في منطقة سيدي بلعباس، فقد عملت حكومة الجبهة الشعبية الأسبانية إلى تكثيف حملاتها الدعائية الموجهة للإسبان المستقرين بالجزائر. وهذا من خلال توعية الجماهير الإسبانية بخطورة الوضع الأمني الذي تشهده الساحة الأسبانية من جراء الحرب الأهلية وسيطرة الجيش على الحكم. فتم تنظيم سلسلة من التظاهرات والندوات لتحسيس المستوطن الأسباني بضرورة المساهمة في إنقاذ وطنه من هذه المحنة.

والوثيقة الموجودة بأيدنا[9] هي عبارة عن نداء موجه للأسبان المقيمين في سيدي بلعباس حيث تحثهم لجنة الإنقاذ الوطني إلى ضرورة مؤازرة الحكومة الشعبية من غطرسة عناصر الجيش والقوى الأمبريالية الفاشية والنازية، وتطالبهم برفع أصواقم لتقديم يد العون والمساعدة للميليشيات الشعبية وكل القوى الديموقراطية المتواجدة في التراب الأسباني، كما تحثهم الحكومة الأسبانية إلى تسجيل أسمائهم في مكتب القنصلية الأسبانية بمدينة سيدي بلعباس، لتقديم التبرعات والأموال والملابس والأغذية والأدوية لصالح الأسبان المتضررين من جراء الحرب الأهلية.

ومما جاء في نص النداء[(10)]:

إلى الجالية الإسبانية بسيدي بلعباس

أيها المناضلون!

إن مجموعة من الأسبان الديموقراطيين يوجهون هذه الرسالة إلى سكان سيدي بلعباس(من ذوي الأموال الأسبانية)، لنخبرهم بصيحة الرجال الأحرار.

تعيش إسبانيا حاليا وضعا مزريا بسبب الحرب، والنظام الفاسد (العسكري) لم يعترف بهزيمته السياسية (الانتخابات) ويمارس ألوانا من الاضطهاد على الشعب الأسباني بمختلفة شرائحه.

إن قادة الجيش والقوى الأخرى وبالتعاون والتواطؤ مع القوى الفاشية العالمية، رفعوا السلاح ضد النظام الشرعي في البلاد والذي فاز في الانتخابات الشعبية بطريقة ديموقراطية.

لقد تمت مصادرة الأسلحة التي جمعتها الأمة للدفاع عن مصلحة الوطن، وتمرد الجيش على الحكومة ويحاول القضاء على الحرية المدنية للمواطنين. مما تسبب في تحطم آمال الشعب الأسباني وحكومته.

لقد استطاعت الميليشيات الشعبية وبمؤازرة الحكومة، إحراز النصر على الجيش المحترف، وهذا ما سيسجله التاريخ، حيث مرتزقة الحرب (المغاربة) الذين سيق بهم إلى التراب الأسباني للمشاركة في الحرب أن مهمتهم ستكون سهلة، ضد شعب يدافع من أجل الحرية.

ومع هذا فإن الدعم الفاشي والقوى الرأسمالية لعناصر الجيش ساهم في إطالة أمد الكفاح.

هل يمكننا ترك إخواننا يواجهون مصيرهم في المجهول؟ أرسلوا دعمكم لهم وتضامنوا مع الحكومة الديموقراطية، فإن الكفاح ليس لأسبانيا لوحدها، بل للعالم أجمع.

ساندوا إخوانكم في إسبانيا بالدعم المادي المتمثل في المال والملابس والغذاء والدواء!

ساندوا الميليشيات الشعبية وذلك بالتوقيع في عارضة موجودة بقنصلية الأمة الأسبانية بسيدي بلعباس.

أيها الأسبان:

من أجل الحرية والديمقراطية.

من أجل نظام العدالة الاجتماعية.

من أجل حكومة ديموقراطية عمالية.

ضد الفاشية محرك الحرب.

ضد الأنظمة الغاشمة.

ضد أعداء الجبهة الشعبية.

ساهموا معا في مساندة الوطن الجريح.

اللجنة.

يفيدنا نص الخطاب الموجه إلى الجالية الأسبانية بمنطقة سيدي بلعباس بأمور في غاية الأهمية نلخصها في النقاط التالية:

1° التأكيد على صفة انتقال والتواصل مع أفراد الجالية الأسبانية بمنطقة سيدي بلعباس من خلال الامتداد الحضاري والمصيري للوطن الأم (إسبانيا).

2° شرعية الحكومة الممثلة في الجبهة الشعبية الممثل الوحيد للشعب الأسباني. مع ضرورة التأييد والمساندة ماديا ومعنويا.

3° نعت حكومة الجيش بالفاشية والإمبريالية.

4° مطالبة أسبان الجزائر بالمساندة المادية من خلال تقديم المال والغذاء والملابس والأدوية، وهذا دليل عن ثراء الجالية الأسبانية بالجزائر.

وعليه فإن العنصر الأسباني المستقر بمنطقة سيدي بلعباس، قد ساهم بنشاط اقتصادي مميز في الحرب الأهلية الأسبانية (1936-1939)، وكان له تأثير واضح إذ لم يعارض دعمه المادي والمعنوي للشعب الأسباني وهو يعيش محنة الحرب الأهلية.

الإحالات

Emmanuel, le Roy-ladurie, le territoire de l'historien, Paris, Gallimard, 1973, PP.10-15 -1

2-عبد العزيز سليمان، نوار وعبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، بيروت: دارالنهضة العربية، 1984، ص 608-609.

Mac lumuniere, Histoire de l'Algérie illustrée de 1830 à nos jours, Paris,Ed. Coutier, 1962, P68. -3

4- الجدول من وضع الأستاذ هلايلي حنيفي.

Othon patrik Kremar, Sidi Bel abbes et les Bélabésiens, une ville française, Africa Nostra, 1984, PP.10-12. -5

Adrein Pierre, Boyer l'évolution de l'Algérie médiane, de 1832 à 1956, Paris, Ed , Maisonneuve, 1960, P.123 -6

Leon, Adoué, la ville de Sidi Bel Abbes, histoire, légendes, Anecdotes, Sidi Bel Abbes, Imp, René Roidot, 1927 ? P. 168. -7

R.Ainad Tabet, Histoire de l'Algérie, Sidi Bel Abbes, de la colonisation à la guerre de libération en Zone 5, Wilaya V, (1830-1962), Ed. ENAG, Alger, 1999,P.83. -8

9- الوثيقة التي هي بين أيدينا مكتوبة باللغة الإسبانية ومحفوظة بأرشيف ماوراء البحار بأكس أون بروفانس تحت رقم: 2074-25-7-201. A.O.M.F.80. وتم ترجمة هذه الوثيقة إلى اللغة العربية من طرف الدكتور هلايلي حنيفي.

10- نداء موجه للجالية الأسبانية بسيدي بلعباس مكتوب باللغة الأسبانية.

"تجميـــــع تاريـــخ الجزائـــر الثقـــافـــــي"

لأبو القاسم سعد الله

بقـــلـــم " ألان كريستيلو"

أستاذ بجامعة إداهو، الولايات المتحدة الأمريكية

تر:أ. محمد الصالح بكوش

جامعة الجزائر.

صدر هذا المقال في جريدة أمريكية عنوانها(ISIM NEWSLETTER) لشهر ماي سنة 2000، تحت عنوان إصدارات، وعنوان جانبي: مراجعة كتاب، بقلم ألان كريستيلو (Allan CHRISTELOW) وهو أستاذ التاريخ بجامعة إداهو بمدينة بوكاتلو، ولاية إداهو، الولايات المتحدة الأمريكية. وهو مؤلف كتاب: *"المحاكم الشرعية الإسلامية ودولة فرنسا الاستعمارية في الجزائر"* (Muslim Laws and the French Colonial State in Algeria, Pinceton, 1985)

وكتاب: *هكذا كان يحكم الأمير عباس: قضايا مختارة من المجلس القضائي لأمير كانو*

(Thus Ruled Emir Abbas :Selected Cases from the Emir of Kano's Judicial Council, Michigan State, 1994).

---

*عانى الأستاذ أبو القاسم سعد الله المدرس بجامعة الجزائر، وهو يمر بأحد المطارات سنة **1988**، أبشع كابوس يشهده عالم، إذ فَقَدَ محفظة تحوي مخطوطاً يكاد يكون تاماً وتعاليق علمية ووثائق يصعب تعويضها، ويمكن أن تؤوّل هذه الحادثة بصيغة مجازية ككارثة [1] بالنسبة لموضوع الدراسة، وهو تاريخ الجزائر الثقافي. وعلى نطاق أوسع بكثير تسبب الاستعمار الفرنسي في كارثة كانت تُعدُّ محتملة الرسوخ تعلقت بالتراث الثقافي العربي الإسلامي في الجزائر، ففي الهجمات الفرنسية الضارية الأولى على الجزائر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر أتلف العديد من الوثائق والمخطوطات، فبعضها لاقى هذا المصير دون مبرر إلا أنّ الجنود الفرنسيين وجدوها ملائمة لإشعال غلايينهم [2]. وإن مصادرة الفرنسيين لأملاك الوقف الإسلامية في المناطق الحضرية جعل المؤسسات التعليمية عالة على الاعتمادات المالية القليلة التي تمنحها السلطات الاستعمارية، وإنّ امتداد اشتعال الثورة من سنة **1954** إلى سنة **1962** قرع أيضاً ناقوس الخطر لأنّ المستوطنين المقاتلين في صفوف المنظمة العسكرية السرية [3] استعملوا مهاراتهم في إحراق المكتبة الوطنية[4] ولأنه تمّ إتلاف أو تبديد مجموعات الكتب الخاصة والدوريات ونقل الأرشيف برمته إلى فرنسا.*

ونظراً لأهمية هذا المقال نقوم بترجمته من الإنجليزية إلى العربية حتى يتسنى لقراء اللغة العربية الاطلاع عليه والاستفادة منه. وفي ما يلي الترجمة:

لا تُعدُّ مهمة تجميع مواد التراث الثقافي الجزائري مهمةً مستحيلة على الإطلاق على الرغم من كل ما حدث، بينما تُعدُّ بالنسبة للأستاذ سعد الله مهمة مفروضة عليه، فهكذا استأنف الكتابة وبعد عشر سنوات تقريباً من كارثة المحفظة نشر مصنفاً يتكون من تسعة مجلدات يحمل عنوان "تاريخ الجزائر الثقافي" بدار الغرب الإسلامي، وهي دار نشر ببيروت متخصّصة في نشر الكتب حول المغرب العربي.

هدف الكتـــاب:

يُعدُّ هذا الكتاب موسوعياً يلم بمظاهر الثقافة الجزائرية من تفسير القرآن والشريعة إلى الفنون الجميلة والموسيقى، وتظهر أجزاء عديدة العادات الإسلامية المتعلقة بحياة العلماء. ويشمل المجلدان الأولان الفترة الممتدة من سنة 1500 إلى سنة 1830، أي من الفترة التي سبقت العهد العثماني إلى بداية الاحتلال الفرنسي، وتشمل المجلدات الستة الموالية عهد الاحتلال، ويتضمن المجلد الأخير فهرساً شاملاً.

يعالج كتاب "*تاريخ الجزائر الثقافي*" مجالاً واسعاً، فهو يُلّم بأشهر العلماء المسلمين الجزائريين والزعماء الدينيين وبأصغرهم شأناً، وفي نفس الوقت يتطرق إلى المثقفين الفرنسيين والمترجمين والمستشرقين، كما يتناول المسلمين الجزائريين ذوي الثقافة الفرنسية ومزدوجي الثقافة. وإنّ أسلوبه الموســوعي -بشــمولية مطلقة العنان وتجزئة دقيقة حسب المواضيع في وقت واحد -يقدم بديلاً مـــن الدراسة الأحادية، وهي الطابع العلمي الغربي الذي طغى على كتابـــة تـــاريخ

الجزائر في الفترة التي تلت الاحتلال [5]، فيدخل هذا الكتاب في الحسبان التحري عن شخصيات وأحداث وموضوعات لم يتفطن لها علماء تُوَجِّههم الاهتمامات النظرية الضيقة الأفق [6].

ويتمثل الهدف العاجل لكتاب "*تاريخ الجزائر الثقافي*" في استحداث مرجع علمي، ولكنه من العسير فصل هذه المهمة العلمية عن قضايا أوسع. ويصدر هذا الكتاب –الذي هو نتاج الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين– في الوقت الذي أصبح جليا أنّ الجزائريين لا يستطيعون الاكتفاء بالانغلاق ببساطة في تقاليدهم العربية الإسلامية، وأنه لا مناص للجزائر من الارتباط بمجتمع عالمي أوسع. ففي هذين العقدين، وجد كثير من الجزائريين –ذوي التوجهين العلماني والإسلامي كليهما –أنه قُدِّر لهم أن يعيشوا وأهاليهم في أوروبا وأمريكا الشمالية لأنه طرأ أمر على هوية هذه المجتمعات وهو اقتناعها بإمكانية إجراء حوار بين الثقافتين الإسلامية والغربية وبأنّ الجزائريين يضطلعون بدور هام ريادي في هذا الحوار بفضل مواجهتهم للغرب الطويلة والعنيفة. وفي هذه البيئة الحالية يُعدُّ البحث في التفاعلات الثقافية في العهد الاستعماري أمراً مناسباً.

ثانياً، إنّ العلاقة بين الدين –وبمعنى أوسع الثقافة – والدولة ظهرت للعيان كمشكل رئيس بالنسبة للجزائر، وإنّ مناقشة متعقلة لهذا الموضوع تتطلب دراسة للعقود الثلاثة السابقة للحرب العالمية الأولى (التي تمّ الإلمام المستفيض بها في هذه المجلدات)، وهي الفترة التي كان الاهتمام بالمسلمين في صلب *السياسة الاستعمارية الفرنسية*، فرعت السلطات الاستعمارية الحاكمة آنذاك مؤسسة

إسلامية تقليدية في الجزائر، لكنها كانت هشة لأن التحالفات بـين النخـب الدينية والحكومات عادة ما تكون كذلك.

وإنّ كتاب سعد الله لا يقترح أي فرضية بسيطة وواضحة المعالم حول العلاقة الناشئة بين الإسلام والدولة، بل بالأحرى يقدم أمثلة يمكن أن تُستخدَم مادة قيّمة لمناقشة هذه القضية، فكثيراً ما يبدي حماسةً عندما يناقش البـاحثين الذين يتحدون التصنيف البسيط، فهم يغرون المرء على التفكير في مدى تعقيد القوى الفاعلة المشكّلة لماضي الجزائر.

انطلاق الصحافة العربية:

لنتطرق مثلاً إلى *جان ديرايو* (7) ابنة أستاذ في ثانوية بالجزائر العاصمة، وهي نفسها متحصلة على شهادة في اللغة العربية، أرسلها الجنرال شارل جونار (8) الحاكم العام آنذاك صحبة أبيها في بعثة إلى تونس ومصـر سـنة 1905، فبحثت هناك في تعليم البنات وفي المنشورات العربية. وعـادت إلى الجزائـر وأصدرت "*الإحياء*" (9) متأثرةً بما عاينته، وهي أول مجلة تصدر باللغة العربية في الجزائر. وقد ساهمت في صدورها شخصيات جزائرية قيادية تابعـة لمؤسسـة التعليم الإسلامية التي كانت ترعاها الدولة (الفرنسية). وقامت المجلـة بنشـر مقالات حول القلق الثقافي والسياسي الذي اكتسح العالم الإسلامي في تلـك الفترة. وكان شعار "*الإحياء*" الأساسي هو أنّ سياسة الاندماج قد أخفقت وأنّ رفاهية الجزائر في المستقبل تتوقف على الانبعاث الأخلاقي والفكري المبني على أساس العادات العربية الإسلامية. وساعدت "*الإحياء*" على إنشاء مجموعة من صحف أخرى ناطقة باللغة العربيـة (10) قبل سنوات من الحرب العالمية الأولى

برغم أن صدورها نصف شهري تواصل أقل من عامين ونشرت تقريباً أربعة وثلاثين عدداً.

وقابل سعد الله بين *ديرايو* ومعاصرتها *إيزابيل ابرهارت* [11]، وهي شخصية أولاها الأكاديميون الغربيون اهتماماً كبيراً بسبب الانطباع حولها كمغامرة جسورة ومجربة لأساليب الحياة. فنادراً ما تظفر ديرايو بسطر يكتب عنها في أبرز الدراسات باللغة الفرنسية حول الجزائر، فإذا عدت صورتها الخَلقية دلالة قاطعة فقد كانت أنيقة ووسيمة، كما يبدو أنها كانت تنتمي –على الأقل جزئياً – إلى أسلاف أفارقة، ربما من أصول عائلة منحدرة من إحدى جزر الأنتيل التي تحتلها فرنسا. ويبدو أنّ جزءاً من هدف جونار برعاية مشروعها هو وضع بديل محافظ اجتماعياً لجريدة *الأخبار* [12]، وهي صحيفة يديرها الفرنسي المتطرف فيكتور باروكان [13]، وهو المنشئ الأول للغز ابرهارت. وسرعان ما أخفقت جهود جونار في إنشاء نوع من التركيبة الفرنسية الجزائرية في الجزائر أوائل القرن العشرين، ويعود ذلك لعدة أسباب منها أنها كانت تركيبة ثقافية استعمارية أُقيمت من القمة إلى القاعدة، عارضها منذ البداية رجال السياسة المستوطنون الفرنسيون، وأيدها مختلف الأشخاص الذين بسبب ثقافتهم أو مواقفهم بذلوا مجهودات من أجل إنشاء ما يمكن أن يُطلق عليه اليوم اسم المجتمع متعدد الثقافات، وتعطلت المجهودات أيضاً بسبب القانون الفرنسي الداعي إلى الفصل بين الدولة والدين والذي تمت المصادقة عليه سنة 1905.

ناشط مسلم بوسام استعماري:

بما أنّ التركيبة الاستعمارية (التي كوّنها جونار) انهارت، فقد اتخذت وسائل تعبيرية إسلامية جديدة في الجزائر طابعاً أكثر شعبية وسياسية. وتمثل

مؤشر هذا التحول في شخص عباس بن حمانة الذي كان ذا أثر في إقامـــة أول مدرسة إسلامية عصرية يؤيدها المجتمع الجزائري بتبسة، وهي مدينة تقع قـــرب الحدود التونسية على بعد حوالي مائتي كيلو متر جنوب البحر المتوسط. وكانت تبسة في موقع منعزل ولكن برغم ذلك كانت معرضة إلى تيـــارات جديـــدة تزحف من تونس وطرابلس.

ويُعدُّ ابن حمانة من عدة جوانب التابع النموذجي للاستعمار، فقد قلّده الفرنسيون وساماً بسبب حماسته المفرطة كمقاول زراعي. ولكن عندما غـــزا الإيطاليون ليبيا سنة 1911 أصبح ابن حمانة –مثل كـــثير مـــن الانـــدماجيين الجزائريين– النصير المتحمس للثوار، فراسل قائد الثوار الطرابلســـيين ســـليمان الباروني.

ولم يلبث ابن حمانة بعد ذلك أن وقع في شرك نزاع حول السياســـة المحلية بتبسة، فتعرض لغضب رئيس البلدية الفرنسي الـــذي ألْـــقى بـــه في السجن، ولكنه بدأ تحالفاً جديداً مع شارل ميشال المهندس المعين بتبسة للعمل بمناجم الفسفاط القريبة من هناك، وكان عضواً في جمعية الدفاع عن حقـــوق الإنسان. وبفضل تلك العلاقة، استطاعت قضية ابن حمانة الوصول إلى مجلـــس النواب بباريس حيث برأت ذمته سنة 1913، وما لبث أن قُتل في العام المـــوالي نتيجةً –حسب ما يبدو– لثأر متصل بالسياسة المحلية.

وبينما كانت سيرة ابن حمانة غامضة إلا أنها يمكن أن تُعدّ كنمـــوذج صغير للموضوعات التي استمرت تثقل كاهل الحياة السياسية الجزائرية، مثـــل ارتباطها بالقضايا الإسلامية العالمية والقضايا المناهضة للإمبريالية، ونشـــاطات الدفاع عن حقوق الإنسان، والإسلام كعامل للتعبئة الشعبية، والعنف المتفشي

بين الفصائل الذي ربما كان بتأثير من السلطات العاليا ولكن بحركيتها الذاتية وبجهود تسعى إلى تقويض الخطط الهادفة إلى إقامة هيئة سياسة دائمة.

مصلح في زاوية:

توجد شخصية أخرى معقدة شدّت انتباه سعد الله تتمثل في عبد العزيز بن الهاشمي بن إبراهيم الذي كان يدير محفل القادرية الصوفية أو الزاوية في مجتمع الواحة بالوادي، فقد أرسله أبوه للدراسة بجامعة الزيتونة الإسلامية بتونس حيث استوعب الانتقادات السلفية للصوفية، ثم انضم سنة 1937 إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت تتبنى التعليم الإسلامي العصري بتوجه سلفي متشدّد. وبعد ذلك فتح مدرسة برعاية هذه الجمعية في مأوى العائلة بالوادي. ولم تمض إلا فترة قصيرة بعد ذلك حتى سقط ضحية لتلاعبات الصراعات المحلية والتوترات العالمية، فاتُّهم بتأييد المؤامرة الألمانية الإيطالية وحُبس بسجن الكدية الذائع الصيت بمدينة قسنطينة [14].

من الوادي إلى مينيا بوليس:

إنّ القصة تتعلق بالأستاذ سعد الله شخصياً لأنه كان يترعرع في الوادي عندما وقعت الأحداث السالفة الذكر. ولقد واصل دراسته بمساعدة جمعية العلماء في أول الأمر بتونس، ثمّ بالقاهرة [15]. واتخذ مساره التعليمي منحى جديداً سنة 1962 عندما التحق بجامعة مينسوتا بعد حصوله على منحة فولبرايت لتحضير شهادة الدكتوراه في التاريخ. وبعد ثلاثة عقود تقريباً راح ينجز معظم بحثه بالحجم الحالي في الأروقة الهادئة لمكتبة جامعة مينسوتا بمساهمة هيئة الإعارة المتبادلة بين المكتبات التي ساعدته على تجميع بعض أجزاء تاريخ الجزائر الثقافي المهاجرة التي ساقتها رياح اليُمْن إلى أمريكا الشمالية.

الهوامش:

(1) استعمل الأستاذ أبو القاسم سعد الله مصطلح "النكبة" عندما تطرق إلى هذه الحادثة في مقدمة الجزء الثالث من كتاب: تاريخ الجزائر الثقافي.

(2) مفرد الكلمة: غليون.

(3) Organisation Armée Secrète (OAS)

(4) تمّ إحراق المكتبة الجامعية.

(5) وهي الطريقة المقتصرة على النظرة الاستعمارية لاحتلال الجزائر المتمثلة في كتابة تاريخ الجزائر بأقلام وأفكار فرنسية.

(6) هو ادّعاء المؤرخين الفرنسيين انتهاج الطرائق الموضوعية والمنطقية في معالجة قضايا حساسة من تاريخ الجزائر، وخاصة الجانب الثقافي منه.

(7) Janne Desrayaux

(8) Charles Jonnart

(9) جريدة *الاحياء* تصدر مرتين في الشهر في مدينة الجزائر ابتداء من سنة 1907، ويسيرها المستشرق لويس بوداي (Louis Boudet) وتطبع في المطبعة الشرقية لفونتانا.

(10) الصحف الناطقة بالعربية، مثل: كوكب إفريقيا، الجزائر، ذو الفقار، الفاروق، الساحي، البريد الجزائري، الفضيلة، الروح، وغيرها.

(11) Isabelle Eberhart

(12) جريدة *الأخبار* هي أقدم الجرائد في الجزائر أسست في 12 جويلية سنة 1839، فكانت أسبوعية وصدرت مرتين في الأسبوع ثم ثلاث مرات في الأسبوع وأخيراً يومياً. وتوقفت عن الصدور سنة 1897 واندمجت في جريدة *التلغراف الجزائري* (Télégramme Algerien)، وكانت تمثل الحزب الجوهوري الراديكالي.

(13) Victor Barrucand

(14) سُجن رفقة الشيوخ المعلمون بالزاوية: علي بن سعد حيران وعبد القادر الياجوري والسيد عبد الكامل سنة 1938.

(15) حول السيرة الذاتية *للأستاذ أبي القاسم سعد الله*، ينظر: أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص ص: 177-179.

-دراسات وشهادات، مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، عمل على جمعها وإخراجها ناصر الدين سعيدوني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000.

مجالس القضاء الإسلامي والدولة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر

للمؤلـــف :ألان كريستلـــو

Muslim Law Courts and the French Colonial State in Algeria
By Allan Christelow
Princeton University Press,1985

أ.عبدالعزيز بوكنة

جـــامعـــة الجزائـــر

يعالج ألان كريستلو القضاء الإسلامي في الجزائر ابتداءاً من سنة1854م عندما تدخلت السلطات الأستعمارية الفرنسية مباشرة في أحكام الشريعة الأسلامية المتداولة في الجزائر.وهذا التدخل المباشر جاء عبر مراحل مختلفة وذلك من خلال المحاولات العديدة التي قامت بها الدولة الفرنسية لأخضاع المجالس القضائية الشرعية والقضاء بصفة عامة الى سيادة القانون الفرنسي ،وهذا الى غاية الحرب العالمية الأولى.

إن المجالس القضائية الأسلامية تتصدر المؤسسات الدينية الجزائرية التي أشتّد حول ماهيتها الصراع بين الجزائريين والدولة الاستعمارية الفرنسية طيلة هذه الفترة التي برزت فيها طبقة القضاة الجزائريين كقوة سياسية وثقافية في صراعها مع المحتل الفرنسي. كما شرح لنا كريستلو المحاولات العديدة(الفاشلة) التي حاول فيها القضاة الجزائريون الإمساك والمحافضة على استقلالية القضاء الإسلامي في ظل الصراع الاستعماري الشرس الذي حاولت فيه مراراً السلطات الفرنسية جعل القضاء الفرنسي هو الغاية والهدف لطمس الشخصية الوطنية الجزائرية.لكن مهما يكن من أمر،فإن المجالس القضائية الشرعية الجزائرية لعبت دوراً حاسماً في الحفاظ على الهوية الوطنية الجزائرية.

إن هذا العمل يعود حسب مؤلفه إلى سنوات السبعينات 1970م من القرن الماضي،عندما كان ألان كريستلو أستاذاً بثانوية مبارك الميلي في مدينة عنابة.وهذه التجربة–وجوده بالجزائر–أكسبته خبرة كبيرة للوقوف على المشاكل العديدة للجزائريين لإحياء القيّم الوطنية التي غابت أوغُيبت أثناء الفترة الاستعمارية الفرنسية للجزائر،والتي يرى فيها المؤلف بأنها كانت أعنف تجربة إستعمارية في الفترة المعاصرة:" violent

"colonial experiences of modern times".ويضيف قائلاً ((أني عندما بدأت دراساتي العليا،أصبح واضحاً لدي أن القضاء الإسلامي كان الحجـــرة الأساسية لفهم أثر التجربة الأستعمارية الفرنسية على القـــيم الثقافيـــة الجزائرية.وأثناء البحث تبينت حقيقة هذه الأثـــار،والتي كانـــت فعـــلاً معقدة:"complex one")).

كما وجه الكاتب خالص أمنياته وتشكراته للأشخاص الذين ساعدوه في هذا البحث ،ومن بينهم الأستاذ أبو القاسم سعدالله الـــذي ساعده في فهم عدة أسئلة حول تطور المجتمع الجزائري ،لاسيما في جانبه الثقافي كما وجه تشكراته أيضاً الى الأستاذين: محفوظ سماتي والأســـتاذ مصطفى والى وآخرين.

أما عن مصادر بحثه فهي متنوعة:

Archives d'Outre –Mer.
(R.E.S.M.) in Aix –en –Provence.
Bibliotheque Nationale de Paris.
" " de L'Arsénal.
Archives des (M.A.E) et de la Défense de Paris.
B.N. d'Alger et Archives Nationales.
Archives de la Wilaya de Constantine.
Archives Nationales et B.N. de Tunisie.

بالإضافة الى إعتماده في أطروحته هذه على بعض الأعمال عن تـــاريخ شمال إفريقيا الموجودة في المكتبة الجامعية لجامعة بـــايرو Bayero بمدينـــة كانو Kano بجمهورية نيجيريا.كما أشار إلى بعض الدوريات المتخصصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تناولت بصفة عامـــة القضـــاء في الجزائر مثل:

International Journal of Middle East Studies.
Revue d'histore Maghrébine .
The Maghreb Review.

لقد جاء الكتاب على شكل *مقدمة وتسعة فصول*.

تناول فيها ألان كريستلو عدة نقاط،نوجزها فيما يلي:

إن القضاء الإسلامي ظل جزءاً أساسياً من الشريعة الإسلامية،وإن أي تهديد له رأى فيه المسلمون بأنه مرحلة خطيرة ،وأن المحاولات العديدة لتطبيق القوانين الفرنسية عليهم جاءت لأرغامهم على ترك معتقدهم.ومادام الحاكم الفرنسي له الحق والإلتزام obligation في تعيين القضاة (ربما من خارج هذه الطبقة)،ومع ذلك تبقى طبقة العلماء هي أساس المجتمع الإسلامي لأن لها سلطة مستقلة ودراية وخبرة بالشريعة الإسلامية أكثر من غيرها.

وبالتالي ظلت هي الحكم arbiters في المحافظة على القيم الإسلامية .وإن كانت هذه السياسة الاستعمارية لم تخص الجزائر وحدها،وإنما أمتدت من المغرب الأقصى إلى أندونسيا بأقصى الشرق. لكن مع ذلك تبقى الجزائر حالة خاصة،حيث أثر عليها الحكم الفرنسي الأستعماري المباشرأكثر من غيرها.كما أن الحوادث التي عرفتها الجزائر في تاريخها المعاصر،خاصة خلال مراحل المقاومة الشعبية للتخلص من الأستعمار الفرنسي ،كانت أكثر عنفاً وأكثر من أية دولة أخرى في أفريقيا أو آسيا.وهذه السياسة الأستعمارية يراها المؤلف بأنها بدأت مع سنوات الثمانينيات من القرن 19م ،حيث بدأت بحملات كبيرة منظمة قادها المستوطنون والقضاة الفرنسون الذين حاولوا القضاء على المجالس القضائية الإسلامية"Muslim courts" والمدارس القانونية للشريعة الإسلامية ومنعها من أداء واجباتها القضائية ،وبالتالي جعلها برمتها تحت أيدي السلطات الفرنسية والقضاء الفرنسي.أما التحدي لهذه السياسة

الاستعمارية الفرنسية التعسفية فقد جاء من قبل المسلمين الجزائريين لاسيما من قبل أعيان المدن الذين زاد غضبهم واحتجاجاتهم لفترة طويلة من الزمن ضد الهيمنة الاستعمارية الفرنسية.

ويتساءل كريستلو حول كيفيّة حدوث هذه التغيرات ؟وكيف حاولت الدولة الفرنسية تغيير الأحكام القضائية الشرعية؟وكيف أثرت في الزعامات الدينية الجزائرية وأيضاً في العلاقات بينهم وبين الدولة الاستعمارية؟كما عالج أيضاً نتائج هذه السياسة الاستعمارية وأثرها على النظام القضائي الإسلامي عند الجزائريين .وفي هذا المقام يرى المؤلف بأن هذا الأثر اختلف من منطقة لأخرى.فعلى سبيل المثال يرى أن الشرق الجزائري حافظ إلى حد ما على سلطة "واستقلالية" النظام القضائي الإسلامي وذلك باتباع سياسة "modus vivendi"،في حين أن منطقة الغرب الجزائري كانت أكثر تأثراً بالقوانين الغربية (الرومانية)،مما أحدث أزمة خانقة بالمنطقة"severe crisis" وهذا الرفض تزعمته طبقة الأشراف لاسيما بمنطقة معسكر،والتي سيطر أشرافها من العلماء سيطرة واضحة على المجالس القضائية المحليّة.أما في الشرق الجزائري ،فمثلاً عندما اندلعت ثورة -1865م برزت طبقة العلماء على الساحة الوطنية أو المحلية. في الشرق مثلاً، كانت ممثلة في القاضي المكي بن باديس ،قاضي قسنطينة،وعبد القادر المجاوي.

أما فصول البحث 9 فتناول فيها المؤلف كريستلو النقاط التالية:

الفصل 01 ص ص: 28-42

The Geographical and historical context and the lines of institutional change.

الأطار الجغرافي والتاريخي وخطوط التغيير المؤسساتي

وعالج فيه الإطار الزماني والجغرافي الذي شملته هذه الدراسة الأكادمية،مثلاً الاختلاف بين الشرق والغرب الجزائري ،وأيضاً الاختلاف في الأفكار بين الزعامات الدينية أنفسهم ،وعلاقاتهم بالدولة الفرنسية. الى جانب سعي السلطات الاستعمارية الفرنسية الرسمية للتدخل في المسائل القضائية الشرعية، كما قدم لنا أمثلة عن الفترة العثمانية وأيضاً عن بداية فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

الفصل 2:ص 43-84

Sainty Justice :The Majlis of Mascara,1853-1856.

القضاء المقدس :مجلس معسكر 1853-1856

حاول كريستلو التركيز في هذا الفصل على منطقة معسكر – حيث ظهرت دولة الأمير عبد القادر–وعلى المسائل القضائية ،خاصة بعد سنة 1856م وهي السنة التي تدخلت فيها السلطات الاستعمارية مباشرة في المسائل القضائية الشرعية،وبالتالي فتحت أزمة حادة بالمنطقة حيث كان لنخبة الأشراف فيها دور كبير،الى جانب معالجتة أثر ودور الشريعة الإسلامية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان المنطقة.

ومن أشراف المنطقة ذكر لنا مثلاً:سيدي علي الشارف،وسيدي دحو،والقاضي الطيب بن المختار الذي كان عضواً بمجلس قضاء معسكر،أي قاضياً تحت الحكم الفرنسي ،ومحمد بلقاضي،الذي كان قاضياً بوهران.كما تعدت معالجته–الجغرافية –لمنطقة معسكر الى مناطق أخرى:كسهول غريس، وتيهرت ،وتلمسان.وذكر لنا الإخوة ماحي

ومحمدبن معاشو بني محمد بن التهامي الذي كان قاضياً على أهل غريس.ومن أقاربه أيضاً ذكر لنا المؤلف،الموفق ولد الماحي بن معاشو ،الذي كان كاتباً عند الأمير عبد القادر.

الفصل **3** ص ص **82-106**

The Urban Milieu:social "Decadence" and its Judicial underpinnings.

الوسط الحضري:"الانهيار"الاجتماعي والقضاء الأساسي

وعالج فيه المحيط الاجتماعي والتباين الحاد بين منطقة معسكر،والحواضر أو المدن الكبيرة مثل الجزائر العاصمة أو قسنطينة.ومادته الأساسية في هذا المبحث هي السجلات المدنية للمكاتب العربية"Bureaux Arabes"،خاصة من الفترة الممتدة ما بين 1858-1850م.ودراسة هذه السجلات تُوضح للقارئ أهمية الحياة الاجتماعية والاقتصادية في هذه المناطق وخاصة أثرها في "ملامح" character طبقة النخبة في الحواضر أو المدن.ويرى الباحث أن هنالك علاقة بين طبيعة وقوانين الشريعة الإسلامية التي سنّها وحكم بها القضاة في المدن،وبين عقلية الحياة الاجتماعية الفردية التي أثرت هي الأخرى في هذه القوانين والأحكام الشرعية.

الفصل **4**: ص ص **107-133**

Muslim Legists and the "Moral conquest"

المشرعون المسلمون "والاحتلال الفكري"

طرح في هذا الفصل بعض الأفكار للشريعة الأسلامية عند بعض الوجوه الفاعلة داخل مجالس القضاء الإسلامي الجزائري،ومواقفها من بعض القضايا (الشرعية) التي حاولت السلطات الاستعمارية تطبيقها أو

على الأقل فرضها على الجزائريين وانتقاد هذه السلطات لبعض الممارسات الإسلامية: كتجارة العبيد، نظام الأسرة أو المرأة، ومعاملة الأيتام. وينتهي الكاتب إلى القول بأن معظم المستعمرين رأوا بأن أغلبية رجال الدين أو العلماء الجزائريين ظلوا "محافظين"، وقلة قليلة منهم من حاول "عصرنة "الشريعة الإسلامية. أو "أحباب الترقي" "Amis du progrès" كما سُموا وقت ذاك، وكانوا من أهل الفتوى والقضاة والعلماء. وذكر لنا بعض العلماء الذين كانوا على رأس المجالس القضائية في المدن: كالسيد حميدة بن العمّالي، القاضي المالكي بالعاصمة، والسيد محمد العياشي بن بورنو، مفتي مستغانم، ومحمد لرقش قاضي عنابة. أما من قضاة مكتب العرب (بلقاسم البوُزاغيّ قاضي الشلف، حسن بريهمات قاضي البليدة، وأحمد بن عياد قاضي تلمسان. أما أساتذة أو "شيوخ" المدارس الفرنسية، فذكر لنا الطاهر بن غراس بتلمسان، الحاج أحمد المـُبارك والمكي بن البُوطالبي بقسنطينة. كما يعتبر الباحث بأن حسن بريهمات كان من أنصار "عصرنة " الشريعة الإسلامية، حيث كان الوحيد الذي عين سنة 1867م بالمجلس الفرنسي الأعلى للقضاء. ويعود أصل بريهمات الى أسرة عريقة سكنت البليدة ثم انتقلت إلى العاصمة، حيث أصبح مديراً لمدرسة في الجزائر. ونظراً لهذه الخدمات التي قدمها مدحته السلطات الإستعمارية على أفكاره وذكائه وعلى حبه للعصرّنة "modernism" والتطور "progress".

الفصل 5: ص ص :134-164

Intervention and crisis 1854-1859

التدخل والأزمـــة 1854-1859

يعالج الباحث في هذا الفصل الأزمة التي عرفتها المجالس القضائية في الغرب الجزائري وركز فيه على مجلس معـــسكر والأزمـــة الـــتي أصابته من خلال سعي السلطات الاستعمارية إلى معارضـــة تأســيس مجالس إسلامية قضائية مستقلة خاصة بالجزائريين أي مستقلة عن القضاء الأستعماري الفرنسي. وعلى أي حال عملت السلطات الفرنسية علـــى إلغائها.

أما الفصل 6: ص ص165-187

From crisis to Rebellion to Compromise ,1860-1866

من الأزمة الى الثورة ،الى التسوية1860-1866

جاء في هذا الفصل ردود الأفعال التي أقدم عليها الجزائريـــون عندما أقدمت السلطات الفرنسية على إلغاء هـــذه المجـــالس الشـــرعية الإسلامية وهي الخطوة التي أدت إلى قيام ثورة 1864-1865م التي استغلها العلماء للدعوة إلى استقلالية القضاء وإلى معارضة تـــدخل الســـلطات الاستعمارية في الشؤون الثقافية للجزائريين.أما مصادره في كتابة هذين الفصلين ،فهي سجلات الإدارة العسكرية الحربية ،وسجلات المداولات التي كانت تجري في المجالس العامة "Conseils Généraux".

الفصل 7:ص ص :188-222

Those who succeeded.

اولئك الذين نجحوا

عالج في هذا الفصل أثار قانون 11 جويلية 1877م الذي فـــتح الباب للترشح للجزائريين لمنصب القضاء،وهذا عبر إجـــراء مســـابقات

"وطنية".ويرى المؤلف أن هناك فرقاً واضحاً بين ما كان يجري في منطقة قسنطينة وبقية المناطق في الجزائر.

في الفصل 8: ص ص 223-243

Toward a difinitive compromise:politics and the Muslim court question in the 1880's

في اتجاه التسوية النهائية:السياسات ومسألة المجلس الإسلامي سنة 1880م

تناول فيه الباحث المجالس الإسلامية التي تحولت الى قضية سياسية في الثمانيات من القرن 19م عند الجزائريين ،وفتحت الباب لهم للمطالبة بحقوقهم السياسية ،وكيف قامت التعبئة الشعبية في قسنطينة على أيدي أعيان المدينة والتي جاءت كردٍ على انتقادات المستوطنين "colons" لمجالسهم القضائية الإسلامية.

في الفصل 9: ص ص244-261

The Aftermath:Algerians as colonialists and Frenchmen as 'ulama.

الأثار:الجزائريين كمستوطنين والفرنسين "كعلماء"

تحدث فيه الكاتب عن الفترة الممتدة ما بين سنة 1892م الى الحرب العالمية الأولى ،وأيضاً عن تلاشي أحلام العلماء الجزائريين في عدم استغلال الفرنسيين لتلك الظروف النابعة عن نوايا خالصة للحوار ما بين الجزائريين المسلمين والفرنسين .وهذا الأمل تلاشى عندما أقدمت السلطات الاستعمارية على تعيين لجنة خاصة لتدوين قوانين الشريعة الإسلامية ،والتي أوكلت مهمتها إلى بعض عناصرها من الفرنسيين "المتخصصين" في القضاء والشريعة الإسلامية! لكن يرى ألان كريستلو أنه رغم ذلك لم تفلح الدولة الفرنسية ،ممثلة في سلطاتها الرسمية في تطبيق هذه القوانين على أرض الواقع.

وأخيراً ختم الكتاب بحثه الأكاديمي بخاتمة جاءت في عددٍ من الصفحات ص ص 262-274 وأضاف إليها ببليوغرافيا ومصادر أرشيفية.والكتاب جدير بالقراءة بنقله إلى اللغة العربية، لأثراء البحث التاريخي.وهذا ما رأى فيه من أهل التخصص،أمثال الأستاذ أبو القاسم .

أقوال وأراء عن مرسوم 1854م

جاء في ص 137 من مؤلف كريستلو ما يلي:

((The political context of the decree is marked by two major events:the submission of the major resistance leaders,، عبد القادر والحاج أحمد باي (in1847 and 1848)،and the outbreak of the Crimean War in 1854.))

((إن الظروف السياسية التي ظهر فيها هذا المرسوم،اتسمت بحادثين أساسيين:خضوع زعماء مقاومتين كبيرتين،الأمير عبدالقادر والحاج أحمد باي(1847-1848)واندلاع حرب كريميو سنة 1854م))

أما مقرر المرسوم فيعلل صدور هذا المرسوم "لمعالجة البلبلة الناتجة عن تعاقب المقايس الجزئية التي أنتجت اشتباك السلطات القضائية والإدارية "...ويضيف أيضاً " إن الشريعة الإسلامية تحتوي على كثير من الغموض وتباين كبير في الآراء في نقاط هامة ، ولإقامة وحدة قضائية رأينا ضرورة إنشاء تحت سلطة الحاكم العام –مجلس القضائي الإسلامي(Conseil de jurisprudence musulman) وهو ليس سلطة قضائية من الدرجة الثالثة ،أنه مجلس استشاري للنظر في النقاط الغامضة في الشريعة الإسلامية ،وأننا نأمل نتائج جيدة من هذه الهيئة .))

تعليق:

إن ضرب جهاز القضاء الإسلامي ،والمحاولات المستمرة للسلطات الفرنسية تحريفه عن مساره الذي يعود إلى جذور تاريخ هذه الأمة التي أخذت الإسلام عقيدة والمذهب المالكي شريعة وقضاءاً

يبدو أنه أغضب الساسة الفرنسين والعسكرين،وراحوا يعملون وفق ما تقتضيه السياسة التعسفية، المنطلقة من خلفيات استشراقية استعمارية .هذه الخلفيات التي تبنها فيما بعد بعض "منظري" مدرسة التاريخ الإستعماري التي ينطلق منها André Canac وغيره. فالدارس لكتاب هذا الأخير لامحالة أنه يدرك جيداً تلك القضايا التي طرحها وللأسف الشديد والتي يعتبرها كمسلمات ،في حين أن الأمر لم يكن كذلك.واعتقد إن لم أبالغ أن "أفكاره" لاتصلح حتى كفرضيات.فهو يرى أن في الجزائر مجموعة من الأجناس والحضارات التي تختلف في معاملاتها القضائية ،وأن ما وصل اليه التظام القضائي "الفرنسي "هو جهد وثمرة "التقاء" القانون المدني الفرنسي مع الشريعة الإسلامية والتقاليد المحلية،ويعتبر جازماً أن الشريعة الإسلامية غير قابلة للتطور والتحديث أو الحداثة !